سيمون حايك

"السِّيد" عنترة الاسبان

أو

الأندلس على عهد ملوك الطوائف وقدوم المرابطين اليها

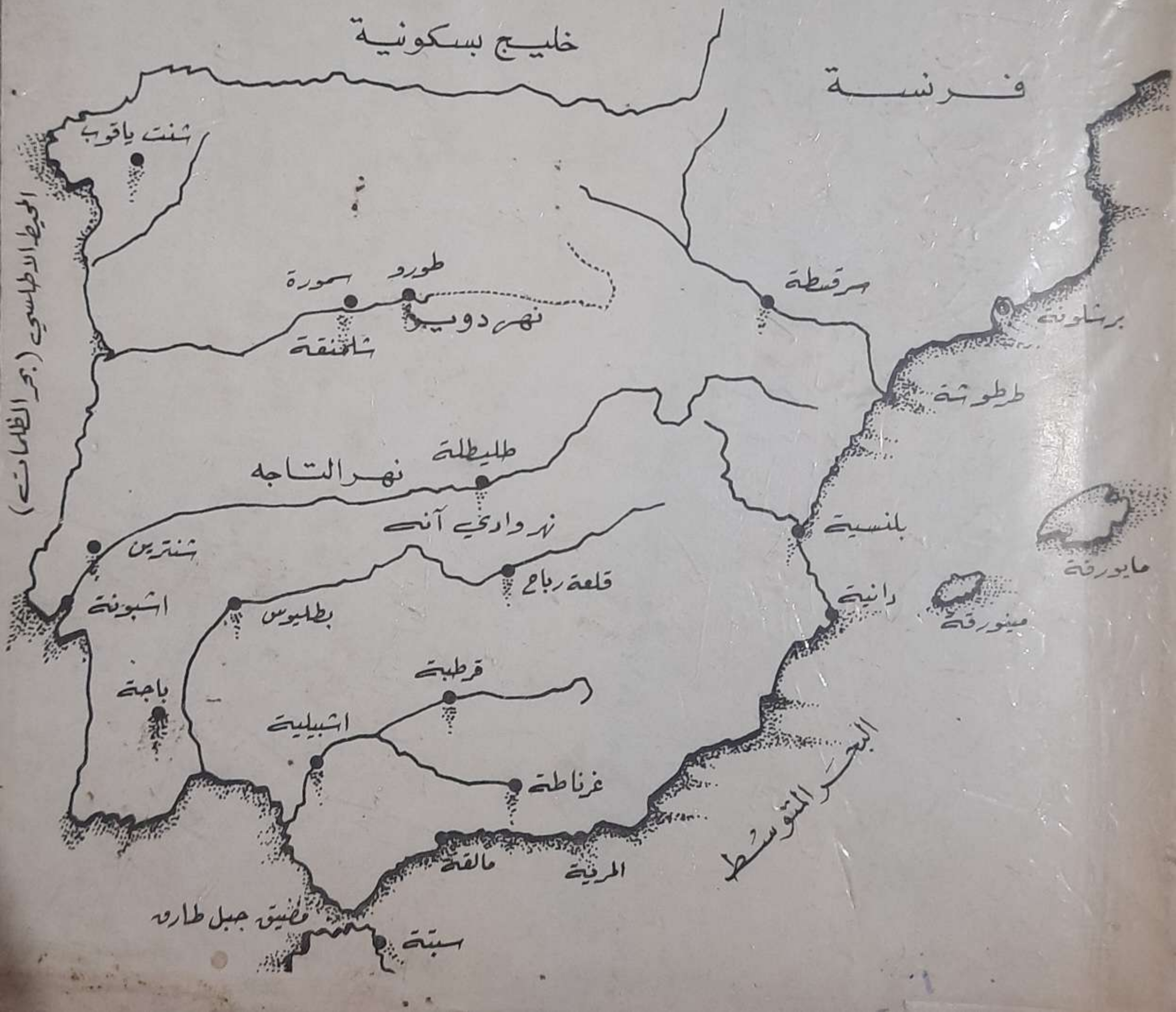

سيمُون حايك

"السَيد" عنترة الاسبَان
أو
الأندلس على عهد ملوك الطوائف وقدوم المرابطين اليها

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

تمهيد

بعد اندحار القوط امام العرب في معركة وادي بكة سنة ٧١١ م ، استتبّ الامر في الاندلس لطارق بن زياد فتولى الامارة فيها سنةً واحدة.

ثمّ جاء بعده موسى بن نُصَيرْ الذي تمّم ما بدأه بها طارق بن زياد .

ولاية عبدالعزيز :

ابن موسى بن نُصيرْ ، جعل مقره في اشبيلية ليبقى قريباً من البحر خشية أن يداهمه ما ليس في الحسبان . عقد معاهدة صلح مع تدمير ملك القوط الذي رضي بدفع الجزية . تزوج ارملة رذريق وطلبت منه ان يسجد له الناس كما كانوا يسجدون لزوجها الاول ، فلم يرد طلبها لشدّة شغفه بها ، فجعل باب مجلسه صغيراً لينحني له الناس ساجدين إذا دخلوا . ثار عليه الجند وقتلوه على تصرّفه هذا سنة ٧١٦ م. وبقيت الاندلس حوالي ستة أشهر بدون وال ، فاجتمع زعماء البربر واختاروا :

ايوب بن حبيب اللخمي :

ابن اخت موسى بن نصير جعل سريره في قرطبة وبنى قلعة ايوب ، الا انه ما كاد يستقرّ في ولايته حتى عزله محمد بن يزيد صاحب افريقية وولى مكانه الحر بن عبد الرحمن ، وكان ملك ايوب ستة اشهر فقط .

الحر بن عبد الرحمن الثقفي :

ملك سنة وسبعة اشهر كان فظاً قاسياً اساء معاملة المسلمين والمسيحيين على السواء فكثرت فيه الوشايات حتى عزله الخليفة .

السمح بن مالك الخولاني :

ملك سنتين وسبعة اشهر ، جهز جيشاً لجباً الى تولوز وضرب عليها الحصار فانجدها القند اودو فنشبت معركة طاحنة في ٧٢١ وقتل السمح وتمزّق جيشه ولو لم يتدار كه القائد عبد الرحمن الغافقي فيجمع شمله ويرتد به الى نربون لكانت الخسارة اعظم .

عنبسة بن سحيم الكلبي :

ملك اربع سنين وخمسة اشهر ، ضبط امر الاندلس وغزا ارض الفرنجة فأغار على شاطىء الرون حتى بلغ ليون وفيما هو يجتاز النهر راجعاً ، اصابه سهم فقتله .

يحيى ابن سلامة الكلبي :

ملك سنة وستة اشهر .

حذيفة بن الاحوص القيسي :

ملك ستة اشهر .

عثمان بن ابي نسعة الخشعمي :

ملك ستة اشهر .

الهيثم بن عبيد الكلابي :

ملك اربعة أشهر .

عبد الرحمن بن عبيدالله الغافقي :

تعهد شؤون البلاد بالعدل فجلى الضرائب على اساس المساواة واصلح الجيش .

وكان عثمان بن ابي نسعة الخشعمي احد زعماء البربر عاملاً على الولايات الشمالية من قبل الامير عبد الرحمن ، فاراد ان يشق عصا الطاعة فحالف الدوق « اودو » ليستعين به على عبد الرحمن فزوّجه الدوق ابنته « لمباجية » ليأمن به خطر الجنوب اذا هاجمه المسلمون .

حاربه عبد الرحمن وساق زوجته سبية فاستولى عليه اليأس والقى نفسه في هوة عميقة .

وخاف الدوق « اودو » على نفسه لما رأى مـــا حلّ بصهره فجمع الجيوش لمحاربة عبد الرحمن الغافقي ولكن العربي تغلب عليه واستولى على عاصمته بوردو ، فاستجار بعدوه شارل مارتيل ، ولكن عبد الرحمن تابع تقدمه من بواتيه الى تور فاورليان ، ودارت معركة في السهول الواقعة بين تور وبواتيه ، تغلب فيها الجيش الافرنسي على العربي بسبب لكوه البربر فقتل عبد الرحمن في هذه المعركة سنة ٧٣٢ م.

عبد الملك بن قطن الفهري :

في المرة الاولى ملك ثلاث سنين وشهرين .

عقبة بن الحجاج السلولي :

ملك خمس سنين وشهرين ، ثم دخل القصر عبـــد الملك بن قطن مرة ثانية فملك سنة وشهراً .

بلج بن بشر القشيري :

صاحب الطلعة البلجية من اهل الشام ، كسره البربر فملك ستة اشهر .

ثعلبة بن سلامة العاملي :

تولى الحكم خمسة اشهر .

ابو الخطار حسام بن ضرار الكلبي :

ملك سنتين وثمانية اشهر ، وكانت في ايامه حروب شهيرة مع ملوك الشمال .

ثوابة بن سلمة الجذامي :

ملك سنتين وشهرين .

يوسف بن عبد الرحمن الفهري :

ملك تسع سنين وأحد عشر شهراً ، واستقر له ملك الاندلس لصاهرة الصميل بن حاتم ، الى ان طرقه من قدوم صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية ما كدر شربه وروع سربه .

عبد الرحمن بن معاوية « الداخل » :

اول من ملك الاندلس من بني امية ، قارع الكثيرين من الثوار ، الى أن استتب له الامر ، وكان من اهـل العلم وعلى سيرة جميلة من العدل . كانت مدة ملكه ثلاثاً وثلاثين سنة واربعة اشهر وكان قـد عقد الخلافة لابنيه هشام وسليمان فاستحقها هشام باستباقه الى قصر الخلافة قبل اخيه اذ كانا غائبين .

هشام بن عبد الرحمن بن معاوية :

غزا بلاد الروم بنفسه وقواده بعد ان تغلب على اخويه سليمان وعبدالله ، فتح اربونه ، وغزا البشكنس وتغلب عليهم وترك ديارهم قاعاً صفصفا . تولى بناء القنطرة الكبرى بقرطبة بنفسه وأنفق فيهـا اموالاً عظيمة . وكانت ايام هشام خير ايام وعافية وامتد ملكه سبع سنين وبضعة اشهر .

الحكم الاول بن هشام :

كان ملكاً كبيراً ، شديد الحزم ، ماضي العزيمة ، حسن التدبير يسلط قضاته على نفسه فضلاً عن ولده وخدمه ، وكانت له الف فرس مرتبطة بجانب القصر فكلما انمى البريد خبر بأمر خارجي عاجله قبل أن يعلم فلا يشعر إلا وقد احيط به .

كانت له غزوات شهيرة وانكر الناس عليه اموراً منها اطلاق يد ربيع القومس متولي المعاهدين بالاندلس من النصارى ، سوّغه افتراض المعاون والمغارم على المسلمين فثار به اهل الربض بقرطبة سنة ٢٠٢ الثورة الشهيرة وجاهروا بخلعه فاعمل السيف فيهم فقتل منهم ازيد من عشرة آلاف وجلى عن قرطبة أضعاف ذلك .

عبد الرحمن الاوسط بن الحكم :

قارع الثوار وغزا جزيرة ميورقه فافتتحها ثانية وغزا بنفسه جليقية فافتتح حصونها وغزا آلبـــه . وفي ايامه خرجت مراكب المجوس او الاوردومان فدخلت مدينة اشبيلية وقادش وشذونة ثم انهزموا . جلبت اليه من المشرق بعد ان عاثت الفتنة فى قصور الامير وخزائن بغداد ، الذخيرة الرفيعة كعقد الشفاء ومثله اعلاق زبيدة بنت جعفر ، توفي سنة ٢٣٣ هـ. وتخلف من الولد ازيد من ثمانين بين ذكر وأنثى .

محمد بن عبدالرحمن الاوسط :

استعصت عليه طليطلة فبرز اليها بنفسه واستعان اهلها بملك النصارى بجليقية اردون بن اذفونش ، فوجه اليهم اخاه ، وكاده الامير محمد فبث الكمناء وقصد المدينة في جمع غير كثير ، فاستبشر الجليقي وايقن انه يظفر به ، فلما خالطه برز الكمناء من الجهات فانهزم وبلغ عدد القتلى ثمانية آلاف فارس . ثم وصل الغزو الى ارض آلبة والقلاع فعظم اثره .

وفي ايامه كان ابتداء امر ابن حفصون كبير الثوار بالاندلس على عهد الدولة الاموية الملبس الدولة لباس الكمد متصل العناء به ازيد من سبعين سنة (راجع كتابنا « الناصر لدين الله »).

وخدمته ملوك البلاد المغربية واعترفت بطاعته بتاهرت وسجلماسة . توفي سنة ٢٧٣ وكانت مدته نحواً من خمس وثلاثين سنة .

المنذر بن محمد بن عبد الرحمن :

كان بعيد الهمة قوي الشكيمة يكرم اخوانه ويحبهم ويدني مجالسهم ويصلهم وكان يجزل العطاء للشعراء وينشدونه غازياً وراجعاً ومن شعرائه بن عبد ربه والعكي ، ولم يكن احد من الخلفاء قبله في شجاعته وصرامته وعزمه ولو عاش عاماً واحداً زائداً لم يبق بين يديه منافق .

انصرف الى محاربة عمر بن حفصون وقد اقسم القسم الغليظ ألا يبرح

من حصره حتى يتمكن منه او يموت دونه واعتلّ بعد أربعين يوماً وتوفي سنة ٢٧٥ وولي مكانه اخوه عبدالله بن محمد .

عبدالله بن محمد :

كان مقتصداً في اموره من مطعم وملبس شديد التواضع متظاهراً بالبر وتصيرت اليه الخلافة وقد اقتسمها الثوار ولم يبق له منها الا الاسم فوق ظهر منبر قرطبة وساءت الظنون ولم يدر عبدالله اين يصرف وجهه . ونغص عيشه قتله ولديه . توفي سنة ٣٠٠ وملك خمساً وعشرين سنة وخمسة عشر يوماً .

عبد الرحمن الثالث :

لقبه الناصر لدين الله ولي بعد جدّه عبدالله فجمع شتات الاندلس وشيّد القصور وخلّد الآثار ودخل الناس افواجاً في طاعته واطلق على ذاته لقب امير المؤمنين .

توفي سنة ٣٥٠ هـ. وكانت ولايته خمسين سنة وستة اشهر وثلاثة ايام وعمره ثلاث وسبعون سنة ، وعهد بالامر بعده لولده الحكم الثاني .

الحكم الثاني بن عبد الرحمن :

بويع لثلاث خلون من شهر رمضان سنة ٣٥٠ ، كان عالماً فقيهاً جمّاعاً للكتب حافظاً للتاريخ .

وفي ايامه سكنت الفتنة لتوطيد أبيه الدولة واستظهاره على الثوار بحسن السيرة وطول العمر ومساعدة الايام ، وفي أيامه ظهرت المجوس فتحرّك الى « المرية » وقد حصروا حصن القبطة من حصونها فاوقع بهم وانشأ الاسطول لغزوه فكان عدده ستمائة جفن .

وزاد في المسجد الاعظم بقرطبة وزينه بالفسيفساء وورد عليه إرسال ملوك البلاد .

وافتتح غالب مملوكه مدينة البصرة من احواز اصيلا وقفل الى الحضرة ، وولد له هشام الثاني ابنه في سن الكبر من جاريته صبح .

توفي الحكم الثاني سنة ٣٦٦ وعمره ثلاث وستون سنة وسبعة اشهر .

هشام الثاني المؤيد بن الحكم الثاني :

وقع الاتفاق على تعيين هشام للخلافة مع وجود الاعمام الكهول وهشام يومئذ صبي يناهز عشر سنين فاستقرّ الامر له بكنفه الحاجب المنصور اسعد اهل الاندلس مولداً واشهرهم بأساً ، العظيم السياسة اطرد له النصر العزيز في سبع وخمسين من الغزوات وكان هو وابنه المظفر عبد الملك ستراً على هشام ورعيته .

محمد بن هشام بن عبد الجبار :

لقبه المهدي استعمل له من الخمر مائة خابية واستعمل له مائة بوق للزمر ومائة عود للضرب واشترى له صلبي كان يتعشقه ، عند ابن الزيات العطار وبعث الى نساء كان يصاحبهن منهن جارية ابي القاسم المصري التي يقال لها بستان وامرأة ابن الشرح التي اسمها واجد فظهر من فسقه واختلال دينه وعقله امر لا يظهر الا من اهل الدعارة المتهتكين فيها ، فكان هذا من جملة اسباب القيام عليه واشعال الفتنة لديه ولم يزل طول مدته مشتهراً بالفسق مظهراً للخلاعة لا يفيق من سكر ولا يرع من منكر بالنساء والصقالبة والملاهي حتى قال بعضهم فيه :

« امير الناس سخنة كل عين ... يبيت الليل بين مخنثين
يحشم ذا ويلثم خد هذا ... ويسكر كل يوم سكرتين
لقد ولّوا خلافتهم سفيهاً ... ضعيف العقل شيناً غير زين »

وقيل فيه أيضاً :

« أشام خلق على العباد ... والناس من حاضر وباد
ابو الوليد الذي اقشعرت ... لنحسه شعرة البلاد
كان على قومه جميعاً ... مزار عاد لقوم عاد »

وكان عبد الجبّار قد جدّد البيعة لنفسه بعد خلعه للمرة الأولى ، فبايعه هشام المؤيّد ، ولكنه فشل ضد البربر ، فخُلع للمرة الثانية ونادى الناس على هشام المؤيّد فأجلس ابن عبد الجبّار بين يديه فعاتبه طويلاً لما جنى عليه في نفسه وحرمه ثم أخرج عبد الجبّار من بين يديه فقتل ومثّل به سنة ٤٠٠ هـ .

ولما قتل المهدي بن عبد الجبّار جلس هشام للناس وبعث برأس المهدي الى سليمان أمير البرابرة ودعاهم الى الدخول فيما دخل فيه الناس والاستقالة من الفتنة فلم يقبلوا ذلك . وفي أخريات ربيع الأول من هذه السنة ٤٠٠ نزلوا قرطبة ودخلوا مدينة الزهراء ينسفون النعام ويسبون الحريم وقطعوا الميرة عن قرطبة فاشتدّ الغلاء وعظم البلاء فاضطرّ هشام الى استصراخ النصارى فأحكمت الشروط على تسليم أزيد من مائتي حصن .

ولم يجد هذا التحالف شيئاً ، اقتحم البرابرة أرباض قرطبة عنوة ودخل سليمان امير البرابرة القصر بقرطبة سنة ٤٠٣ هـ. واحضر هشاماً فوبّخه ، وانتقل سليمان الى سكنى الزهراء ورتّب الأمر وقسم بعض كور الاندلس بين رؤساء القبائل البربرية وكانوا ستة ، فأعطى صنهاجة منهم بني زيري بن مناد البيره ، وأعطى مغراوة جوفي البلاد ، ومنذر بن يحيى سرقسطه ، وبني برزال وبني يفران جيان وذواتها ، والمغاربة بني دمر وازداجة شذونة وموروور ، وولى علي بن حمود على سبتة والقاسم بن حمود على مدينة طنجة واصيلا الخضراء .

ولما استقرّ الأمر لسليمان كان رؤساء البربر غالبين على أمره ، فحذر لذلك الحزب العامري وفرّوا الى بلاد شرق الأندلس فتألبوا بها الملك كما سيأتي في كتابنا .

وجاز علي بن حمود من سبتة الى مالقة ، وخرج سليمان المستعين بالله من قرطبة اليه ، فالتقيا في سنة ٤٠٧ ودارت الدائرة على سليمان فقبض عليه وعلى أخيه وأبيه فقتلوا وجعلت رؤوسهم في طست وأخرجت من المحلة الى القصر ينادى عليها : « هذا جزاء من قتل هشاماً » .

وكان سليمان المستعين اديباً وشاعراً مدركاً .

علي بن حمود بن ميمون :

بن عبدالله بن ادريس . . بن حسن بن علي بن ابي طالب وهو أول ملوك بني هشام بالاندلس . كان قد لحق بالعدوة الغربية وتغلّب على سبتة ثم عاد الى الاندلس لما استوثق الأمر لسليمان .

وفي سنة ٤٠٨ كان مقتله بأيدي احداث من صقالبته بحمام قصره ولما استطال نساؤه لبثه في الحمام دخلنَ عليه فألفنَه صريعاً يسيل دمه ، فطار خبر مقتله وبعث الى القاسم اخيه باشبيلية فلحق بقرطبة وصلّى على اخيه وقعد مكانه وعثر على اثنين من الصبية فقتلا وصلبا ولم تنتقل التهمة الى غيرهما فسكنت الاحوال .

القاسم بن حمود :

كان لقبه المأمون وكنيته ابو محمد وولي الامر مرتين ثم ضعف أمره وتلاشى وغلبه رؤساء البرابرة المستولون على الكور وأمراء الثغر الذين اتفقوا على اعادة الدولة الأموية فبايعوا من بني امية المرتضي .

المرتضي :

لم يطل ان خذله انصاره فقتل واستولى الصنهاجيون على محلته .

ومن بعد هذه الوقيعة ركدت ريح المروانيين وتقطعوا في الارض وكان ممن تخطاه الهلاك يومئذ ابو بكر هشام بن محمد اخو المرتضي ، ولحق بالموالي العامريين فزهدوا فيه ، فاستقرّ عند ابن القاسم صاحب حصن « البنت » فأجاره ولم يزل عنده الى ان استدعي للأمر بقرطبة .

هشام بن محمد بن عبد الملك :

بايعه أهل قرطبة سنة ٤١٨ هـ. وأقام كذلك سنتين وسبعة أشهر

وثمانية ايام ، ولم تطل مدته أن خلع بسبب وزير له يعرف بحكم بن سعيد ويدعى بالقزاز أساء معاملة الوزراء والرعية فبطشوا به وقتلوه .

وكان المغري بهشام ابن عم له هو امية بن عبد الرحمن العراقي من أبناء الناصر ، فتى شديد التهور والجهـل سوّلت له نفسه الاستيلاء . واجتمع عليه العوام وتقدم الى القصر وهشام الشيخ غافل بين نسائه فبادر حـين بلغه الخبر الصفود الى العلية ممتنعاً بها . ونهبت العامة القصر . وبادرت الى الشيخ ابي الحزم بن جهور كبيرهم فهتف على الناس بكف الأيـــدي وأمية مع هذا مقيم بالقصر قـد تبوأ مجلس هشام واستوى على فراشه . وأعمل الوزراء والمشيخة الرأي فاتفقوا على ابطال الخلافة جملة وعلى نفي المروانية واجـلائهم . وأنفذوا الى هشام والى أمية بالخروج من قرطبة ، فأنزل الشيخ هشام من العلية الى ساباط الجامع المفضي الى المقصورة فيمن تآلف اليـــه من ولده ونسائه طارحاً نفسه على الجماعـة ينشدهم الله في مهجته . فأعـلم بكره النـاس له فقال : « ليتني قرب البحر يرمونني في اللجة فيكون اخف لشأني فافعلوا ما شئتم واحفظوني في اهلي وولدي » .

وبقي بمكانـه يومه وليلته اسيراً ذليلاً خائفاً شاخص البصر الى جهة تهجم منها المنية عليه .

وأول ما سأل الشيوخ الداخلين عليه احضار كسرة يسدّ بهـا جوع طفلة صغيرة له ، اذ كان قـد ضمها اليه ساتراً اياها بكمه من برد ليلته ، وكانت تشكو له الجوع ذاهلة عمـــا احاط بهـا فتزيد في همه . وسأل سراجاً يتأنس به نساؤه فأبكى من كلمه .

وبات الناس ليلتئذ بالجامـع ليفرغ الوزراء من شأنـه ، ثم اخرج الى حصن ابي الشرف من غير ان يؤخذ خطه بالخلع ولا يشهد عليه بعجزه عن تدبير الخلافة واحلال الأمة من بيعته على السبيل المعهودة ، وأنسام الله ذلك تهاوناً بحقه ونسياناً .

وأما أمية ابن العراقي فلم يبرح من القصر حتى ازعج مطلقاً لسانه من

الحمل على الوزراء بما شاء . ومشى البريد في الاسواق والارباض بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بني أمية ولا يكتنفهم أحد .

وكان القائم باخراجهم ومقيم الرسم بقرطبة بعدهم أبا الحزم بن جهور وانتهى أمر بني أمية لهذا الحد ومحا رسم الجماعة وتقسم البلاد والاقطار رؤساء الطوائف ، قد استحاز كل منهم استبداده بنفسه .

احوال الاندلس بعد انقطاع الدعوة الأموية عنها :

فان أهلها تفرّقوا فرقاً وتغلّب في كل جهة منها متغلب وضبط كل متغلب منهم مـــا تغلب عليه وتقسموا ألقاب الخلافة ، فمنهم من تسمى بالمعتضد وبعضهم تسمى بالمأمون والآخر تسمى بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمتوكل الى غير ذلـك من الألقاب الخلافية ، وفي ذلـك يقول ابو علي الحسن بن رشيق :

مـا يزهدني في ارض اندلس اسمـــاء معتضد فيهـا ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

أولهم رجل اسمه سليمان بن هود يلقب بالمؤتمن . وكان بنو هود يملكون طرطوشة وأعمالها وسرقسطة وأعمالها وافراغة ولاردة وقلعة ايوب ، وهي البلاد التي تسمى ارغون .

وتجاور بني هود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد العزيز يكنى أبا مروان قديم الرئاسة هو احـق ملوك الاندلس بالتقدم لشرف بيته . كان يملك ببلنسية وأعمالها .

وكان يـلي الثغر رجل آخر يقال له ابو مروان ابن رزين كان يملك الى اول اعمال طليطلة .

وكان الذي يملك طليطلة وأعمالها الأمير ابو حسن يحيى بن اسماعيل ذي النون ، وابو الحسن هذا أقدم ملوك الأندلس رئاسة وكان ابوه اسماعيل هو الذي تغلّب على طليطلة من قبل واستبدّ بها اول الفتنة .

وكان يملك قرطبة وأعمالهـا الى أول الثغر جهور بن محمد بن جهور الى ان غلبه عليها صاحب طليطلة اسماعيل بن ذي النون والد ابي الحسن .

وكان يملك اشبيلية القاضي ابو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد اللخمي تغلّب عليها بعد أن اخرج عنها القاسم بن حمود وابنه محمداً .

وكان يملك مالقة والجزيرة الخضراء وغرناطة بنو برزال الصنهاجيون .
وتغلّب على المرية وأعمالها زهير العامري الخادم ثم ملكها بعده خيران العامري أيضاً الخادم ثم ابن صمادح .

وكان يملك دانية وأعمالها مجاهد العامري اصله رومي مولى لأبي عامر محمد بن ابي عامر .

وكان يملك الثغر الذي من الجهة الشمالية وبعض المدن المجاورة ابن الافطس الملقب بالمظفر ، وكان له ابن اسمه عمر تلقب بالمتوكل على الله ، كان يملك بطليوس وأعمالها ويابرة وشنترين ولشبونة . وكان المظفر هـذا احرص الناس على جمـع العلوم والآداب خاصة من النحو واللغـة والشعر ونوادر الاخبار وعيون التاريخ . وكان لابنه المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر مـع شجاعة مفرطة وفروسية تامة . قتله المرابطون اصحاب يوسف بن تاشفين ، كما سيأتي الكلام عنهم ، وقتلوا ولديه الفضل والعباس صبرا ضربوا أعناقهم في غرة سنة ٤٨٥ هـ .

وكانت أيام بني المظفر بالمغرب الاندلسي أعيـاداً ومواسم ، وكانوا ملجأ اهل الأدب ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم ، وفيهم يقول الوزير الكاتب ذو الوزارتين ابن عبدون من اهل مدينة يابرة ، قصيدته الغراء ومطلعها : « الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... » وسنأتي على ذكرها في حينها .

تلك حال الاندلس في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي عند بدء كتابنا « السيد عنترة الاسبان » وبالواقع . فان وجوه الشبه كثيرة بين البطل العربي والفارس الاسباني كما سنرى .

القسم الأول

غضبة الشرف

- ١ -

- كيف ترين رذريق ياشيمانه في سيفه ودرعه ومهمازه ؟

- انه شاب ظريف يا اوراكه جمع بين الشجاعة والرقة والصلابة والوداعة. وتوردت وجنتاها ، ولحظت عليها الاميرة اوراكه هذا التبديل والمرأة تدرك شؤون المرأة ولاسيما العاطفية منها .

- أتحبينه أليس كذلك ؟

وازداد توريد وجه شيمانه . أجل انها تحب هذا الشاب النابض بالحياة الشامخ الأنف وان كان لا يضاهيها في شرف المجد فهي من سلالة الملوك بينما هو من الأشراف في الدرجة الثانية . الا ان عائلته اخلصت الولاء لعرش قشتاله وبذلت دماءها في سبيله ، واليوم رذريق اصبح فارساً ، قلّده الملك فرنندو سيفه ووضعت له الأميرة اوراكه المهماز في رجليه .

- أحبه ولماذا الانكار ؟ وكل شيء فيّ يتحدث عن حبه ، انه شقيق الروح ومنى القلب .

وامتعضت الأميرة اوراكه لهذا التصريح السافر ، فهي ايضاً تشعر بقلبها يختلج عند ذكر اسم رذريق ، واضطربت يداها وهي تضع له

المهاز . تعرفه منذ صغرهما شبّا معاً وشبّت معهما هذه الالفة فتحولت بقوة الاستمرار الى حب راسخ تكوّن قليلاً قليلاً فنشأ قوياً . وسكتت عن هذا الحب او بالأحرى كانت تجهله لأنه شبّ على مهل فتغلغل في كيانها وبات لا يتميز عن وجودها ، فهي وهو شيء واحد . وعندما سمعت شيانه تصارحها بحبها لرذريق ارتعشت فكأن هذا الحب الهاجع استيقظ على صوت غريب يريد نزعه منها .

وخشيت على هذا الحب الدفين ان يفلت منها ، ومن يأخذه ؟ هذه الفتاة الكريمة النسب القادمة من اقاصي الشمال من جبال اشتوريش . أمن العدل ان تقضي العمر كله في السهر على حب رجل ثم تأتي امرأة اخرى تسلبها اياه ؟ ولكن هل في الحب حق وعدل ؟

ورذريق موضوع هذا الحب ماذا يرى ؟ هل يفضلها علي ؟ اهي اجمل مني ؟ أكاشفه بهذا الحب لعلّ الخجل منعه عن التصريح به لي ؟ امن الصواب ان اكون البادئة في ازاحة الستار عن مكنونات قلبي وانا ابنة الملك فيقال عني انني استسلمت الى نزوات قلبي الطائشة . أفي الحب عيب ؟ لماذا كتب علينا نحن معشر النساء ان نخنق شعورنا في نفسنا مهما كان شريفاً وساميا ؟ وننتظر دائماً المبادرة من الرجل ؟ فلماذا لا تنطلق هذه المبادرة منا فنشجع الرجل على مفاتحتنا بشعوره نحونا ؟ وهذه المبادرة هي ابعد من ان تحط من قدره بل على العكس انها تساعده على انماء رجولته وصقلها .

وتداركت انها استرسلت في تأملاتها فاعتذرت لشيانه عن هذا الصمت الطويل وشيانه بدورها ساهمة النظرات سادرة في احلام حلوة تناغش خيالها . لحظت على رذريق هيامه بها وليست المرة الاولى التي تراه فقد اعجبها حديثه وشهامة نفسه وعلو همته فلا يرضى الحاق الضيم بأحد ولا يسكت عن الظلم .

وتلاقت نظرات المرأتين فكأن كل واحدة شعرت بما يدور في خاطر

الأخرى وتراشقتا النظرات ولا تخلو من بعض الموجدة المتسترة . انهما تتنافسان على حب رجل واحد .

واقترب منهما رذريق بلباس الفارس فبادرته الاميرة اوراكه : « ما اجملك يا رذريق في هذا الزي !

فتبسم عن خجل ، ان وراء هذا الاطراء ما وراءه :

– لقد اوليتموني شرفاً عظيماً انت وابوك مولاي الملك وامك الملكة ، ساستعمل هذا السيف في الدفاع عن الحق وعن الضعيف وضد اعداء المملكة .

– مرحباً بهذه الاريحية الطيبة منك يا رذريق .

– نحن أعوان بيتكم الكريم والزائدون عن حماه .

– بورك فيك وبهذه الحمية التي يرشح بها صدرك .

فاضطربت شيمانه ورأت انها لا تقوى على كبت عواطفها من الانطلاق من مكمنها فاعتذرت وهمت بالانصراف وابتعدت عنهما قليلاً فناداها رذريق : لي اليك حديث .

فادارت وجهها وقد انطبعت عليه خيوط من الألم والكآبة الصامتة . إن بها لسراً دفيناً تود البوح بـــه وتمنعها قوة خفية عن الجهر ، يعذبها وهي راضية عن هذا العذاب صابرة عليه .

اقترب منها رذريق معاتباً : « اهذا ما انتظره منك يا شيمانه ؟ هنأني جميع الاصدقاء الا انت ، على سيامتي فارساً ، اليس على شفتيـك كلمة عذبة في هذه المناسبة السعيدة ؟

فاجابته باضطراب ظاهر : « وما حاجتك الى سماع كلمات هناء مني وقد سمعتها ممن هي اجمل مني وتتهالك على مرضاتك » .

– لا تطيب نفسي الا اذا سمعتها من فمك الجميل ، فلماذا تعذبين قلبي ؟ ألا تعلمين اني منك على هوى مقيم وان ليس من قوة تنزعه من صدري؟ فلماذا الاعراض والدلال ؟ اتراني لا اليق بك ؟ نعم لم اخلق من نسب

الملوك مثلك ولكن اعاهدك على صنع مـا تعجز الملوك ذاتها عن عمله ، لك مني اليمين الصادق .

فرنت اليه بلحظ كسير وأعجبتها فيه هذه الصراحة الوثابة واكبرت فيه هذا الحماس والحب المتدفق .

- ولماذا هذا العتاب يا رذريق ؟ الا تعلم ان حبك قد سرى في دمي فأنا اعيش به مثلما اعيش من الخبز والماء غير اني اخشى ان يضيع او ان ينزع مني او ان يفرق بيننا الآخرون .

اجل يا رذريق ارى العوائق تحول بيني وبينك فكأن الاقدار تكاتفت حتى تفسد ما صلح بيننا .

وسالت دمعة على خدها حاولت اخفاءها كي لا تكشف عما يعذبها .

فادرك رذريق مخاوفها غير أن نزق الشباب صرفه عن تقدير هذه المخاوف حق قدرها انه على ثقة من مستقبله فالامير شانجه ولي العهـد يحبه كشقيق له وربما اكثر من شقيق فقد جعله صاحب العلم والغد يبشر بالانباء السارة والمجد الشامخ فستدين له اسبانيا جمعاء وسيكون له في هذه السيطرة اليد الطولى والمقام الاول وستمتد سلطته حتى لا يضاهيها سوى سلطة الملك .

انه غرور الشباب ، شطح به بعيداً في دنيا الخيال ، فالتصور شيء والواقع شيء آخر . ان تصوراتنا لهـا قيمة اذا دخلت في حيز الحقيقة وإلا فهي هواء وتتبدد في الهواء .

- انسيت يا رذريق ان الاميرة اوراكه تهيم بك وليست مستعدة للتخلي عنك بسهولة . انت لا تعرفها يا رذريق ، انها من النساء اللواتي تسيطر عليهن عاطفتهن فلا يحكّمن سوى قلبهن ويضحين بالعزيز والغالي حتى يدركن ما يصبو اليه فؤادهن . وما يكون شأني وشأنك تجاه نفس مثل هذه ؟ انقف في طريق صبوتها الجائحة ؟ انها تيار جارف هل تعاند

التيار وتتصدى له ؟ يصعب عليك وعلي نزع حبها التليد منها ، قد يتحول الى ذئب مفترس ينهشك وينهشني معك . اذا خيبت املها تخيب املك وتناصبك البغضاء والعداء . اخشى عليك منهـــا يا رذريق فحبها مثل بغضها عنيف لا يقبل الحل الوسط ولا يرضى بالهزيمة . انه حب لا يتردد في محو الحبيب اذا اعرض عنـه . بحقك يا رذريق ، اتق اذاها وارحم شبابك وارحمني لأنني احبك وهي على بيّنة من هذا الحب فـلم اقوَ على ستره عنها ، كشفته دلائله التي لا تخفى على أحد .

— هدئي روعك يا شيانه ، فالأسد ليس ضارياً بالمقدار الذي يصوره فيه الناس ، قد يفترس حيناً وقد يعفو عن ضحاياه احياناً ولاسيما الضعيفين منهم . وأوراكه قوية فهي ابنـــة الملك وشقيقة ولي العهد ومحبتنا لهم واجبة وطاعتنا لأوامرهم فرض . والملوك يترفعون عن الدنايا ولا يسومون رعاياهم الضيم بل يساعدونهم على حل مشاكلهم وتسهيل امورهم .

انا على ثقة من مساعدة اوراكه لنا في صبوتنا . انهـا سامية النفس وتأبى عليها عزتها التوسل في حب رجل لا يبادلها العاطفة نفسها .

كشحي المخاوف عنك يا شيانه ، فالغد لنا . تعالي نغرف من أفاويق اللذاذات .

وقادها الى مقعد استويا عليه والقى يده على كتفيها مطوقاً جيدها ومدنيا رأسها من رأسه وطبع قبلة على خدها فلم تمانع ولم تحاول التملص من يده القوية . ما زالت بقربه فهي بنجوة من غائلات الدهر ، السعادة تلفها بوشاح من الغبطة البعيدة القرار .

وصفا لها زمانها على متناهي الصفوة ، وهذا مما يقلقل ضجعتها ويستنفر هواجسها فالسعادة لا تدوم على حال ولا بد ان يعقبها شقاء ، شهر بؤس مقابل يوم نعيم .

وتمنت لو تخطىء ظنونها فتصفو لها الحياة على غير كدر .

وافترقا على امل اللقاء في الغد .

— ٣ —

دعا الملك فرفندو أكابر مملكته للتشاور في مسألة انتخاب معلم للامير شانجه الاكبر وقـــد مات معلمه برمودس . فحضر القند اورغاس والد شيمانه ، وبرنسولس ، ودياغه والد رذريق ، واریاس غنصاله . فقال لهم الملك :

« دعوتكم انتم عماد مملكتي لاستشارتكم في امر خطير . توفي معلم الامير شانجه فى اشد الاوقات حاجة الى معـــلم . بلغ شانجه اشده فاذا ترك دروسه وهو مـــا يزال في صباه يحمله نزق الشباب الى هوى الاسلحـة والخيل ، وكما تعرفون عنه من العنفوان البادي عليه رغم حداثة سنه فانه بحاجة إلى معلم يلجم هذه الشهوات بالفطنة والدراية .

وقع انتخابي على دياغه ليكون هذا المربي ، غير اني لا اريد البت في هذه القضية قبل اخذ رأيكم فيها » .

فاجاب ارياس غنصاله قائلاً : « ومن مثل دياغه يقدر على القيام بهذه المهمة الدقيقة ؟ » . فاحتدم القند غيظاً وقال : « ان هـــذا المنصب لا يستحقه سواي . مولاي الملك ، لم اعد اقوى على الصمت بعدما سمعت من تعيين دياغه الهرم مربياً للامير والشيخ العاجز لا يؤدي واجبه التربوي كما يليق ، عليه ان يعلّم شانجه استخدام السلاح على اختلاف انواعه وفنون الحرب والضرب والطعن والكر والفر ، وركوب الخيـــل ومجابهة الخصم والتغلب عليه وليس بمقدور دياغه القيام بأي واحدة منها . اما انا فالقريب والبعيد يشهدان لي بطول الباع وباني الفارس الذي لا يقاس بي بطل من الابطال في ساحة الوغى واعمالي خير شاهد لي و . . . فقاطعه الملك : « كفى كفى » .

فقال دياغه : « اجل لقد اثقلت السنون كاهلي وباتت تنقصني صلابة

الذراع للطعن والضرب غير ان صولاتي الماضية هي بمثابـة امثولة يقتدي بها الامير .

واشتد النقاش بين دياغه والقند ، فقال هذا الاخير : « اعمالك لا تقاس بأعمالي ولا مجال للمقابلة لأن النسبة بينهما مفقودة فشتان بين الثريا والثرى .

ـ أنت مخدوع ، كثير الغرور .

ـ انا اقول .....

ـ انت لا تقول شيئاً .

ـ تنطق يدي بما لا ينطق به لساني .

ويتقدم القند من الشيخ الهرم ويصفعه في جبينه ، فتدخل الملك ونادى الحرس لالقاء القبض على القند ، فقال هذا الاخير :

« الصفح يا مولاي الملك عن هذا التصرّف الذي بدر مني في حضرتك واغفر لي هذه لأني كنت قليل الاحترام . ان عذري واضح . عيل صبري وليس من الحكمة في شيء أن يلقى القبض على رجل مثلي قاد جنودك من نصر الى نصر . ان الملك العاقل لا يعتقل الرجال الذين هم اذرع الملوك وقلوب دولتهم النابضة » .

وانصرف دون ان يسمع جواب الملك فرنندو .

فقال دياغه الهرم : « اقدم استقالتي من وظيفتي فليأت القند ويشغلها، يحسن القيام بها أكثر مني ، فقدت شرفي ، وشرفه ما زال مصوناً . اذهب وأجرّ ورائي عاري الذي يرزح بأثقاله على عاتقي اكثر مما ترزح السنون، اذهب لابكي هذا الشرف المطعون حتى يقيض الله لي من ينتقم لهذا الشرف ».

وانصرف غاضباً .

فحار الملك في أمره وقال لجليسيه : « ما الرأي والتدبير ؟ هل القي القبض على القند ؟ » .

فأجاب ارياس : « ليس من الفطنة ايها الملك القبض على القند في مثل

هذه الظروف ونحن بحاجة الى ساعديه ورجاله ، ومن جهة أخرى فهو متعجرف وصاحب ثروة وانصاره في البلاط وخارج البلاط عديدون يخشى شرهم » .

بالصواب نطقت ، اذهب يا برنسولس في اثر القند ودياغه فلا يتحدثان لأحد عما جرى في هذا الاجتماع والا فاني اصب غضبي على من يذيع الخبر ، وانت يا ارياس اذهب وخفف عن دياغه وقل له ان شرفه سيرجع اليه وليأت الي ، وانت يا برنسولس قل للقند ان يحضر الى القصر لنرى في ايجاد وسيلة ترد المياه الى مجاريها بينهما . انني ملك لا يطيعني ابناء رعيتي . سأضرب بيد لا ترحم على من يتمادى في عصيانه . فقال ارياس « ان دياغه من لحمي ودمي » .

وقال برنسولس : « ان القند هو ابن عمي » .

* * * * * * *

دخل دياغه على اولاده الاربعة والشرر يقطر من عينيه فوجدهم بادين السرور بما نال اخاهم البكر رذريق من الاكرام ، فقد اصبح فارساً في قشتالة .

واضطربت نفوسهم لما وجدوا اباهم في هذه الحالة النفسية السيئة التي لم يعهدوها فيه قط ، فسأله ابنه البكر رذريق : « ما بك يا ابي ؟ » .

ـ لا شيء لا شيء ، دعوني وحدي .

فتوارى الاولاد الاربعة حيارى ، لا شك ان اباهم حلّت به داهية هصور . واستسلم الى التفكير العميق المؤلم وقد كاد يمزق احشاءه هذا العار الذي لحقه ، امثله يصفع كأحقر الناس هو الذي لم يصغر خده لمخلوق ؟ ان دمه ما زال حاراً يسري في عروقه ولكن زنده كليل ، لم يعد قادراً على توجيه الضربات القاتلة وعلى امتضاء السيف ليغسل العار بالدم ، كما يقول الشاعر العربي :

« لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم »

اجل الدم وحده قادر على محو هذه الوصمة عن جبينه . وكيف السبيل ؟ لا يجد للمشكلة حلاً ، وحاول الانتحار ، حاول طعن صدره بخنجر فان حياته قد انتهت بابتداء عاره .

واقصى فكرة الانتحار عن مخيلته فان الاساءة يمكن ان تمحى فله اربعة اولاد يفاخر بهم انهم من لحمه ودمه فلا شك يقدرون على الانتقام له واسترجاع شرفه المهيض .

وارتاح للفكرة . فدعاهم واحداً واحداً مبتدئاً بالاصغر واسمه فرنان .

ـ تعال يا ولدي لقد حجب الضياء عن ناظري والحياة تنزح عني !

ـ ما لك يا أبي ؟

ـ اقترب مني يا ولدي واعطني يدك .

واخذ يد ابنه وشد عليها بكلتا يديه قدر ما تسمح له قواه ، فصرخ الولد:

ـ ابي ابي رحماك انك تقتلني ، دعني بحق السماء لقد آلمتني بقبضتيك.

ـ ماذا جرى لك اتبكي يا نصف امرأة ، اغرب من امامي . انا اعطيتك الوجود ؟ كلا انت لست ابني ، توارَ من امامي .

فخرج فرنان مذهولاً من تصرفات أبيه هل اصيب بمس ؟

أما دياغه فقال في نفسه : « يا ويل شرفي اذا كان جميع ابنائي مثل هذا الولد » .

ثم نادى على ولده الثاني واسمه برمودس واخذ يده وشد عليها فصرخ الولد :

ـ ابي ابي انك تؤذيني بضغطك على يدي بهذا العنف الشديد .

ـ أيها الشقي هل تؤذيك يداي الهزيلتان ؟ هل هما مخالب الاسد ؟ اذهب من امام وجهي يا عار دمي .

وهكذا حتى جاء دور رذريق ابنه البكر . فقال هـــذا : « كيف تدعوني في آخر الجميع وانا ولدت قبلهم ؟ فماذا تريد مني ؟

ـ آه يا رذريق كارثة ترسب على كتفي .

ثم أخذ اصبع ابنه وعضه بعنف زائد . فصرخ الولد وقال :

ـ كفّ عن ايلامي يا أبي فلو لم اكن ابنك لكنت صفعتك صفعة تذكرها طول عمرك .

ـ ولما كانت الصفعة الاولى .

ـ كيف كان ذلك ؟ عجّل اخبرني اني على نار .

ـ اعبد فيك هذه الحمية وهذا الغضب . اجل يا ولدي ، صفعني القند ، انها وصمة عار تلحقك ايضاً يا رذريق والدم وحده يغسل هذا العـار . انت املي في غسل هذه الوصمة . اتركك وحدك واذهب لابكي شرفي السليب .

ففرق رذريق في تفكير طويل . أصحيح مـا يسمع ؟ والد شيمانه حبيبته يهين والده لدرجة الصفع ؟ رباه ما الرأي ما التدبير ما العمل ؟؟

وشعر بهول الصدمة على قلبه ، ففي كلا الحالين خاسر ، ان ضاع الحب سلم الشرف وان سلم الحب ضاع الشرف .

وراح يندب قلبه المفجوع لأن الشرف فوق الحب . لا بد من الانتقام للشرف الرفيع . شيمانه نفسها تحتقره اذا عاش بدون شرف ...

* * * * * *

ـ أيها القند !

ـ من يناديني ؟

ـ اتريد ان تعرف من أنا ؟

ـ وما شأنك ؟

ـ اتدري انني ابن من نزعت منه شرفه وكرامته ؟

– وما يهمني من كل هذا ؟

– اذا خرجنا الى مكان آخر ترى انه يهمك .

– خلّ عنك هذا أيهـــا الغلام وسر في سبيلك . تعلّم اولاً القتال ومجادلة الابطال ثم تتشرّف بعد ذلك بكوني قهرتك .

– ابدأ امثولاتي فيك وسترى .....

وهنا تدخلت شيمانه ، فقـــال رذريق : « عفواً يا سيدتي اني ولد له شرف » اتبعني ايها القند .

– ايها الغر المكابر الاحمق ، امض بسلام فـلا اريد قتلك . اذهب والا صفعتك كما صفعت اباك وركلتك الف ركلة .

– لا استغرب منك هذا بما اعرفه عن شراستك ووقاحتك .

ويخرجان ويبتدىء بينهما قتال شديد لم يطل حتى سمع المجتمعون على اثره صوتاً يصرخ : « قتلتني قتلك الله » .

وكان الصوت صوت القند فوثبت شيمانه ابنته مولولة نائحة « ابي ابي » وهتف برنسولس : « اقتلوه اقتلوا القاتل » .

فجن جنون شيمانه وحاولت القاء نفسها من النافذة ، فصدتها الاميرة اوراكه عن تنفيذ قصدها وهجم الخدم على رذريق محاولين امساكه وغيرهم ساعون الى قتله . فصرخت اوراكه في وجوههم قائـلة : لا تلقوا القبض عليه ولا تقتلوه ، انا آمركم ، اني اجلّ رذريق كثيراً ولقد حمله على القتل الدفاع عن شرفه .

فقال لها رذريق : « ايتها الاميرة الجميلة اني ذاكر لك هذا المعروف الى الابد . مريني ان لا اقتلهم فاني أهب لهم الحياة اكراماً لك . ان تضرعاتك وصوتك توقف الهواء السريع وجمالك يخجل البحر والشمس » .

ودخل الملك فرنانده وحاشيته عنـد سماع هـــذا الضجيج والصراخ والعويل فتقدّمت منه شيمانه ضارعة : « العدالة العدالة يا سيدي الملك » .

وانطرحت على قدميه متوسلة باكية العين جريحة الفؤاد « خسرت ابي يا مولاي » . فيجيبها دياغه : « لقد وجدت شرفي الضائع يا سيدي الملك ». فأجابها الملك : « انهضي يا شيمانه وخففي عنك » . وانت يا دياغه تذهب إلى السجن .

فانبرى الامير شانجه قائلاً : « اذا كان لا بد من ذهابه الى السجن ، فأنا ارافقه لأنه لم يعمل سوى الدفاع عن شرفه » .

ـ وانت ، يا ولدي تدافع عنه ؟ ان من يقتل القند فكأنه ارتكب جريمة الخيانة !.

ـ لقد اقمته مربياً لي فيجب ان يحترمه الجميع ، ولا يكون معلمي سجيناً وانا حي. انا ولي العهد يا ابي واتوسل اليك ان تصفح عن معلمي دياغه .

ـ اسلمه اليك ويكون تحت عهدتك .

فقال دياغه لشانجه : « حفظتك السماء واطالت ايامك على الارض » .

وخرج الاثنان من حضرة الملك .

وانطرحت من جديد شيمانه على قدميه يائسة ضارعة فانهضها الملك قائلاً :

ـ كوني على ثقة يا شيمانه بأن عزاءك عندي .

ـ العدالة يا سيدي الملك ، العدالة .

ـ تشجعي يا ابنتي ، تشجّعي .

فتنهدت باكية مرددة في سرها : « آه منك يا رذريق وآه عليك » .

وجرّت ذاتها جراً الى بيتها فقدماها لا تحملانها ، ووصيفتها « البيره » الى جانبها تشدّد من عزائها المتراخية لكثرة مـــا تجرّعت من الاسى ، وتعزيها على لوعتها الكبرى ولا تريد ان تتعزى .

والملك حائر في امره لا يدري ماذا يعمل وبأي رأي يأخذ .

فنادت شيمانه وصيفتها قائلة :

« هلمي بنا يا البيره إلى البيت ، اشعر بقواي تخور والحياة تنزح عني ، لا اقوى على التصديق ان رذريق حبيب قلبي يقتل والدي . رذريق ما اقساك . لم ترع حرمة الوداد . نزعت مني نصف حياتي ، فاذا انتقمت منك ذهب النصف الثاني . اهذه هي محبتك لي ؟؟؟ آه انك تحملني على ملاحقتك حق النهاية ، حتى انتقم لأبي منك . لقد وعدته بالانتقام قبل ان يلفظ آخر نسمة من حياته ، كما طلب مني وسأبر بوعدي وان كلفني حياتي...

ودخلت البيت تتجاذبها هذه الشجون ، واذا بها تبصر رذريق ساجداً امامها .

« جئت اليك يا شيمانه لأكفيك مؤونة التفتيش عني ، جئت اليك لكي تنتقمي لأبيك مني » .

فارتعدت شيمانه عند منظره ولم تصدّق عينيها ما ترى ، افي حلم هي ام في يقظة ؟ وهتفت : « ربي والهي ؟ رذريق تحت سقف بيتي ؟ » .

— اصغي الي يا شيمانه ثم اغمدي هذا السيف في صدري انتقاماً مني لأبيك الذي صفع ابي ووصمه بعار غسلته بدمه ، ثم جئت اليك لتطفئي بدمائي موجدتك علي فانتقمي مني لأبيك كما انتقمت منه لأبي .

— رذريق اني لا ألومك في انتقامك لشرف ابيك رغم انك جعلتني يتيمة شقية ، ولكن الومك لمثولك امامي في هذه الساعة ولم يجفّ بعد دم والدي ، انـك يجرأتك هذه تهينني مرة اخرى لأنك واثق بأني لن اقتلك بابي ولن احقد عليك انا التي عبدتك على مذبح قلبي ، فامض عني واعلم اني ما زلت اعبدك ولكن سالاحقك حتى النهاية ، امض واحـذر ان يراك احد في خروجك من بيتي فلا اريد ان تنزع مني تعقلي بعد ان نزعت مني حياتي .

— رحماك يا شيمانه ، حققي املي واذبحيني بهذا السيف المضرج بدم ابيك.

— اخرج بحقك ، اخشى ان يشاهدوك عندي ، ويا لعاري !!! ارفق بشرفي ، اخرج ودعني في كوابيسي وآلامي !

ـ اجل سأذهب الى ساحات الوغى واعرض نفسي لضربات الصوارم وطعنات القنى فيقضي الله امراً كان مقضياً .

استودعك الله يا من هي اعز من روحي ودمي !! سافتش عن الموت بين العرب .

وانطلق من ذلك البيت مثـــل خروج آدم من الفردوس وتوجه الى القصر ليودع الامير شانجه الوداع الأخير .

وصل الى القصر سراً فصادف الاميرة اوراكه فهرعت اليه وعلامات السرور بادية في محياها للقياه ، لقد ابصرته قبل ان يبصرها فنادته : رذريق! وارتعش عند سماع اسمه والتفت فاذا هي اوراكه ، فقال لها : جئت لاودع شانجه قبل سفري » .

ـ الى اين ؟

ـ الى مقاتلة العرب علني احصل من جديد على رضى ابيك الملك فرننده !

ـ ومن يرافقك في هذه الرحلة ؟

ـ اصحابي ورجالي وعددهم خمسمائة .

ـ تعجبني فيك يا رذريق هذه الشجاعة !

ـ لا استحق هذا الثناء من فيك يا ابنة الاكارم .

ـ ليس هنا من سيد او مولى . رافقتك السلامة وستعود ظافراً وبعد ذلك سنرى .

ـ حفظتك السماء الف سنة . امنحيني بركتك .

ـ اذا كانت بركتي تجعلك سعيداً فلا شك ستكون سعيداً . قادتك يمين الله وشددت من حيلك وكثرت من انتصاراتك . إذهب بحراسة الله .

ـ اني اعبد الارض التي تطأها قدماك . اطال الله ايامـــك أجيالاً واشتهر اسمك على الارض ، سأنتصر بطلباتك ، ويرافقني صوتك ودعاؤك.

– حافظ على حياتك يا رذريق انها عزيزة على قلبي . حرستك يمين العلي وشدّدت قواك .

– انت يا اوراكه تشددين من قواي .

– باركتك السماء .

وقدّمت له يدها فتناول تلك اليد بخشوع وأدناها من فيه وانحدرت عليها دمعتان فارتعشت لهما روح اوراكه وما تمالكت ان ضمت رذريق اليها ، انها تريد ان تسبغ عليه حمايتها وحنانها وحبها . انه جدير بهذا الحب غير المتكافيء فاذا كانت هي ابنة الملوك فهو مكتوب له غد واعد سيحسده عليه الملوك انفسهم ويسعون للتقرب اليه وكسب رضاه . سيحالفه النصر ويرافقه الحظ . ولا تجـد غبناً في محبته فقيمته الشخصية تعوض عن كرم محتده .

وتوارى بسرعة ، يخشى ان يقع في هوى هذه الاميرة وقـــد عاهد شيمانه على الوفاء ولا يحنث بوعده .

ما ان ابتعد رذريق حتى توجهت الاميرة اوراكه الى حجراتها دون ان تلوي على احد ، تريد الخلوة الى نفسها لتكون مع رذريق . أصبحت متيقنة من حبها له لاسيما وقد خلا لها الجو ، فالمنافسة التي تخشاها من شيمانه قد زالت وربما الى غير عودة . الدم .... والقربى .... الدم يصرخ الى السماء طالباً الثأر ، والثأر يفرق بين قلوب ويجمع بين قلوب . لقد صدق الشاعر العربي في قوله « مصائب قوم عند قوم فوائد » .

هل تريد السماء ان تساعدها في ادراك مآربها ؟

أليس من تدبير السماء وعماوة القدر ان يقتل العاشق والد حبيبته في ظروف غريبة ؟ لصالح من تجرى هذه الامور ؟ لصالح اوراكه دون سواها . اصبح رذريق لها دون منازع ، فهي ملاكه الحارس ترد عنـه كيد اعدائه الكثر .

وكان الليل قد غلّف القصر فاستلقت على سريرها وعيونها شاخصة في

سقف الغرفة حالمة ساهية ، حتى دهمها النعاس فنامت قريرة العين رخية البال ، همها من دنياها ان تجد فتى احلامها وقد وجدته ولن يفلت منها .

وقبل ان تغمض جفنيها تلت هذه الصلاة في نفسها :

« جعلك الله يا رفريق في حفظه وكنفه وجعل سفرك ايمن سفر عليك ورجع لك بدرك الحاجة وبلوغ ونجح الطلبـة ونيل السؤل ، ولا زالت اعلام النصر معقودة باعلامك ، ومكّن الله يدك من ناصية عدوّك بالصولة عليه »

******

- ٣ -

ـ انظر يا شانجه هذا السيف الملطخ بالدماء ، فاني وان كنت امرأة فالسماء اعطتني قوة الرجال . عندما كنت قادمة مع امي صادفنا خنزيراً بريا فقتلته بهذا السيف .

فاضطرب الامير شانجه عنـــد سماع هذه الرواية من شقيقته الاميرة اوراكه ولحظت عليه اضطرابه فقالت له :

« ايسوءك يا شانجه ان تكون اختك من الشجعان ؟

ـ كلا ، ولكن قالت لي العرافة : طالعي أن اموت قتيـلاً بسيف مثل هذا السيف .

ـ وهل تصدق الخرافات يا شانجه ؟

ـ اجل ، اصدقها لأنها قد تتحول إلى حقيقـة . قصدي الوقاية منها بوضعي على قلبي صفيحة من الفولاذ لا تؤثر فيها طعنات السيوف !.

ـ المحافظة على القلب تكون من الامام ومن الوراء ايضاً ، فمن الظهر تنفذ الطعنات الى القلب .

– ماذا تقولين ؟ اخشى ان تكوني سبب موتي وخير لي ان اقتلك واستريح من شرّك .

– اني شقيقتك وجئنا من اب واحد .

– ولكن مصيرنا ليس واحداً . انا خلقت لاعتلاء العرش بعد ابي ، وانت لا !

فاضطربت اوراكه من كلامه ، إنهـا تخشى فيه بطشه وعنفوانه فهو كالاعصار يجرف كل ما يعترض سبيله ، وراحت تتوجس منه شراً . انه لا يرعى حرمة الاخاء وطموحه يسول له الحل والحرام .

وحدثتها نفسها بشر مستطير يأتيها ويصيب إخوتها من هـذا الشقيق الاكبر الذي يريد التفرّد بالملك مخالفاً ارادة والدهم الملك فرننده الميالة إلى تقسيم المملكة الاسبانية الناشئة بـــين ابنائه الثلاثة وبنتيه : شانجه ادفونش وغرسيه وهي اوراكه وشقيقتها البيره .

لقد كاد يبطش بها لو لم تنبه فيه هذه البقية الباقية من الاخوة في نفسه ، ولكن من يضمن لهـــا في المستقبل النجاة من اوهامه المختلقة ؟ وفتشت عن حيلة تتقي بها شره ، إن نفسه لأمّارة بالسوء فلماذا لا تتغذى به قبل ان يتغشى بها ؟ ونزعت هذه الفكرة الشريرة من ضميرها ، وعادت اليها مخاوفها من الموت المتربص لهـــا في أخيها وحاولت تبرير تفكيرها المجرم واسكات صوت ضميرها .

وعلت ضجـة في القصر ابقظتها من سهومها فاقتربت من النافذة واذا بها ، وبالدهشتها وفرحها ، ترى رذريق عائداً بعد غيبة ثلاثة اشهر ومعه اربعة ملوك ، ادركت على فورها ، من لباسهم وسحنتهم انهم من العرب .

دخلوا جميعاً على والدها الملك فرننده فحملها فضولهـــا لمعرفة سبب قدوم هؤلاء الملوك بصحبة رذريق ، فتوجهت الى نافذة تشرف على القاعة تسمع منها وتنظر دون ان ينظرها احد . واذا أحد الملوك انتصب امام ابيها قائلا :

« ايهـــا الملك ، نحن اربعة ملوك ندين بالولاء لمن يدين لك بالولاء ، لفارسك رذريق الذي اطلقت انا عليه اسم « السيد » .

كنا شكلنا قوات سارت تحت اعلامنا فخرقنا حدودك وقهرنا جنودك واجتحنا قراك ومزارعك واسرنا رجالك واخضعنا حتى الينابيع المنبجسة من الجبال الشماء . لمـا وصل هذا البطل فقاتل وقتل ونازلني وغلبني ، وهرع هؤلاء الملوك الثلاثة لنجدتي بستة آلاف رجل فغلبهم جميعاً . وها نحن تحت تصرفك ايها الملك فافعل بنا ما تشاء .

وتقدم رذريق وجثا عنـــد اقدام الملك فرننده طالباً عفوه ورضاه لقتل القند ، فانهضه واجلسه قربه ، واخذه الامير شانجه وضمه الى صدره.

واقترب منه الملك العربي وقال له « يدي بيدك يا ايها السيد » .

فأجابه السيد : « نحن في حضرة الملك الامبراطور ، وعليك بتقديم الطاعة له دون سواه من رعاياه .

فامتلأ قلب الاميرة اوراكه حبوراً ، إن السيد سيكون لها وستهبه من روحها وجسدها كلما تستطيع المرأة ان تهب الرجل . انها سعيدة بحبه راضية عن رؤيته راغبة في قربه . وتخيلته وكأنه يطوقها بذراعيه القويتين وقلبه الرقيق . وشعرت بقشعريرة لذيذة اختلج لهـا قلبها فالقت ذاتها على مقعد وأغمضت عينيها نصف اغماضة واستسلمت الى تخدير لذيذ جال في اعصابها ، وشطت بها احلامها البيضاء مناجية رذريق بأعذب الالفاظ ومسترسلة لسهو لا تريد الخروج منه .

انها غارقة في حب فارسها وواهبة له ذاتها قبل ان يطلبها منها . تستطيب هذه الهبة المتجاوزة كل هبة .

القسم الثاني

آمـــال تذوب

- ١ -

بنو هود في سرقسطه

من جملة ممالك الطوائف في الاندلس خلال القرن الحادي عشر المسيحي مملكة بني هود في الثغر الاعلى من شبــه الجزيرة الايبرية او الاندلس . كانت مملكة لا يمكنها العيش بدون حماية ، فالممالك الاسبانية تحيط بها من حدودها الثلاثة : مملكتا قشتالة ونبارة من جهة ، مملكة أراغون من جهة ثانية ، وبرشلونه من جهة ثالثة ، فكان عليها ان تدفع الجزية لاحدى هذه الممالك لقاء الحماية .

حوالي منتصف الجيل الحادي عشر المسيحي ، بدأت تظهر نباهة بيت هو على عهد سليمان بن محمد بن هود . كان من أكابر الجند بالثغر الاعلى الى حين الفتنة الشاملة ، فتغلب على مدينة لارده ومنثون . ولما ثار اهل سرقسطة على يحيى بن المنذر بن يحيى التجيبي صرفوا طاعتهم الى سليمان هذا فضخم امره واشتهر ذكره وبعُد صيته . وعنــد وفاته سنة ١٠٤٦ قسّم على اولاده الخمسة اقطار مملكته فولّى احمد مدينة سرقسطة .

ويوسف مدينة لاردة
ومحمد مدينة قلعة ايوب
ولب مدينة وشقة
والمنذر مدينة تطيله

فاستبدوا بعد موته . وكان احمد اقواهم ، فظهر عليهم الى ان ابتزهم ما كان بأيديهم واستأصلهم الى ان ذهب اسمهم . ولقّب بالمقتدر .

فاخضع الثغر الجوفي واضاف مدينة طرطوشة الى مملكته ، وكانت بيد لبيب من الفتيان العامرية ، ثم في يد مقاتل بعده فاستحوذ عليها بعد مقتلهما .

ووقعت بينه وبين جيرانه الاسبان حروب كثيرة استولوا بها على مدينة بربشتر ، فشمّر المقتدر احمد بن سليمان بن هود الى استرجاعها واستنفر العرب من جميع بلادهم ونازل المدينة . وكان في جيشه الذي احتشده من الرماة بالقسي ازيد من ستة آلاف ، ففتح المدينة عنوة ، فشاع له بذلك ذكر جميل وصيت شهير .

ثم زاحم علي بن مجاهد الملقب باقبال الدولة على مدينة دانية واستولى عليها وضمها إلى مملكته ، فمدحه الشاعر الحصري مهنئاً بهذا الفتح في قصيدة جاء فيها :

كذا تفتضّ ابكار البلاد ... ولا مهر سوى البيض الحداد
هديت العسكر الجرّار ليلاً ... فاهديت الظباة الى الهوادي
ملأت به الفضاء فضاء ليل ... محت فيه الظبا شكل السواد
وما اقبلت الا بعد ما قد ... سقيت الثغر من ثغر الاعادي
وكان مرام دانية عزيزاً ... فهان على المسومة الجياد
كأن سيوفك الاقدار تجري ... بما شاء الاله على العباد
ومثلك من جنى ثمر الأماني ... وآتى حقه يوم الحصاد
تشاغلت الملوك بمن دهاها ... وشغلك في جهاتك بالجهاد
بناك الله للاسلام حصنا ... وعلّمك التجلّد للجلاد
وتنهض والثقيل عليك خفّ ... وتنظر والخفي اليك باد
فتحت معاقلاً لو ابصروها ... لقالوا انت لقمان بن عاد

وفي سرقسطة لـك دار ملك زريت بهـا على ذات العماد
ورأيـك في الادارة لو رآه معاويـة لأغنى عن زيـاد
لقد اربت سيوفك يوم سلّت على قس بن ساعدة الايادي

توفي سنة ١٠٨١ مسيحية بعد أن ملك خمسة وثلاثين عاماً ، من كلب اصابه كان يعض له اعضاءه . وفرض على مملكته ضريبة مال للاسبان .

ثم خلفه ابنه المؤتمن وكان بينه وبين ابن عبـاد الاشبيلي منافسات شديدة ولم تطل مدة ملكه فمات سنة ١٠٨٥ .

وجاء بعده ابنه المستعين ، فامتد ملكه من سنة ١٠٨٥ الى سنة ١١١٠ مسيحية وهي السنة التي سقطت فيها سرقسطه بيـد المرابطين ، كما سيأتي الكلام عنها .

نحن في سنـة ١٠٦٣ في ايام المقتدر الذي كان يدفع الجزية للملك فرننده الحاكم في قشتالة وليون .

هاجم ردمير الاول ملك أرغون مدينة غراوس (GRAUS) العربية وحاصرها طامعاً في امتلاكها . وهذه المدينة تخضع للمقتدر ، فخرج من سرقسطة لنجدتها على رأس جيش قوي .

وبمـا ان المقتدر كان يدفع الجزية للملك فرننده وجبت له مساعدته ضد اعدائه مهما كان امرهم ، سواء اكانوا من الاسبـان او من العرب ، ولم يتردد الملك الامبراطور فرننده في مد يد المعونة له وان كان يساعده على اخيه ملك ارغون ردمير الاول ، فبعث ولي عهده الامير شانجـه برفقة السيد .

وصلت هذه القوات المشكلة من فيالق عربية واسبانية لمساعدة مدينة غراوس التي يحاصرها ردمير ملك ارغون عم الامير شانجه قائد القوات القشتالية القادمة لمساعدة المقتدر ، فدارت معركة حامية الوطيس كانت الغلبـة

المقتدر وللقوات القشتالية قتل فيها ملك ارغون عم الامير شانجه نهار الخميس في ٨ أيار مايو سنة ١٠٦٣ مسيحية .

تلك كانت الحملة الاولى التي يشترك فيهـــا رذريق السيد الى جانب الامير شانجه انها قوات اسبانية عربية تشترك في القتال جنباً الى جنب ضد قوات اسبانية .

واجتمع الامير شانجـه بالمقتدر وهنأه على الانتصار وقدّم له رذريق « السيد » وتعارفـــا فاكرمهما المقتدر كل الاكرام واعجب الامير القشتالي بالملك العربي كيف انه استأثر بالملك دون اخوته الاربعة بعد ان غلبهم جميعاً .

وقدّم لهما المقتدر هدايا سنية وودعهما بعد موافقتهما مسيرة يوم كامل.

* * * * * *

الملك فرننده الاول على فراش المرض ، ادرك ان منيته قربت فالسنون ترزح على كتفه والشتاء بارد هذه السنة ١٠٦٥ .

وتمثّلت له حياته الطويلة التي عاشها في الحكم . كثرت فيها انتصاراته على العرب ، فقد فرض الجزية عـــلى الكثيرين من ملوك الطوائف مثل مملكة طليطلة وعليها بنو ذي النون ومملكة اشبيلية وعليها بنو عباد ، وبطليوس وسرقسطة كما رأينا ، بعد ان كان الاسبان يدفعون هذه الجزية نفسها للعرب طيلة ثلاثة أجيال .

لم يكن على وفاق مع اخوته ولاسيما ملك نباره غرسيه الثالث ، فقد دارت بـين الشقيقين حروب كثيرة ضارية لأن النبارى كان يطمع في عرش قشتالة .

كما انه ارسل ابنه الامير شانجه لنصرة المقتدر ملك سرقسطة العربي ضد اخيه ردمير الاول ملك ارغون وقتل هذا في المعركة امام غراوس، كما رأينا .

ومما ورث عن أبيه فكرة تقسيم المملكة على ابنائه ، وتلك عادة اتبعها العرب والاسبان على السواء جاءت اليهم من قارله سلطان الفرنسيس فحذوا حذوه ومنعوا الزواج عن بناتهم مخافة أن يأتي من ينافس الاشقاء على العرش .

ها هو مسجى على فراش النزع ورجلاه نحو الشرق والسبحة في يده والاساقفة والكهان حوله ومن بينهم ابنه غير الشرعي الذي سامه رئيس اساقفة على طليطلة ورئيس اديرة كثيرة في اسبانيا مثل سانتياقوب وسرقسطة وجعله رئيس الكنيسة الاسبانية ، فخاطبه أبوه بهذه الكلمات .

« ولدي ، لو لم تفاجئني المنية لكنت أقمتك على كرسي روما . لقد تركت لك ثروة لا يستهان بها فتدبر امرك فقد تساعدك على الوصول إلى اعلى مركز في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . وفقك الله » .

وفي هذه الاثناء دخلت الاميرة اوراكه وسيماء الحزن والكآبة مرسومة على وجهها فقالت :

« لقد قربت منيتك يا ابي فليحمل القديس ميخائيل روحك الى باريها. وزعت مملكتك كما شاءت ارادتك : اعطيت شانجه قشتالة ، وادفونش جعلت مملكة ليون من نصيبه . اما غرسيه فقد منحته غليشية وما يليها، وانا لأني امرأة ، حرمتني من الميراث ، فلم يبقَ امامي سوى أن اتيه على وجهي واقدم جسدي لمن اشاء ، للعرب لقاء اجر وللاسبان كعمل رحمة . ومن المال الذي اجمعه اقدم الصلاة عن نفسك ! » .

اسكتي يا ابنتي ، لا تتلفظي بكلمات مثل هذه مليئة بالفجور ، ان المرأة التي تنطق بمثل هذا ، تستحق الحريق حية .

هناك في قشتالة القديمة بقيت رقعـــة من الارض صغيرة ، سمورة ، سمورة الحصينة ، من جهة يحيط بها نهر الدوير ومن جهة أخرى الجبال الشماء ، فمن ينزع منك هذه المدينة يا ابنتي ، فلتحل عليه لعنتي .

فردّد الجميع : « امين ، امين » .

الا الامير شانجه فانه لم ينبث بكلمة .

هكذا تمّت القسمة ، اصبحت مملكة طليطلة تدفع الجزية لادفونش بعد ان كانت تدفعها لأبيه الملك فرننده .

ومرقسطة صارت تؤدّيها لشانجه .

ومملكتا اشبيلية وبطليوس لغرسيه .

لم يرضَ شانجه البكر عن هذا التقسيم لأنه ، حسب زعمـه ، مخالف لتقاليد القوط فإنهم لم يكونوا يقسمون ممالكهم . انه يرغب في المملكة جميعها ، فلم يحلف يمين الولاء والحفاظ عـلى ارادة ابيه الملك فرننده كما حلف اخوتـــه . سكت وخنق غضبه في صدره منتظراً سنوح الفرصة حتى يضرب ضربته .

******

- ٣ -

السيد القنبطور

بعد وفاة الامبراطور فرننده الاول ظهرت بوادر سيطرة قشتالة على بقية اجزاء البلاد الاسبانية ورذريق « السيـــد » لعب في هذه السيطرة الدور الاكبر .

فشانجه الثاني ملك قشتالة الجديد جعله صاحب العلم اي قائد جيوشه

الأعلى ورئيس حرسه وحامل سيفه يدافع عن حقوق الارامل واليتامى ويعاقب الاشراف اذا اذنبوا .

وكانت هذه الوظيفة تتبدّل بسرعة ، غير ان « السيد » ظل محافظاً عليها طيلة حياة الملك شانجه الثاني فقاد الجيوش القشتالية الى الفتح والسيطرة .

ونشب خلاف بين مملكتي نبارة وقشتالة على مدينة قلهرة Calahorra اذ كل منهما تدعيها لها . وفضاً للنزاع وحقناً للدماء قررتا العمل بالعادة السارية في ذلك الوقت : « حكم الله » اي كل فريق يقدّم فارساً عنه ، يتبارز الفارسان والغالب يخوّل فريقه حق املاء شروطه على الفريق الآخر.

قدمت قشتالة عنها رذريق « السيد » لكونه صاحب العلم وقائد قوات الملك شانجه . ونبارة قدّمت عنها فارسها الاوحد شيمانو غرسيس الحاكم على عدة قلاع ، وكان بطل زمانه ، والسيد لم يكن يبلغ الثالثة والعشرين من عمره .

اتفق الطرفان على يوم النزال ، وخشي القشتاليون على فتاهم «السيد» من بطل نبارة وافرس فرسان بنبلونة . فانتصرت شيمانة لهـــذا البطل النباري على امل ان يثأر لأبيها القند من رذريق قاتله . والاميرة اوراكه أخذت « السيد » تحت رعايتها ودفعت اليه منديلها يتعصب به عله يأتيه بالفوز المبين .

وكانت المبارزة عنيفة ، اظهر الخصمان كل ما عندهما من مقدرة في الطعن والضرب والكر والفرّ ، فتغلّب «السيد» بين فرح قومه وبهجتهم وابتئاس اخصامه .

وازدادت محبة اوراكه له ، اليس هذا دليلاً على ان العناية ترغب في توطيد هذا الحب ؟ غير أنه حب بدون رجاء ، لقد حرّم ابوها عليها وعلى اختها البيره الزواج من اي رجل ، انه تبتل مفروض . وتذمّرت وثارت في داخلها على هذا الظلم ، إنهـــا ضحية اخوتها لكي لا يأتي من ينازعهم على العرش .

خرج « السيد » ظافراً من هذه المبارزة الاولى فأطلقوا عليـــه إسم « القنبطور » ، اي الغالب في الحلبة ، فاصبح له ثلاثـــة اسماء مختلفة : « رذريق » وهو اسمه الحقيقي ، و « السيـد » لقب اطلقه عليه العرب ، و « القنبطور » لقب ناله بعد انتصاره على فارس نبـارة شيمانو غرسيس . نستعمل الاسماء الثلاثة بدون تمييز .

لم يمضِ زمن طويل على هذا الانتصار الذي أحرزه رذريق في هـذه المبارزة الفردية حتى أحرز نصراً آخر اعظم ، فانه في سنة ١٠٦٧ مسيحية اي سنتين بعد تولي شانجه الثاني الحكم على قشتالة تمنّع المقتدر ملك سرقسطة عن دفع الجزية له كما كان يدفعها لابيه الملك فرننده .

فشدّ شانجه الثاني الحصار على المدينة الحصينة سرقسطة بالآلات الحربية المتنوعة والرجال ، تحت قيادة السيد . فشعر المقتدر ان المقاومة لا تجديه نفعاً ، فالعدة تنقصه لتحمّل حصار طويل الأمد . فاستشار ذوي الرأي من اهل المدينة ، فأشاروا عليه بالمفاوضة ، فبعث الى معسكر الملك شانجه رسلاً يعرضون عليه الاتاوة لقاء فك الحصار عن المدينة ، فأجاب شانجه الرسل قائلاً :

« ان على المقتدر ان يعترف بسيادتي على المدينة وان يتكفّل بتأدية الجزية في كل سنة ، واذا امتنع فلا اترك فيها حجراً على حجر ، والمقتدر عليه بدفع الاتاوة إن لم يكن لي فلسواي من العرب او من المسيحيين لقاء الحماية » .

فرضخ المقتدر لهذه الشروط ولاسيما بعد ان تبين عجزه عن المقاومة والصبر على الحصار حتى النهاية . فدفع مـا طلبه منه وقدّم له الرهائن على ان يكون من صنائعه ، والملك القشتالي بدوره عليه أن يحميه من جميع الاعداء العرب أو الاسبان على السواء .

وقد برزت شجاعة ودراية السيد في هـذا الحصار حتى ان الانتصار نسب اليه .

فيكون بهذا قد تميّز في المبارزة الفردية من جهة وفي قيادة الجيوش من جهة ثانية .

* * * * * * *

— ٤ —

المنافسة بين قشتالة وليون

وسارت الامور في مجراها الطبيعي بين الاخوان الثلاثة ، كل في مملكته الى ان توفيت امهم الملكة في خريف ١٠٦٧ ، فكشف النزاع عن وجهه البغيض بينهم ، ولكن لم تظهر بوادره الا في السنة التالية اي ١٠٦٨ ، فان شانجه الثاني ملك قشتالة يرغب في بسط نفوذه على بقية الممالك الاسبانية وخاصة مملكة ليون كما فعل جده شانجه الاكبر وابوه ذاته الامبراطور فرننده الاول .

والمالك في ليون الفونسه السادس ، لا يرضى بالتخلي عن ملكه . فلم يعد امام الملكين الشقيقين سوى اللجوء الى السلاح لتسوية الخلاف بينهما.

وتم الاتفاق على تاريخ المعركة : ١٩ تموز ١٠٦٨ على حدود الدولتين في سهول لينتاده LLANTADA والرابح يملك مكان اخيه دون حاجة الى حروب جديدة .

وانتصرت جيوش شانجه الثاني والسيد على ادفونش . وكان الاتفاق ينص على تخلي الخاسر عن مملكته لأخيه ، غير ان ادفونش لم ينفذ شروط الاتفاق ففرّ الى عاصمة مملكته ليون .

ولم يكتف باخلاف الوعد مع اخيه شانجه الثاني بل اعلن الحرب على اخيه غرسيه ملك غليشية وما يلحقها من الممالك العربية مثل مملكة

بطليوس التي تدفع الجزية لغرسيه ، فانتصرت جيوش الادفونش واعتقل الملك غرسيه والقي في السجن ، وابتدأت المفاوضات بين شانجه وادفونش على اقتسام مملكة اخيهما الاصغر المسجون .

غير ان هذا التفاهم الجشع بين الشقيقين لم يعمّر طويلاً ، فاضرمت العداوة من جديد بينهما وقررا الركون الى السلاح فضاً للنزاع .

القتال هذه المرة سيكون في سهول غلبخيرا GOLPEJERA في كانون الثاني يناير من سنة ١٠٧٢ وهذه السهول تمتدّ ثلاثة اميال من المدينة سانت ماريه عاصمة المنطقة التي تسيطر عليها عائلة بني غومز التي يرجع اصلها إلى فران غنصالس قمز قشتالة . وهي من العائلات الشريفة ، لها مع السيد وبناته حادثة سنذكرها في حينها .

كان يتزعم هذه العائلة بطره انسورس PEDRO ANSURES من أخصاء الملك الفونسه السادس والمقربين ، فنسبته اليه كنسبة السيد الى شانجه الثاني ملك قشتالة ، فمن الطبيعي ان تشترك هذه العائلة في القتال الى جانب ادفونش هذا ملك ليون ، وضد الملك شانجه والسيد .

وقوات ليون اكثر عدداً ، غير ان شانجه على ثقة من الانتصار ، فخاطب قائده السيد قائلاً :

– بحقك يا رذريق ، الا اقوى على منازلة الف رجل وانت مائة فارس ؟
– لا اضمن الغلبة على اكثر من فارس واحد !
– الا تقاتل خمسين فارساً ؟
– لا اتمكن الا من مقاتلة فارس واحد !
– الا تقاتل اربعين ؟
– لا اقيس ذاتي الا بفارس !
– تنازل على الاقل عشرة فرسان ؟
– لا اقوى على منازلة اكثر من فارس واحد والله يساعد !.

وعند طلوع الصباح امتزجت القوات بالقوات وكثر الموت من الطرفين ووقع الفونسه اسيراً بيد القشطاليين وشانجه بيد اهل ليون ، وابصر السيد اربعة عشر رجـــلاً يقودون الملك شانجه اسيراً ، فصرخ في وجوههم : « الى اين تأخذون ملكنا ؟ فملككم أيضاً في ايدينا ، فلنطلق سراح الملكين ».

ولم يكونوا على علم بأسر ملكهم فلم يكترثوا لكلام السيد وقالوا له : « لماذا ايهـا الاحمق تتبع ملكك الاسير ؟ هل تفكر بانقاذه من ايدينا وانت وحيد واعزل ؟ ».

ففضب رذريق وطلب منهم رمحاً لأن سلاحه كان قد تحطم في المعمعة . فدفعوا له نصل الرمح احتقاراً وتابعوا سيرهم . فأخذ النصل وهمز حصانه الى أن ادركهم فأردى فارساً عن صهوة جواده ثم آخر في جولة ثانيـة وجرح آخرين وانقذ ملكه من ايديهم وسلمه سلاح أحدهم والاثنان معاً هجما على الباقين وتغلبوا عليهم وهزموهم .

والمصادر الليونية لها رواية أُخرى عن هذه المعركة فتقول : كان جيش ليون اكثر عدداً وحميت المعركة ونزلت خسائر جسيمة بالجانبين . واخيراً لجأ الملك شانجه وجيشه القشتالي الى الفرار متخلين عن معسكرهم. ولم يطارد الملك الفونسه فلول جيش اخيه المولي .

شرع رذريق يبثّ روح الشجاعة في قلب شانجه قائلاً : « كيف ترضى ان يبيت أهالي غليشية واخوك الادفونش في مضاربنا ناعمي البـــال ؟ فلنفاجئهم في الصباح والغلبة تكون لنا » .

جمع شانجه قواته المبعثرة ، وعنـد طلوع الفجر انقض عـــلى جيش الادفونش الاعزل واعمل فيه مذبحة لم ينج منهـا الا كل طويل العمر . وسقط الملك نفسه اسيراً .

جاء هذا الانتصار على يد رذريق . فاقتاد شانجه أخـاه الادفونش اسيراً مسيّراً في عدة مدن وحصون على فوزه المبين . ووضع على رأسه تاج ليون في ١٢ كانون الثاني يناير من سنة ١٠٧٢ مسيحية .

وهذه هي المرة الثالثة التي يسيطر فيها ملك قشتالي على عاصمة مملكة ليون . في المرة الاولى استولى عليها شانجه الاكبر جد الملك الحالي ، وفي المرة الثانية الامبراطور فرننده الاول واليوم يستولي عليها ابنـــه الملك شانجه الثاني الملقب « بالقوي » . زالت سيطرة ليون لتحل محلها قشتالة .

القي الادفونش في سجن برغش حيث القى اخاه غرسيه منذ سنة . ولكن الاميرة اوراكه التي كانت تحب اخاها الادفونش هذا محبة فائقة الوصف ، لما علمت بوقوعه اسيراً في يد أخيه البكر شانجه ، غادرت سمورة وتوجهت الى برغش لمقابلة اخيها الملك شانجه ساعية في حمله عـلى اطلاق سراح أخيها .

وصلت الى برغش وطلبت مقابلة اخيها الملك شانجه الثاني . فلما علم ان شقيقته قادمة اليه صرف جميع الحاضرين ليكون معها على خلوة ، وامر بادخالها وأجلسها الى جانبه ورحب بها وفي صدره من الموجدة عليها ما حاول كتمه : انه ما يزال يذكر قصة الخنجر والعرّافة .

ـ اهلاً وسهلاً بالشقيقة الحبيبة كيف أحوالكم في سموره ؟

ـ على خير أيها الاخ ، لك مني خالص التهاني ، فقد اصبحت سيـد ليون وقشتالة وغليشية بدون منازع وهـــذا منتهى صبوتك . تحققت رغباتك كلها .

ـ ما زالت هناك مهمات خطيرة ، عليّ انجازها : العرب يحتلون اكثر من نصف اسبانيا وقد ارسلني الله لانتزاعها منهم .

ـ ولكن اكثر ملوكهم فيها يدفعون لك الاتاوة وهم اطوع لك من بنانك . اتركهم كولاة لك فلن تجد اطوع منهم . ألا ترى انهم اكثر ولاءً واخلاصاً من صاحب برشلونه مثلاً او ملك نباره واراغون الذين يتربصون بملك قشتالة ولا يترددون في ارداثه اذا وجدوا الطريق لهم ممهداً ؟

ـ قد تكونين على صواب ، انما العرب دخلاء ، والدخيل عليه بالرحيل .

ـ دخلاء بعد اقامتهم ثلاثمائة وخمسين سنة في هذه البلاد ؟

— من يسمعك تدافعين عنهم بهذا الحماس يحسبك منهم . هل من مغنم يأتيك عن طريقهم ؟

— ليس من مغنم . انك اذا اخرجتهم طلبوا النجدة من اخوانهم بير العدوة . اتريد فتحاً عربياً جديداً ، قد يكون اجرأ واحمق من الفتح الماضي الذي تعرّض له اجدادنا القوط ؟

— لم يدر في خلدي ولم ادخل في حسابي هـــذه الناحية التي تنبهين فكري اليها . أحاول الاستيلاء على الثغور التي يحاول الافريقيون الدخول منها الى اسبانيا .

— قول سهل وتنفيذ عسير . الـــك القوات الكافية لاحتلال جميع الثغور الاندلسية والمحافظة عليها ؟ قل لي الآن أين شقيقنا الادفونش ؟

— في السجن ، ولا نجاة له منه . لا نريد حروباً بعد ، كفانا اراقة دماء . فلو انه رضي بالتخلي عن الملك بعـد معركة LLANTADA التي انتصرت فيها لما كانت حدثت جميع تلك المذابح بعدها . ما دام في السجن فأنا في امان من مكائده .

— انه اخونا وعلينا بالاحسان إلى ذوي القربى . اطلق سراحه وانا الكفيلة بأنه لا يعود الى مثلها .

— ومن انت حتى تكفلين لي امراً ليس بمقدورك المحافظة عليـــه ؟ العلك على ثقة تامة من ركون الادفونش اليك ؟

— انا اضمن لك اخلاده إلى الدعة فاطلق سراحه وانفـه الى الممالك العربية الى طليطلة مثلا وهناك تأمن شرّه ومكائده .

— وما يدفعكِ الى المدافعة عنـه ؟ حبكِ الاخوي ؟ لا ، فأنتِ لم تحركي اصبعك لما اعتقل اخانا غرسيه . شك يخالجني : إنكِ تضمرين له في قلبك محبة خاصة لا علاقة فيها للأخوة .

وجمدت اوراكه وتنبهت حواسها . ان ما يرميها به اخوها الاكبر لمريع . اتحب اخاها الادفونش حباً يختلف عن حب الشقيق ؟ هل جمعت

بين حب الشقيق وحب العشيق لدرجة انها صارا لا يتميزان ؟ وتخيلت رذريق ومحبتها له رغم صدوده فطردت الخاطر الاول وغاب عنها وجلها .

– انها تصورات لا تتمثل في الواقع .

ولم يقتنع شانجه ان محبتها لادفونش محبة الشقيقة لشقيقها . وخطر له ان يمتحنها فيوقفها وجهاً لوجه امامه ، فأمر باحضاره من سجنه . يريد ان يرى مشهد الشقيقة العشيقة .

ودخل الادفونش القاعة فهفت اليه اوراكه تضمه الى صدرها متناسية كل مـا حولها ، فراحت توسعه لثماً وتقبيلاً عـلى وجهه وجبهته ورأسه وفمه ، وشانجه شاخص اليها وهي عنه غافلة الادفونش في نظرها يوازي الدنيا وهو الذي تعوّد هـــذا الفيض من الحنان لم يعره اهتمامه فتقبل انطلاقات عواطف أخته كأمر مألوف ورضخ له .

ونفرت دموعها من عينيها ، انها عبرات تفلت من مكامنها كلما هزتها تأثيرات فرح او حزن على السواء .

فتقدمت من اخيها شانجه وجثت امامه طالبة الرفق بأخيهما .

فانهضها واجلسها الى جانبه وطيّب خاطرها ، سيكون لها ما تشتهي بشروط فاذا قبلها الادفونش فلا يرى مانعاً يحول دون إطلاق سراحه .

فأجابت اوراكه : وما هي هذه الشروط ؟

– أولاً : التخلي عن الملك .

– ثانياً : الحياة بعيداً عن قشتالة وليون .

– ثالثاً : حلف اليمين بأنه لا يقوم بأي نشاط يهدف الى استرجاع ملكه .

– رابعاً : الاعلان امام الملأ ان شانجه هو الملك الشرعي الوحيد .

وعزّ على الادفونش القبول بهذه الشروط القاضية بإبعاده عن البـلاد وتنازله عن الملك وبالاقلاع عن كل محاولة لاسترجاع ملكه . وشاء الرفض

والبقاء في السجن ، فتوسلت اليه اوراكه بالقبول لأن سلامته في الدرجة الاولى ، وامعنت في اللجاج حتى رضي الادفونش مكرهاً اكراماً لخاطرها. حتى الملك جاء اليه من ابيهم الامبراطور فرننده الاول ، فلماذا يريد شانجه التفرّد به ، ومخالفته لارادة ابيهم ظاهرة . ولكن لماذا يلوم شانجه ما دام هو حاول ايضاً مخالفة الوصية وخالفها باستيلائه على مملكة غرسيه منذ سنة وإلقائه في السجن .

فاقسم يمين الولاء لشانجه وتعهد كتابة بأنه قد تنازل عن العرش وانه لن يحاول استرجاعه . واختار طليطلة مكان إقامته وفيها المأمون بن ذي النون ، فودع شانجه واخته الاميرة اوراكه واستصحب معه مستشاره بطره انشورش وشقيقيه غنصاله وفرننده انشورش .

* * * * * * *

- ٥ -

بنو ذي النون في طليطلة

بنو دنون ملوك برابرة من قبيل البربر الذين كانوا يخدمون في الدولة العامرية وان اسم جدهم الذي ينسبون اليه هو زنون . اشتهر امرهم في دولة المنصور محمد بن ابي عامر ففيها تقدموا وقادوا الجيوش واستقرّوا بكورة شنتبرية . ولما ضبط امر طليطلة عبد الملك بن متيوه واساء السيرة في اهلها ، خلعوه واتفقوا على ان يرسلوا الى ابن دنون ، فوجّه اليهم من شنتبرية ابنه اسماعيل بن عبد الرحمن بن دنون فاستولى عليها وملك فيها من سنة ١٠٣٦ الى ١٠٤٣ م ، واستقل عن الجماعة في قرطبة واقتطع جانبه فكان اول الثوار المنفصلين عن جسم الدولة الاموية في قرطبة .

قلد اموره شيخ البلدة ابي بكر ابن الحديدي فكان اسماعيل لا يقطع

أمراً دونه الى ان حسده قوم من اهل طليطلة على منزلته لديه . ثم توفي اسماعيل سنة ١٠٤٣ وولي بعده ابنه يحيى المأمون من سنة ١٠٤٣ الى ١٠٧٥ فأجرى اموره مع ابن الحديدي على سنّة ابيه . وقامت المنازعة بينه وبين جاره سليمان بن هود ملك سرقسطة وتغلّب عليه ابن هود فاستعان بالامبراطور فرننده وبذل له مالاً فأعانه على ابن هود .

من اعماله العمرانية بناء مجلسه الكبير المكرم . وكان الذي تولى له رصف بدائعه رجل من مهرة الفعلة اكثر خلق الله صلفاً . وكان المأمون لعدم نظيره يحتمل منه اعتداده وتهاونه في جميع اموره . واتفق له مع ذلك الصانع ان وعده باتمام مجلسه المشيد قبل اطلال العيد . وتقدم الى من كان بحضرته من الشعراء على قلتهم ببابه لقلة فائله ، في وصف مجلسه ذلك وتقريظ بنيانه .

واتفق اثناء ذلك ان ضربت خيل فرننده على بلاد المظفر بن الافطس فوطأتها ومحت رسومها واستباحت حريمها . وكان يومئذ بمنزلة بين الوجوم والاطراق فظن القوم أن ذلك الضجر لما ورد به الخبر من ضرب الخيل على بلد المظفر واخفار الذمم . فطفق ابن مثنى يبسطه تارة ويسليه ويقول له : « فيك الخلف لما فات » . فما فهم مقصد ابن مثنى منه اعرض عنه وقال له : « الا ترى هذا الصانع الفاعلي الضائع صبرت له واغضيت فما زاد الا تنغيصاً للذتي وتصغيراً لشأني » . فأسقط في يد ابن مثنى ولم يجد بداً من ان قال : « هوّن عليك والكل طوع يدك وانا أكفيك » .

وخرج ومثل بين يدي ذلك الصانع يعده ويمينه والصانع مقبل على شأنه ولم يأمره بالجلوس ، ثم قال : « والله ان يتم الى عيد آخر فليجهد جهده وليأت بكل ما عنده » .

فرجع ابن مثنى إلى ابن ذي النون وهوّن عليه الشأن وخفف لديه ما كان وخرج لا يدري من أي الثلاثة يعجب : امن اغترار ذي النون وجهله؟ ام افضاء الضرورة بنفسه إلى خدمة مثله ؟ ام من جرأة ذلك الصانع على ذي النون وذله ؟

اعذار يحيى حفيد المأمون

احتفل المأمون ابن ذي النون في مدعـاة أعذار حفيده يحيى فحشد امراء البلاد وجملة الوزراء والقواد .

وشرّف بالاشتراك مع تطهير حفيده يحيى صبياناً من بني اصحابه وبدأ بحفيده قبلهم فكان اسكنهم جأشاً وانه مشى – زعموا – الى الحديد ، مشي البطل النجيد ومكّن الخاتن من عضوه فاعانه على احكام صنعـه وسوى ختانه وخفف آلامه ، فسر ابن ذي النون واذكى نيرانه وانضج اطعمته ونصب موائده ودعا الناس اليها ولم يسمح لأحد بالتخلف عنها . فاكتملت الاطعمة وفتحت الابواب ورفعت الستور وزينت القصور واقيمت المراتب ووكل بكل قسم منها كبير من وجوه الخدمة ضم اليه فريق من الاعوان يتصرّفون بأمره .

ولما بكرت أفواج علية الناس الى باب القصر انزلوا عن دوابهم عند باب المنصب الاول فاذن لهم بالدخول على مراتبهم فمشوا وقد حفهم سرات الصقلب الخصيان وخواص الحشم فاجلسوا في الدار الاولى . فلما اكتملوا ادخلوا الى المجلس الكبير فلما استقرّ فيه جمعهم خرجت تسمية من الامير المأمون بادخال القضاة والفقهـاء والعدول ومن يليهم من كبار الناس . فقاموا يقدمهم قاضي القضاة ابو زيـد بن عيسى القرطبي فجيء بهم الى الدار الكبرى الثانية ذات الساحة الواسعة الزاهرة . ثم وصلوا الى مجلس قد فرش بالديباج التستري المرقوم بالذهب وسدلت فوق حناياه ستور من جنسه تكاد تلتمع الابصار لنصاعة الوانها واشراق عقيانها ، وقـد جلس لهم الامير في جانب منه وحفيده في جانب آخر . فاكبّ الناس عليه يهنؤونه ويلثمون اطرافه وهو يشملهم باقبال طرفه فينثنون منه إلى حفيده يدعون له .

ثم عدل بهم الى مكان الاطعمة في المجلس الاول على ذات اليسار من

تلك الدار الواسع القطر الرحب الابواب وقد فرش بالوطأ التستري وعلقت على ابوابه وحناياه ستور وقد مدت فيه صنوف الطعام .

ولما فرغت تلك الطائفة جيء بهم إلى المجلس المرسوم لوضوئهم ، وقد فرش ايضاً بوطأ الوشي المرقوم بالذهب وعلقت فيه ستور مثقلة بماثلة ، فأخذوا مجالسهم منه ، وناولهم الوصفاء الطائفون بهم رفيع النقاوات والذرائر المطيبات في الاقداح الفضيات المحكمة الصناعات . ثم ادني اليهم اثر ذلك الوضوء في اباريق الفضة المحكمة الصنعة يصبون على ايديهم في طسوس الفضة المماثلة لاباريقها في الحسن . فاستوعبوا الوضوء وادنيت من ايديهم مناديل تتضاءل لها ما عليهم من سنى الكسوة .

ثم نقلوا الى مجلس التطييب ، افخم تلك المجالس وهو المجلس المطل على النهر ، العالي البناء . فشرع في تطييبهم في مجامر الفضة البديعة لفلق العود الهندي المشوية بقطع العنبر الفستقي ، بعد ان نديت ثيابهم بشآبيب ماء الورد الجوري يصب فوق رؤوسهم من أواني الزجاج المجدور . ثم ادني اليهم قوارير المها المحكمة الصنعة قد اترعت بالغوالي الذكية المتخذة من خالص المسك ومحض العنبر المغربي .

فلما استتم هؤلاء نعيم يومهم من طعمهم وطيبهم اقيموا للدخول على المأمون فسلموا عليه ودعوا له فأقبل عليهم احسن قبول ورد اجمل رد وأمر بادخالهم الى مجلسه المسمى « المكرم » السائر خبره الطائر ذكره .

وهذا المجلس متخذ من رفيع المرمر الابيض المسنون الزارية صفحاته بالعاج في صدق الملاسة ونصاعة التلوين . قد خرّمت في جثانه صور البهائم واطيار واشجار ذات ثمار ، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما يليها من افنان اشجار وأشكال الثمر ما بين جان وعابث ترنو الى من تأملها بألحاظ عطاف كأنها مقبلة عليه او مشيرة اليه وكل صورة منها منفردة عن صاحبتها .

ولهذه الدار بحيرتان قد نصت على أركانها صور اسود مصنوعة من الذهب الابريز احكم صياغة فتخيّل لمتأملها كالحة الوجوه فاغرة الشدوق ينساب من افواهها نحو البحيرتين الماء هوناً كرشيش القطر أو سحالة اللجين وقد وضع في قعر كل بحيرة منها حوض محفور من رفيع المرمر ، كبير الجرم غريب الشكل بديع النقش ، قد ابرزت في جنابته صور حيوان واطيار وأشجار منها شجرتا فضة عاليتا الاصلين غريبتا الشكل محكمتا الصنعة قد غرزت كل شجرة منها وسط كل مذبح بادق صنعة يترقى فيها الماء من المذبحين فينصب من اعالي افنانها انصباب رذاذ المطر .

فألقى الاديب عبد العزيز بن محمد السوسي احد اضياف ابن ذي النون قصيدة بهذه المناسبة نذكر بعض ابياتها :

لما بنيت من المكارم والعلا ... ما جاوز الجوزاء في الاجلال
اعملت رأيك في « مكرم » ... ما دار قط لآمل في بال
لو زاره كسرى انو شروان لم ... يصرف الى الايوان لحظ موالي
يا ساقي الصهباء اين كبارها ... قد لذ ورد القهوة السلسال
أعذار يحيى ابهج الدنيا وبين ... عذرتا في نخوة المختال
حشد السرور لنا طهور مطهر ... من عائر الجبناء والبخال
عرض من الآلام يجلب صحة ... وطفيف نقص فيه كل كمال

وتوالى اطعام افواج الناس في ذلك الاعذار مجلساً بعد آخر اياماً متوالية حتى استدعي له من بقايا اصناف الناس وادونهم وازعجوا الى النعيم الذي لا عهد لهم به فالتهموا وازدردوا ونهلوا ووضئوا وطيّبوا .

وذهب المأمون الى تتميم تكريم زواره من رجال الامراء الذين استحضرهم يومئذ لشهود فرحته بمشاهدة مجلس خلوته وتنعيم اسماعهم بلذات اغانيه ، وقد علم ان فيهم من يرخص في النبيذ فاحتمل حرج ذلك مبالغة في تأنيسهم ، فانثنوا الى الشراب ونفوسهم به صبة وقد مدّت ستارة الغناء لأهل الحجاب ونظمت نوبة المغنين فانشدت مقطوعة نظمها عبدالله بن خليفة الملقب بالمضري وهي :

باكر لبكر الدنان ان م هـــداء العروس في السحر
واشرب عقاراً تخـــال حمرتها تحرق ايـدي السقاة بالشرر
فان يحيى احيى بدولتـــه مـــا قد محاه تصرّف القدر
منـك هو الدهر في عزيمتـه يطلع فينـــا بطلعـة القمر

فطمح بابن ذي النون الطرب وخلع لوقته على المغني ثوباً من التستري الاخضر مطرزاً بالذهب ووصله بمائتي دينار ذهباً . ثم فض الصلات والخلع في سائر الطبقات .

هذا هو المأمون الذي أضاف الملك ادفونش المغلوب على أمره :

— على الرحب والسعة أيها الامير ادفونش، نحن الضيوف وانت رب المنزل.

— سلمت الدار لصاحبها وحفظتك السماء ايها المأمون .

— انزع الخوف من جنانك أيها الملك .

— لم يعرف الخوف قط جناني ولكن الحظ خالفني ، قهرني اخي لما كاد النصر يحالفني . اني شقي واخي شانجه مصدر هـذا الشقاء . الرياح تساير سفينته .

— لا تخش ضيماً ، ان الممالك لا تشيد قـط على العنف . اني ارى نهاية اخيك قريبة ، فالظالم يبلى بأظلم .

ودخـل عليهما حاجب يعلن وصول الاميرة زيدة من اشبيلية فأمره بادخالها في الحال ، جاءت للسلام على المأمون قريبها .

فدخلت ترفل بالعظمة وتخطر بالجمال . فدهش الادفونش لهذه الروعة الصارخة فيها . لم يشاهد امرأة مثلها في ليون . ونسي همومه ومتاعبه في منفاه ، حضور هذه الاميرة العربية غلّف وجوده بغبطة بعيدة القرار فلم يتمالك ان قال : « كذب فيك المثل القائل كل شيء سماعه افضل من عيانه . لست مدينة لشيء بشهرتك » .

وخرج المأمون وبقيت زيدة فقالت : « طارت شهرتك ايهـــا الملك ادفونش ، فرغبت في مشاهدتك لما علمت ان صروف الايام قـد خالفت ظنك فهرعت اليك ليس للمشاهدة فقط بل لاقدم لك مالي وممتلكاتي ، ولو كانت اسبانيا جمعاء في يدي لمنحتك إياها عن طيبة خاطر . هـذه حلاي فارهنها أو بع منها ما شئت فهي لك .

فتأثر الادفونش لهذه الكلمات الصادرة عن اميرة عربية قطعت المراحل البعيدة آتية اليه لتراه وتقدم له جميع ما ملكت يداها .

– ما اسعدني بلقياك يا مولاتي العزيزة . قهرني جمالك وكرمك وبت لا اصدق ما اسمع من فيك . آسف لكوني لا اتمكن من ان اهبك مثلما وهبتني ، فانا على قدميكِ أعبدك كالهة كملكة وكسلطانة .

فاقتربت منه وانهضته وبسمت له لتخفف عنه .

– دعيني يا سيدتي اقبل يدك الكريمة .

– لا سبيل الى ذلك ان طلبك لا يتم الا بين الزوج والزوجة .

– عذرك على جسارتي ووقاحتي . طلبت اكثر ما يمكن ان تصل اليه يدي.

وجاء رسول من قبل المأمون يقول لأدفونش ان الملك ينتظره لتناول الطعام فقالت زيدة : ستجلس بجانبي على المائدة .

– ما اشهاه من طعام وما احلاه من شراب ان فيه اريج السعادة .

– اجلك يا ادفونش .

– وانا اعبدك يا زيدة .

فتنهدت وقالت في نفسها ، لماذا لم يولد في الدّين الاسلامي ؟ وتنهّد الادفونش ايضاً فالفكرة نفسها جالت في اعماقه : فلماذا لم تولد مسيحية ؟

وانتهى الغذاء وتفرّق الحاضرون للاستراحة الا الادفونش فان جمال تلك الاميرة سلب لبه حتى انساه منفاه وملكه المنزوع منـــه بابتسامة

وبنظرة وبلقاء من هذه الاميرة الساحبة ذيل الصباحة الجاهرة في قسماتها ، فخرج الى حديقـة القصر ليخلو الى نفسه ويناجي فاتنة قلبـه والطبيعة تدعو الى الخلوة فالارض قد نشرت ملاءها ولبست جلبابها ، وبرز الورد من كمامه واهتز الروض لتغريد اطياره والاشجار قـد نشرت شعورها ، والدنيا قد ابدت بشرها واماطت عبوسها ، وكان بها قد اطلعت من كل ثمر ضروباً .

وسمع حفيف اوراق وهمساً خفيفاً فالتفت ولمح خيال امرأة فاضطرب لهـا قلبه من تكون ؟ وسمع صوتاً يناديه : ادفونش ادن من هنا لا تخف انا زيدة .

فاقترب من ناحية الصوت ولم تصدق عيناه انه امام من يهب نصف حياته لأجل حديث معها على خلوة .

ـ اقبّل الارض التي تلمسها رجلاكِ يا زيدة . افي يقظة انا ام في منام؟ لا اعبأ بالموت بعد هذا اللقاء ، فزت بجميع اماني في هذه الحياة . حولت شقائي الى هناء بعيد الغور كمل سروري برؤيتك ، والكلام لا يقوى على أداء كل ما يختلج في اعماقي من غبطة .

ـ ليس سروري اقل من سرورك وما كنت اعتقد قط ان الحب له مثل هذه القوة الجارفة التي تنهار امامها جميع الاعتبارات . اجـل يا ادفونش احبك رغم الفروق الفاصلة بيننا ، واني مضحية لأجل هذا الحب بجميع الاعتبارات الاجتماعية والدينية لأكون بكليتي لك . عشقتك اذني قبل أن تعشقك عيناي ، كما قال شاعرنا العربي : « والاذن تعشق قبـل العين احياناً » . تناقلت احاديثك الركبان فتجشمت الصعاب غير عابئة للوصول اليك ملكة سبأ ، جاءت من أقاصي البلاد لتسمع حكمة سليمان .

ارى اخيلة تقترب منا . هو المأمون وحاشيته . ستساوره الريبة ان بيني وبينك محبـة ونجتمع على خلوة في حدائق القصر وإني مخطوبة لابن

المعتمد بن عباد ملك اشبيلية وزواجي منه قريب . فلا بـد من وسيلة للنجاة والا اوقعوا بك . انظر هذه الريحانة فاصطنع النوم في ظلها كأنك في قيلولة لتتقي حرّ الشمس عند هـذه الظهيرة . فالى اللقـــاء القريب يا حبيبي المسيحي .

وبعثت له قبلة بطرف اصابعها فخال الادفونش نفسه أنه يمتلك الدنيا من أطرافها ، فتظاهر بالرقاد .

واقترب المأمون تحف بـه حاشيته . انهم في مأمن من غوائل الايام فهم عنها لاهون ساخرون ، مدينتهم امنع من عقاب الجو ولن تستطيع قوة مهما عظمت من الاستيلاء عليها عنوة فأسوارها منيعة وحصونها ثابتة يرتد عنها الطرف وهو كليل .

فقال احد المستشارين : « وما نفع هذه الحصون والاسوار اذا شدّد علينا العدو بالحصار واطال امده فهل ترد عنا هذه الحصون المنيعة غائلة الجوع اذا ما ضرب علينا العدو الحصار المحكم اشهراً طويلة ؟

فتنبه المأمون الى هذه الفكرة وقد كان عنها غافلاً . ظن أن العدو يعود الى اعقابه عندما لا يجد سبيلاً الى نيل طليطلة عنوة ولم يدر قط في خلده أن العدو قد تخالجه نفسه في ضرب الحصار على المدينة زمناً طويلاً حتى تستسلم .

وسمع الادفونش الحديث فأيقظ فيه آمالاً جديدة قد تتحول الى حقيقة فيما بعد اذا قدّر له ان يسترد مملكته الضائعة .

فقالت الاميرة زيدة : كأني بكم غافلون . أمـا ترون الادفونش على قيد انملة منكم ولم تشعروا بحضوره ؟

وجفلوا من هذه المفاجأة . هل سمع الحديث الذي دار فيما بينهم ، ووقف على عوراتهم . ودنا منه المأمون وهزه فلم يتحرّك ، انه مستسلم

الى سبات عميق . وخافت عليه زيده ان يتحرك ويكلموم فيكون مصيره إلى الوبال .

واستشار المأمون احد وزرائه بشأن هذا الضيف الذي قد يأتي منه الهلاك . فأشار عليه الوزير بقتله دون إبطاء ، فقد يكون سمع الحديث او بعضه ، فالأفضل ان يهلك واحد ويسلم الف خير من سلامة واحد وهلاك الف .

ولم يشأ الاصغاء الى اقوال وزيره : ان حذرك الشديد في غير محله . دعوه وشأنه انـه نائم ولم يسمع حديثاً والا لو سمع نبأ موته لاضطرب واستيقظ . لا اريد له الاذى فاني اكنّ له في صدري احتراماً ومحبة عظيمين ، ثم هو ضيفي .

فقال احد الوزراء : اذا نام الانسان نوماً عميقاً يتبلل التراب عند فمه.

فسمع ادفونش كلمة الوزير فبلل التراب بريقه .

فاقتربوا منه على مهل وفحصوا التراب فاذا به مبلل ، فقال المأمون اذن لا خوف علينا . فقال الوزير : انظر يا سيدي الملك ، ان الخوف يقف له شعر الرأس . انظر الى شعر رأسه كيف انتصب . قرأت في الغيب فوجدت ان الادفونش هذا سيملك على طليطلة . فلا ادري كيف تتهامل يا مولاي في حز رأسه .

فقال الملك : مسّد له شعره حتى يلتوي .

فمسّده له وإذا به ينتصب من جديد . فلم يبقَ من ريب انه يسمع كلامهم وعزموا على قتله .

فقالت زيدة : « اقتلني قبل ان تقتله فلا اريد ان اسمع بأن المأمون حنث بيمينه وقتل جاره وضيفه على الشبة . ليس هذا من شيم الملوك ».

فتأثر المأمون لكلامها وعدل عن تنفيذ فكرته ، وابتعد مع وزرائه

عن المكان ، فاقتربت زيدة من الادفونش وقالت له : « انهض يا سيدي وحبيبي ، زال عنك خطر الموت » .

– حبيبتي زيدة ، دعيني اقبل نعليك فقد انقذتني من موت مؤكد .

– لم آت فضلاً اشكر عليه لأني اذا قدمت صدري للموت عنك فلأن هذا الصدر وما يحويه ملك لك .

– انت حرزي الامين .

ونترك الادفونش سادراً في غرامه الجديد بمنفاه في طليطلة ولننتقل إلى قشتالة وليون .

الثورة في ليون

اطلق شانجه الثاني على نفسه لقب « ملك ليون » بعد ان ابعد اخاه الملك ادفونش الى طليطلة في كانون الثاني سنة ١٠٧٢ م . غير ان بعض اشراف هذه البلاد الليونية رفضوا الاقرار به ملكاً عليهم ، ليس لهم ملك الا الادفونش . يعزّ عليهم ان يروا امجادهم تتناثر كالهباء وسلطانهم يندثر ليشيد على أنقاضه مجد قشتالة .

اتصلوا بالأميرة اوراكه في سموره متخذين هذه المدينة قاعدة للعمليات العسكرية . وكانت سموره مدينة حصينة ، تقع على رابية ولها اسوار ويحيط بها نهر الدويره . وقد رأينا في كتابنا « الناصر لدين الله » كيف ان الخليفة عبد الرحمن الثالث ٩١٢ – ٩٦١ م . خسر زهرة جيشه امام هذه المدينة في معركة الخندق ، رغم عظمته وجبروته . فهل يكون شانجه الثاني ملك قشتالة ، بعد مرور مائة واربعين سنة على تلك المعركة ، اسعد حظاً ، في احتلال المدينة من خليفة قرطبة ؟

واقسم شانجه انه لا يسمي نفسه ملك اسبانيا اذا لم يسيطر على سموره ويقمع ثورة هؤلاء الاشراف ويشذب قادتهم ويقودهم صاغرين . فوضع

الحصار حول المدينة بقيادة السيد الذي تميز في هذا الحصار وصار يشدّ الخناق على أشراف ليون الموجودين داخل المدينة .

وطال امد هذه الحرب أكثر مما كان يتصوّر الملك شانجه الثاني فعمد الى المفاوضة قبل ان يضرب الضربة النهائية ، فبعث قائده السيد إلى سموره لمقابلة اوراكه لكي يحملها على التسليم .

وفتح له الحرس الابواب ، لما علموا انه قادم الى اميرتهم اوراكه ، فاستقبلته بكل ترحاب بعد طول الغيبة كأنها تتشوّق منذ زمن الى هذه الخلوة.

- اي ريح حملتك الينا يا رذريق بعد طول الهجر ؟

- جئت للسلام عليك يا اوراكه وانت تعلمين صدق مودتي نحو شخصك المحبوب .

- جئت لغير السلام يا رذريق ، فلم نعد نخطر لك ببال . انساك سوانا ان فى سموره قلباً شديد الحنين اليك يتلهّف الى لقياك .

- انت مني لفي مستقر الضمير يا اوراكه . رضعت محبتك مع الحليب فكيف يعقل ان تغربي عن خيالي ولو دقيقة واحدة فان ما بيني وبينك لتعجز العواطف البشرية الأخرى عن اخماده أو بالاحرى عن التأثير عليه .

- وشيانه اين محلها منك ؟؟

واضطرب رذريق عند سماعه اسم شيانه . اصاب منه الصميم ، فتنهد عن قلب مفجوع ، احداث حالت بينه وبينها فحجبتها عنه وربما الى الابد .

- ما لك صامتاً يا رذريق ؟ اصبت المرمى ، انك ما تزال على حبها ألست على صواب في ظني ؟

- لماذا تنكئين الجرح يا اوراكه ولمّا يندمل ؟ اتطيب نفسك في التعذيب؟

- أرأيت ؟ انك ما تزال على حبها ، وحسبت في لحظة انك نزعتها

من قلبك بعد قتلك اباها ، ولكن خاب ظني فحبك لها اقوى من ان تمحوه الدماء المسفوكة ، حق ولو لطخ ابوها جبين ابيك بصفعة ستبقى لاصقة به الى الابد . آه ما اسخف ظني وما اوهى خيوط آمالي!

ما لنا ولهذه الشجون والعتاب . قل لي ما غرضك من دخول سموره ؟ اكشف لي عن دخيلتك فقد اجد الدواء لدائك ، لا تخش مني شراً .

— جئت من عند شانجه ...

— شانجه اخي وكيف حاله ؟

— بخير ويهديك سلامه ويقبل وجنتك .

— وما وراء السلام وتقبيل الوجنة ؟

فتردّد السيد في الايضاح لاسيما وان ما جاء لأجله سيقيم اوراكه ويقعدها .

— قل ، ان سكوتك يخيفني .

— اوراكه ، قبلت هذه المهمة عن كره ، وطلبت اقالتي منها فلم يرض اخوك شانجه . يحزّ في نفسي ان اكون انا رذريق حامل الرسالة اليك . ان شانجه عازم على اخذ سموره عنوة اذا لم تسلميها اليه بمطلق رضاك .

— ألهذا جئت يا رذريق لتهدر في سمعي النبأ الاسحم ليقلقل مضجعي كأني على شوك ؟

— اعتذرت يا اوراكه عن تأدية الرسالة ولم يقبل عذري وما أنا الا رسول وليس على الرسول لوم .

— الم يكتف شانجه بما فعل من نفي الادفونش الى بلاط المأمون في طليطلة واستيلائه على مملكته ومملكة اخينا غرسيه الملقى في السجن ؟ الا يرى انه بعمله هذا يعكر صفو رقدة ابينا الأبدية ؟ شاء فقسم مملكته بيننا نحن ابناءه وبناته .

— يقول شانجه ان اباكم بهذا التقسيم خالف سنن أجدادنا ملوك القوط ، والمملكة ترجع اليه بكاملها لأنه البكر وبالتالي لم يرضَ عن التقسيم ولم

يحلف يمين الولاء له كما فعل اخواه غرسيه وادفونش ، لأنـــه يرى نفسه مغبوناً بهذه القسمة .

– لو انت في موقفي ماذا تصنع ؟ أاسلم له المدينة ؟ هل اقوى على تسليمها ؟ وإذا ثار عـلي الاشراف الذين التجأوا اليها من مملكة ليون وغيرها ورفضوا التسليم ؟ أأقوى عـــلى الصمود في وجوههم جميعاً وهم كثيرون وأنا امرأة مفلولة القوى ويأبون الخضوع لأخي شانجه ولا يرضون الا بالادفونش ملكاً عليهم . اني اشعر بالضيق الشديد وبكرب النفس يا رذريق.

وتراخت مفاصلها وكادت تهوي عن مقعدها فاقترب منها ورفع رأسها المنحني فوق صدرهـــا من الخوار . وشعرت بذراعي رذريق تطوقانها فاستسلمت والقت رأسها على صدره كأنها في حرز من عوائد الدهر . وفتشت شفتاها عن شفتي رذريق وتلاقت الشفاه الأربع في قبلة عنيفة .

– تعال يا رذريق نغادر هذه الاصقاع الى بلاد لا تصل الينا فيها عين فنعيش للحب وحده ! .

– هل فكرت فيما تقولين يا اوراكه ؟ أي مكان لا تصل اليه عـين اخيكِ شانجه وسطوته ؟

– وما شأن اخي بنا وقد تخلينا له عما يريد . نكتفي بالعيش منفيين في احدى الممالك العربية القريبة منا مثل سرقسطة أو بلنسية ، والعربي لا يخون ضيفه . ... أم هناك عوائق أخرى تحول دون تنفيذ الخطة ؟ شيمانه !

وافلتت يديها المشتبكتين حول عنقه واستسلمت للنحيب .

فحاول التخفيف عنها ، فصرخت فيه : اخرج من هنا ، لا اريد ان اراك بعد اليوم ، اذهب الى سيدك وارو له مـا طاب لك ، فنحن في سمورة وسنظلّ فيها الى أن يأتي فيزيحنا عنها .

فخرج السيد كئيباً خجـلاً . فشل في مهمتيه ، لم يتمكّن من اقناع اوراكه بتسليم المدينة ولم يصرفها عن حبه بالتي هي احسن .

وبينما هو في طريق عودته إلى معسكر الملك شانجه لاطلاعه على نتيجة اجتماعه مع أوراكه ، تصدى له خمسة عشر رجلاً محاولين اغتياله ، فقتل بعضهم وجرح آخرين وهرب الباقون .

المؤامرة

– ما لي أراكِ حزينة يا سيدتي ؟ فدتك الروح . اذا قدرت ان املأ حجرك نجوماً فلا اتردد .

– كيف لا احزن يا بلليده والمصائب تكتنفني من كل جانب . اخي الادفونش ابعد الى طليطلة واخي شانجه يحاول انتزاع سموره مني واخي الثالث غرسيه في السجن . اتراني في حالة احسد عليها ، وقد شدّد أخي شانجه الخناق على هذه المدينة واحاط بها احاطة السوار بالمعصم ولا نجاة لنا . وربما سوّلت له نفسه ابادتنا عن بكرة ابينا وانت تعلم والجميع يعلم طموحه وحرصه على بسط سيادته على اسبانيا جمعاء مهما اعترضته المصاعب.

– سموره العزيزة وطني المحبوب يريد الاستيلاء عليه شانجه !! هذا لا يكون وفي سموره رجال يسيل الدم حاراً في عروقهم .

– انت اعلم من سواك يا بلليده ، بأن سموره لا تقوى على المقاومة طويلاً .

وغرقت في النشيج الفلتان ، فهي لا تقوى على حبس دمعها .

– سيدتي لقد تبينت صدق محبتي وإخلاصي لك فان هذه الدموع التي تذرفها عيناك الجميلتان تتحوّل الى جمرات تحرق فؤادي . خدمتك طوال حياتي دون مقابل وانا مستعد لخدمتك اكثر ، وعزمي انقاذكِ من محنتك . فما مكافأتي على هذا الصنيع ؟

– لك مني ما شئت من مال ونضار .

– المال لا يشفي غليلي ولا يبرد نيران قلبي .

فارتعشت اوراكه من كلامه . ما تراه يطلب ؟ وخشيت أن يغالي في الطلب وتعجز عن تلبية رغبته ، غير ان حبها لسموره حملها للذهاب في التضحية الى اقصى حد .

— بلليده ، إن حرية سمورة افديها بروحي .

— انا لا اطلب هذه الروح العزيزة جداً على قلبي بل اريدك انت ، أنا بشوق إلى شفتيك .

واقترب منها وشدها إلى صدره بذراعيه والصق شفتيه بشفتيها بنهم كجائع يقضم كسرة خبز ، واحست بحرارة انفاسه تلهب وجهها ويجسده الثائر تنتقل ثورته الى جسدها فشبّ فيها نار وشعرت برعشة قوية في جميع انحاء جسدها فكأنها طابت هذا العناق العنيف بعد الحرمان الطويل الممعن في التعذيب .

وخشيت ان يتورط هذا الرجل فيقودها الى ما لا تحمد عقباه وخشيت من نفسها ان لا تقوى على الصمود امام الهجمات الاخيرة اليائسة .

واستيقظت فيها البقية الباقية من العزة فدفعت بلليده دلفوس عنها بكلتا يديها وهو لا يريد الافلات بل يرغب في ادراك غرضه منها . لأجلها سيعرّض حياته للموت يقتحم اخطر المغامرات ولا بد له من ارضاء رغباته الجسدية كاملة حتى يتفرغ لمهمته خلي البال .

وبعد جهد شاق تملّصت من يديه وقد تركت المقاومة أثرها في جسدها. والقت على بلليده نظرة غاضبة . أنسي انها سيدته وان كلمة من فمها تنقله الى العالم الآخر ؟ لا ، انها لن تلفظ الكلمة ، بودها معرفة الخطة التي رسمها لانقاذ سموره من أخيها شانجه المحدق بها يجيشه والمانع عنها القوت .

وأمرت جليسها بالانصراف فالقى عليها نظرة ضمّت مكنونات قلبه وشغفه الشديد بهذه المرأة التي تدفع به الى الهلاك ، ويسعى الى حتفه غير عابىء ، اذا كان في موته رضاها بالدرجة الاولى وانقاذ وطنه سموره

بالدرجة الثانية . حب اوراكه أعماه وقد كان يكتفي منها بنظرة رخية ناعمة وبسمة طرية واعدة ، اما وقد نال منها اكثر مما يتصوّره فيعد نفسه من اسعد البشر فخرج يخطر وملء برديه زهو كأنه ملك الدنيا بقبضتيه ، وتناسى لبرهة المهمة الرازحة على كتفيه ، واستيقظ وتمثلت له خطورة الموقف ولم يعبأ ، سيضرب ضربة تذكرها الاجيال ويتناقلها الاحفاد عن الاجداد.

وتوجّه مسرعاً الى معسكر الملك شانجه المرابط حول المدينة .

ولما وصل وجدهم على أهبة الهجوم على سمورة ودخولها عنوة . فأسرع حتى أدرك خباء الملك فرآه بين قواده يتبادلون الآراء في اتخاذ الخطط العسكرية الضرورية وانقسمت كلمتهم ، فمنهم من يريد الهجوم ومنهم من يرغب في التربص حقناً للدماء لأن المدينة لم تعد قادرة على الصمود مدة اطول . فمنعه الحرس من الدخول فصرخ في وجوههم أنه يريد رؤية الملك لأمر خطير ، وسمع شانجه الضجة واطل على مدخل الخيمة وقال للحرس: دعوه يدخل .

فدخل بلليده وسيماء الذل والاستعطاف على وجهه .

– مولاي الملك دافع عن المخلصين وعاقب الخائنين .

– انهض ! من انت ؟

– انا بلليده دلفوس خدمت ملوك قشتالة بالحسام وباللسان . حدث بيني وبين المقيمين داخل سموره سوء تفاهم لأني دافعت عن حقوقكم يا سيدي مما سبّب ايغار الصدور علي فهربت وجئت لائذاً بحماكم ، ولي حديث اليكم يا مولاي على حدة .

– دعونا وحدنا .

فقال له السيد : لا تصدّقه ايها الملك واحذر شره انه خائن .

– ما لك وله ، انا اعلم منك به .

فخرج الحاضرون وعلامات الريب على وجوههم . ماذا يريد هـذا

الرجل ؟ هل جاء يحمل رسالة ؟ هل صحيح انـه مرذول في سموره ؟ هل ينصح الملك ؟ هل يحاول قيادته إلى تهلكة ؟

ولما اختليا قال بلليده : انا من اخص عبيدكم أيهـا الملك . فقدم له شانجه يده ليقبلها دلالة على الاحترام والخضوع فقبلها قائلا :

قررت في نفسي تسليمكم سموره بدون إراقة نقطة من الدماء .

ـ اذا صح ما تقول يا بلليده جعلتك ثاني رجل في مملكتي .

وسمع الصراخ في الخارج ، انه السيد وديا‌غو اردونيس وبعض الجنود فدخل السيد قائلا : خرج من سموره خائن اسمه بلليده دلفوس ، خائن ابن خائن ، المكر على لسانه قتل اباه والقى جثته في النهر . يريد قتلك ايها الملك فكن منه على حذر ، اقتله قبل أن ينفذ فيك مؤامرته الشريرة.

فقال بلليده : لا تصدق كلمة يا سيدي مما يقول فالخاص والعام يعلمان ان بين السيد هذا وشقيقتك اوراكه حب متبادل تليد مـا يزال يعبث بجوانحهما وهو اقوى وارسخ من اسوار سموره نفسها .

فصرخ السيد في وجهه . انت خائن ولئيم وكاذب وسافل .

فقال شانجه : أبحضرتي تتلفظ بمثل هذا الكلام يا رذريق ؟

فقال دلفوس : انكم يا مولاي الملك تشاركون في إهانتي .

فقال الملك شانجه : اخرج من مملكتي يا رذريق لمدة سنة .

فقال رذريق : اذا كنت تنفيني سنة فأنا انفي ذاتي اربع سنوات . ولكن أنبهك لتكون على حذر من الخائنين لأن الملوك الناكري الجميل غالباً ما تعاقبهم السماء . فلتحفظك السماء اعواماً مديدة .

وخرج رذريق من حضرة الملك شانجه الثاني والاسف في وجهه . انه يحب ملكه وقد قضى العمر كله وحارب الى جانبه وقاد جيوشه .

ـ أرأيت يا بلليده كيف اني كذبت الجميع لاصدقك ؟

– إذا كنت خادعـاً فمر يا مولاي بقطع رأسي . في اسوار سموره منفذ يؤدي الى مخدع الملكة ، اعرف اسراره فهلم بنا .

– أنا وانت نخرج من هذا المعسكر وحدنا ؟

– الا تثق بي يا مولاي وانا اعزل ؟ استودعك الله ؟

– تمهّل قليلاً يا بلليده اسير معك ومهما شاءه الله فليكن .

وامتطيا صهوة جوادين وخرجا من المعسكر .

وادركا سموره فرفع الملك شانجه انظاره اليها . كم يتوق الى امتلاك هذا الحصن المنيع انه يخاطر بحياته لأجله . تراب سموره من الجنة انهـا افضل ما في قشتالة .

– اني مدين لك بنصف مملكتي يا بلليده ، فستكون درة في تاجي .

وتنحى الملك قليلاً عن الطريق .

– ماذا يبغي سيدي الملك ؟

– قضاء حاجة لا يمكنك ان تقضيها عني .

– في هذه الناحية لا يبصرك احد. فالأشجار المتشابكة تسترك عن العيون.

– صدقت ، ساعدني على الانحدار .

فقدم له يده وصار شانجه ينحدر قليلاً قليلاً حتى لا تزلّ به القدم . وخانته رجلاه فعثر وسقط السيف من يده بعد ان كان نزعه من وسطه فعثر عليه بلليده في الدغل فقال :

– وجدته فاقضِ حاجتك يا سيدي .

وحار في امره ، الفرصة مؤاتية ، هل يضرب الضربة ؟ لم يتجاسر ، الخوف يشلّ اعصابه .

ايتها السماء شدّدي من عزائمي .

وتقدّم من الملك شانجه من الوراء والجالس القرفصاء واغمد السيف في ظهره حتى نفذ الى صدره فصرخ :

– ايها الخائن ، ستنال جزاءك .

– نعم اذا بقيت في قيد الحياة واذا لم تفتح لي سموره ابوابها .

واطلق ساقيه للريح ، فأبصره رذريق من بعيد فقال : قف ايها المشؤوم مالك تركض بهذه السرعة لا ريب انك ارتكبت جريمة نكراء .

ووصل الى اذن رذريق صوت استغاثة وانين فاقترب من ناحيته فاذا ملكه مضرج بالدماء والسيف ما زال مشكوكاً في ظهره .

وامتطى السيد اول فرس شاهده وجرى مقتفياً اثر بلليده الذي كان قد بعد كثيراً ، لم يضع المهماز في رجليه ليحث الفرس على الجري .

واسرع اصحاب الملك شانجه وبينهم دياغه فحمله على كتفه واسرع به نحو المعسكر .

وبلليده واصل الركض حتى وصل الى باب المدينة ورذريق في اثره ، فصرخ : سموره ! افتحي الباب لمن انقذك .

فانشق الباب ودخل منه بلليده ثم اغلق في وجه السيد الذي حاول الدخول :

– ايها اللعين ، حتى ضمن اسوار سموره لن تكون في مأمن فسأهدم هذه الاسوار بقدمي .

ولكن تهديده لم يجده نفعاً فعاد ادراجه الى المعسكر ليستطلع احوال مولاه الملك شانجه .

ولما وصل وجده ملقى على أحد الجانبين والسيف ما زال مشكوكاً في ظهره ودياغه يشجعه والدم يذرف من جرحه ولا يتجاسر أحد على سحب السيف من الجرح الفوّار ، فقال دياغه : اهب حياتي بدل حياتك .

– لا يا دياغه ارى الموت على قيد انملتين مني .

– آه من ظلم القدر ! آه منك يا بلليده الخائن اللعين ! وانت يا سموره العليمة بالخيانة ! الانتقام ! الانتقام !

– لا يا دياغه . السماء تعاقبني على مخالفة وصيـة والدي ، فأنا اداة لعدالتها والا لما قدرت سموره ولا بلليده على قتلي . كفّ عن البكاء يا دياغه وانتم يا جميع اخصائي الذنب ذنبي والعدالة من الله .

وصيتي اليكم ، حق اموت مطمئناً : ان لعنة ابي حلّت علي في الارض، صلوا لأجلي حتى تزول عني في السماء .

وانت يا رذريق الذي كنت دائماً صديقي الكبير ، اصفح عن قاتلي ... ربي والهي اضع بين يديك روحي !!. قولوا لاخوتي ان يصفحوا عني كما اني اصفح بدوري عن الذي اغمـد السيف في ظهري !!. هكذا شاءت السماء !. اتكل على عطفها واموت مسروراً واعفو واطلب العفو والمغفرة...

ولم يعد يقوى على الاداء فأرخى رأسه وأسلم الروح .

وانتشر النبأ في المعسكر ، فشقوا الجيوب من اللوعة على هذه الداهية الكبرى . الويل لهم من غضب الادفونش لما يعود من منفاه الى الحكم فسيصب جامات غضبه عليهم جميعاً . واحسرتاه على هـذا الجيش الذي كان الى ساعات خلت عامراً بالثقة والانتصار فولّى الادبار عـلى غير هدى تاركاً خيامه ، كل منهم عاد إلى بيته واهله لا يلوي على شيء .

وحُمل جثمان الملك شانجه ليدفن في دير قونيه ، تنفيذاً لوصية الراحل . كتب على الملك شانجـه ان يموت في زهرة شبابه ولم يتجاوز الرابعـة والثلاثين من العمر . ذابت احلامه كما يذوب الشمع امـام النار . اين السيطرة والسيادة اللتان كان يطمع بهما ؟ غلفهما التراب وطواهما الردى ...

القسم الثالث

حسد وافتراء

- ١ -

ادفونش السادس ملك اسبانيا

لنترك السيد ورجاله سائرين في سهول قشتالة ، حاملين جثة ملكهم ليدفن في دير قونيه حسب وصيته ولنرجع الى سموره حيث كان يتقرّر مصير اسبانيا ، فان الاميرة اوراكه بعد اغتيال اخيها شانجه وجهت الرسل الى طليطلة ليطلعوا الادفونش سراً على النبأ الخطير .

ولما وصلوا الى الحدود الفاصلة بين ليون ومملكة طليطلة تلقى الاخبار منهم بعض الجواسيس الذين كانت غايتهم نقلها من فريق الى فريق قصد الربح ، فإن اثنين من هؤلاء نهضا في الصباح الباكر قبل الرسل واتجها نحو طليطلة بغية اطلاع الادفونش على الحوادث التي جرت في سموره .

صادفهما القند بدره انشورش مستشار الادفونش فنحاهما عن الطريق العام وذبحهما ، ثم ما لبث أن وصل رجال اوراكه فأعلموه بالواقع وتوجهوا معاً إلى طليطلة .

ووصل سراً الى هذه المدينة عدد من اعيان قشتالة لمبايعة الادفونش ملكاً عليهم .

وحار هذا في امره ، أيطلع المأمون على ما جرى ؟ واذا ابى المأمون

السماح له بالعودة الى بلاده او فرض عليه مقابل الرجوع شروطا يصعب عليه تنفيذها ؟

وبعد اجهاد فكر رأى من الصواب ومن كرم النفس ونبلها ان يكشف لضيفه القصة من اولها الى آخرها . انه من العار الفاضح ان يظهر بمظهر الخائن وناكر الجميل تجاه من اكرم مثواه واحسن وفادته . ومثل بين يدى المأمون .

— أنقذت نفسك من الموت لانني كنت عازمـــاً على قتلك لو انك غادرت المدينة خفية ، فقد اذكيت عليك العيون وبثثت الارصاد ليمنعوك من الخروج لاني مطلع على هذه الامور التي تصبها في أذني . سر على بركة الله واستلم ذمام الحكم في بلادك وانا عـــلى استعداد لتقديم السلاح والمال والرجال لادراك غرضك ، اذا وقفت الصعاب في وجهك !.

وافترقا على صداقة ، بعد ان جددا يمين الولاء المتبادل .

وسحت زيدة دمعات حرار ، لقد أفلت من يدها من حسبته لهـا ، بئس الملك اذا فرّق بين قلبين استكنا إلى الحب . وودعها الادفونش من طرف خفي ، خوف اثارة الظنون حولهما ، وكان بوده ان يضمها الى صدره ويرشف الحب من فمها ويؤكد لها اخلاصه لعهدها غير ان مشاكل خطيرة لم تتدبر بعد ولم تستقرّ الامور تماماً .

وسار يطوي الفدافد الى سموره . الحظ خدمه وسلّم اليـه اسبانيا بدون جهـــد ، اخوه شانجه زرع وغرس وسقى وبذل وهو يجني الثمار بدون جهد كبير .

وعقد جلسة سرية ضمت الاميرة اوراكه وبعض الاشراف ، واقبلت الوفود اليـه من ليون وفيهم الاشتوريون والجليقيون والبرتغالية لاستقبال ملكهم . وتقدم بعض اعيان قشتالة من الحزب الانتهازي امثـال غنصاله سلفادورس ، قند لارا ، الذي نسي بسهولة ملكه الراحل شانجه وساروا جميعاً في ركاب الادفونش من سموره الى ليون .

ودانت الامور للملك الجديد ورضيت عنه جميع الاحزاب فإنه الانسب بين كل الملوك الاسبان الحاكمين في شبه الجزيرة الابرية .

بقي حزب قشتالي واحد يتزعمه السيد لم ينظر بعين الرضى إلى الملك الادفونش ، فالاستياء في قشتالة سائد من جراء مقتل ملكهم فمنهم من نسب مصرعه الى الاميرة اوراكه وغيرهم اكثر جرأة الى الادفونش نفسه فإنه لا يستطيع ان يستلم زمام الحكم في قشتالة قبل اسكات أخصامه من أنصار الملك المقتول وعلى رأسهم رذريق السيد وهو فتى في التاسعة والعشرين من سنه . وقد يكون عملهم هذا ليس لمجرد الاخلاص والامانة للملك المقتول بل لتحقيق سيادة قشتالة على بقية الممالك الاسبانية ، وقد يمتنع الادفونش عن القسم لأن ضميره يبكته ، او قد تظهر مع الوقت الدلائل على اشتراكه في الجريمة ، فيفكر القشتاليون عند ذلك في تمليك غيره عليهم مثل غرسيه ملك غليشية الملقى في السجن او ملكي نباره واراغون وهما من أنسباء المقتول .

القسم في كنيسة القديسة غاتة

رأى القشتاليون ان ليس من ملك موافق اكثر من الادفونش للجلوس على عرش قشتالة فعزموا على اقتبال القسم منه بأنه لم يشترك في مقتل اخيه شانجه . ولم يتجاسر احد على تحليفه في ذلك اليوم المشهور يوم المبايعة . وكان السيد من جملة الحضور ، فقام فيهم الملك الادفونش خطيباً وقال : « لقد شاءت السماء ان تنقل اليها أخي الملك شانجه رحمات الله عليه وبقيت انا ابن الامبراطور فرننده ، فالسلطة ترجع الي دون سواي فأدعوكم الى طاعتي » .

فهتفوا جميعاً : اجل ، نحلف لك يمين الولاء .

وصمت رذريق ، فقال له الملك : وانت يا رذريق ما لك صامتاً ؟

– اصغ أيها الملك ؛ ان الالسنة تتناقل الاشاعات عن اشتراكك في مقتل أخيك فلا بد من تكذيبها ووضع حد لها .

– وكيف ذلك ؟

– اني مستعد لحلف اليمين ، فمن منكم ايها الحاضرون يتجاسر على تحليفي هذه اليمين المغلظة ؟

– انا رذريق السيد الذي لا يعرف الخوف .

رضي الادفونش ان يحلف اليمين على الطريقة التي يراها زعماء قشتالة . فقرّر ان يقسم مع اثني عشر من أخصائه في كنيسة القديسة غاته في برغش ؛ لأن العرف السائد يقضي بأن يتم الحلف في كنائس دون أخرى. وكنيسة القديسة غاته ليست من الكنائس الهامة في تلك المدينة ، فتقع في حي منعزل وهي رعية وضيعة .

ومن شروط صحة القسم ان يلمس من يؤديه شيئاً مقدساً مثل الانجيل او الصليب فوضع الملك الادفونش يمينه على الصليب . فقال رذريق الكلمات الآتية : ليقتلك الانذال يا أدفونش ، الذين هم من رعاع القوم بسكاكين جبلية وليس بخناجر مذهّبة ، ويحتذون النعال لا الاحذية النظيفة ، ويلبسون العباءة الخشنة لا الثياب الحريرية الناعمة ولينزعوا قلبك من جنبك الايسر اذا كنت قد تآمرت او ساعدت او وافقت على موت اخيك. اتقسم هكذا ؟

فأجاب الادفونش مع اصحابه الاثني عشر : اجل اقسم ، ولتكن السماء والارض شاهدتين .

وتابع رذريق : ولتمت الميتة ذاتها على يد بلميده آخر بخنجر مرهف يخترق صدرك اذا كنت امرت بقتل اخيك او لك ضلع في مقتله . قل آمين.

– آمين .

– جرّد سيفك من غمده واحلف بشرف الفروسية انك لم تأمر ولم تفعل ولم تفكر قط بقتل اخيك الملك شانجه الذي نبكيه جميعاً .

— اقسم . ولكن يا رذريق الا ترى انك عدوت طورك بالصلف ؟ اترى انك احسنت بصنعك هذا وعن قليل ستجثو امامي وتقبل يدي .

— اذا بقيت في مملكتك . فها انا ذاهب الى حيث اقهر الملوك واستولي على البلدان بقوة ساعدي وجناني .

فأسرّت الاميرة اوراكه في اذن أخيها الملك الادفونش : سكّن غضبك واتركه ان يضع لك التاج على رأسك .

فقال الادفونش : عد يا رذريق فلست بحاقد عليك . تعال وضع لي التاج على رأسي .

— أنا خادمك الامين ايها الملك .

والتفت نحو الحاضرين متابعاً كلامه :

اتقسمون يمين الولاء للملك الادفونش ؟

فصرخوا جميعاً :

اجل نقسم !

فقال رذريق : وانا اول من يطيعه .

فعانقه الادفونش ورضي عنه .

* * * * * * *

— ٢ —

اوراكه

— خلا لك الجو يا ادفونش ، فانت السيد المطلق ولا منازع لك على عرش إسبانيا . هذا من حسن سعي وتدبيري .

— دعينا يا اوراكه من المنة ، ولكونك تفاخرين بها فاجعليها كاملة بتسليمي سموره .

– لا تنس ان سموره جاءت الي بالوصية من والدنا الملك فرنندو فلا اتنازل لك عنها بدون مقابل .

– وماذا تريدين لقاء هذا التسليم ؟

– ساعدني على الزواج من رذريق السيد .

– تحول دون رغبتك موانع جمة ، لا تجهلينها .

– اجل ، حرّم والدنا علي وعلى شقيقتي البيره الزواج . اتعلم لماذا ولصالح مَن ؟ حتى لا يأتي من ينازعكم على العرش انتم الذكور . ثم انك تخشى رذريق لطموحه فقد تخوله نفسه بالمطالبة بالعرش إذا اصبح زوجي. اعلم كل هذا علم اليقين . ولكن أمن العدل أن اشقى ليسعد الآخرون ؟ أمن العدل والحق ان يحرّم عـــليّ والدنا الزواج ؟ واذا كنت لا اقوى طويلاً على الكبت والحرمان ، فماذا اصنع ؟ وإذا كنت لا اقوى على الحياة بدون رجل ؟ أأسلم نفسي لأول من اعثر عليـه ؟ إلى هذه النهاية يريد والدنا ان يجرني ؟ انه عار يلحقنا جميعاً ومن هو المسؤول عنه في الدرجة الاولى ؟ والدنا اذ حرّم عليّ وعلى شقيقتي امراً طبيعياً قدّسه الله واقرت به الشرائع . . .

– كفى ، كفى استرسالاً في التذمر والشكوى والاتهام . ماذا تريدين مني ان اصنع ؟ أأخالف توصيات والدنا ؟ قد يمطر علينا غضبه من السماء. لا اقوى بعد اليوم على مخالفة ارادته لأن كل من يخالفها كانت تصيبه البلية.

– لديّ حل لهذه المشكلة .

– انت دائماً صاحبة الحلول يا اوراكه فهاتي ما عندك .

فاحمرّت وجنتاها وعقد الخجل لسانها فهي عاجزة عن الادلاء .

– ما لك صامتة ؟

– اخشى ان تثور ثائرتك لأن المسألة هامة جداً بالنسبة اليّ واليك.

– علي بالايضاح والكشف عن هذه الالغاز .

– ادفونش ! رباه !! ماذا ساقول ؟؟ ادفونش ... اني ... احبك ... !

– اهذا ما يخجلك التصريح به يا اوراكه ؟ وانا ايضاً احبك وبرهنت لك باعطائك لقب ملكة .

– وكيف ذلك ؟ أفصحي .

– أحبك كغريب عني ، كما لو كنا خرجنا من صلبين مختلفين .

فصعق الادفونش وقد ادرك مرماها ، أخته من ابيه وامه تحبه كعشيق !!

– هل تدركين ما تقولين والنتائج الخطيرة المترتبة عن قولتك ؟ هل خولطت في عقلك ؟

– لا يا ادفونش لم اكن قط في كامل قواي العقلية كما انا في هـذه الساعة . احببتك منذ زمن بعيد وكذّبت نفسي في هذا الحب وسعيت الى خنقه وفتشت عن حب آخر ينسيني اياه ، فـلم افلح . انا لا احب رذريق ولا سواه ، انت وحدك موضوع حبي . انـه من هذا النوع من الحب الذي يضم جميع انواعه الى درجة الاستئثار فـلم يعد في قلبي اي مكان لحب او حنان اسبغهما على الآخرين !!.

وصل حبي لك الى الاجرام . اتظن ان بلليده دلفوس كان اقدم على الجناية التي اهتزّت لها اسبانيا لو لم يجد التشجيع الكامل من قبلي ؟ أنا وحدي المسؤولة عن مقتل اخينا شانجه رحمـه الله . بلليدة كان أداة التنفيذ . كنت امقت هـذا الرجل رغم محبته الشديدة الفائقة الحد لي ، ولكنني لم احتمل منه وقاحته وتعرّضه لي . دفعت الثمن غالياً ولم اكن على ثقة مطلقة من النجاح . محبتك كانت الحافز الاول إلى هذه التضحيات الجسام . كنت ماثلاً امام عيني ، كنت انت الذي يقبلني ويضمني الى صدره بعنف لا هو ، كنت انا مستسلمة اليك لا اليه . ولم تذهب تضحياتي عبثاً . كم من الليالي قضيتها والكرى لا يعرف جفني فأنا اتقلّب على فراش الارق ، اتمثلك في منفاك متمنية لو كنت قربك احنو عليك وارد عنك وحشة الغربة .

وتقدمت من اخيها وجثت عند قدميه والقت رأسها على ركبته فدفعها عنه ونهض من مكانه ، وارتج عليه المقال وداخله ذهول ودهشة وارتعاب من هول المفاجأة التي اودت بروعه .

ـ قل شيئاً مهما كان ، ولا تصمت صمتك يخيفني . قل لي احتقرك كالنفايات .

فومضت عيناه ببريق النقمة وقال : ان موتكِ خير من بقائكِ في هذه الافكار المسمومة الموبوءة .

وتمثّلت له زيدة الاميرة العربية التي أحبها بكل ما في قلبه من الحب واحبته ولكنها امتنعت عن تقديم يدها له ليقبلها . وهذه شقيقته تعرض عليه نفسها بلجاجة ووقاحة . أإلى هذا الحد بلغ بها عنف الوجد وشدة الهيام حتى صارت تستطيب كل ما يأتيها من اخيها ؟

واكبر فيها هذه العاطفة الجياشة نحوه رغم اشمئزازه وكرهه لها . أتراه يحب اخته ؟ وارتاع من مجرّد التفكير بهذا الحب .

وحاولت الدنو منه من جديد فنفر منها .

ـ انت حرّ فيما تفعل . ولكن سموره لن تصير اليك اذا لم اصر انا اليك ، ولا اراك تقوى على انتزاعها مني فتخالف وصية والدنا وقد حلفت اليمين انك لن تخالف هذه الوصية ولا اراك حانثاً بيمينك ، تخشى غضب السماء وغضب ابينا وغضب الناس ... ادعك وشأنك . انسَ ما دار بيننا من حديث ... استودعك الله !!

وحاولت الخروج فناداها : اوراكه !

ـ ماذا يا أدفونش ؟

ـ انتِ اقوى مني واراني عاجزاً عن رد اي حاجة تطلبينها .

وأخذ يقترب منها واخذت تقترب منه وضمها الى صدره وضمته الى

صدرهـــا وارتعشت شفاههما الاربع الظمأى ، وتزايدت نبضات قلبيهما ، وانتشى الشقيقان الحبيبان بلذة العناق الولهان ، وساد بينهما الصمت وعصفت في جوانحهما الشهوة ، واستجابا لندائها وتذوّقا افاويقها واستطابا طعمهـا ولم يعبأا بحلالها أو بحرامها ....

واستيقظا وقد غلفت السعادة كيان اوراكه بعد نيل البغية ، فرفعت الى اخيها عينين تموجت فيهما خيوط الرقة وعرفان الجميل .

ــ اتظن يا ادفونش انك لو صنت عني نفسك لصنت عنك سموره ؟ لو كان العالم ملك يدي لطرحته بين يديك غير مكترثة .

ــ اكنت صادقة في طلبك الزواج من رذريق ؟

ــ انت اعلم ، ورذريق ادرك ببعد نظره ان محبتي له مصطنعة . ثم انه يهوي نسيبتنا شيمانه ابنة القند الذي قتله رذريق في الدفاع عن شرف ابيه ، ألا تذكر ؟

ــ أجل اذكر ويا للأسف !! رذريق السيد كان السبب في اندحاري بمعركتي لينتاده وغلبجيرا اذ كان يقود قوّات اخي شانجه . اتراني اصفو له بعد الويلات التي سببها لي ؟ ولو لم يرفق بي الله جلّ جلاله لكنت ما زلت مبعداً عن هذه الديار الى اجل لا يعرفه الا الله .

ــ لا ارى السيد ملاماً في اخلاصه الخدمة لأخينا شانجه ، وقد يخلص لك فقرّبه اليك كما قرّبه اخونا ، فالعدو اللدود قـد يتحوّل الى حليف امين يعتمد عليه في الملمات ...

ــ اتريدين ان اجعله قائد جيوشي ؟ هذا لن يكون . فبنو غومس شاركوني في الضرّاء ، فلا يجدر بي أن اهمل شأنهم في السرّاء ، لا بد من اعادة املاكهم اليهم في « قريون » ومنطقة سموره . بطره انشورش رافقني في منفاي وكان لي المستشار الامين . اتريدين ان يقال عني اني تنكّرت لأصدقائي واخصائي في المحنة ورفعت من شأن اخصامي واعدائي الالداء ؟ ليس هذا من عامل العاقل الحكيم . فاكراماً لخاطرك أجعله من صنائعي في

الدرجة الثانية واقيمه قائداً على بعض وحدات الجيش دون ان اسلمه الجيش كله ، ذلك منصب خصصت بـه غرسيه أردونس الشاب الكريم المحتد العالي الهمة .

اما بلليده دلفوس الذي قتل اخانا فلا بد من قتله مراعاة لشعور الحزب المعاكس من قشتالة وقد اقسمت ولن احنث بقسمي . لا انكر أن عمله جيد ولكنه عادة سوء .

— اراك على صواب بشأن بلليده . ورذريق ، مـا قولك فيما لو زوّجناه من شيمانه ؟ انه يميل اليها وتميل اليه .

— وهل توافق على هذا الزواج وقد قتل رذريق اباها واقسمت ان تنتقم له ؟ علينا بأخذ رأيها في هذه المسألة المتعلقة بها قبل سواها .

ونادى احد الحجاب وقال له : سر الى منزل شيمانه وابلغها رغبتي في رؤيتها ومحادثتها في امر خطير يهمها .

— سمعاً وطاعة يا مولاي .

وانصرف الحاجب . فقالت اوراكه : « من صالح المملكة عقد هذا الزواج بين سيدة من ليون عريقة النسب ونبيل من قشتالة ، حتى تتآلف القلوب وتجتمع الكلمة ، الزواج هو السبيل الامثل لخلق المصالحة التامـة بين هاتين المملكتين المتنازعتين على السيادة منذ عشرات السنين ، بالزواج تتقوى الوحدة ويصفو الاندماج .

ولما وصلت شيمانه الى القصر هرعت الاميرة اوراكه لاستقبالها فاتحة لها ذراعيها وضمتها الى صدرها فتعانقت الرواقة والبهاء في هاتين المرأتين . إنهما زهرتان عطرتان في فيض سناهما .

فبادرها الادفونش : « مرحباً بابنـة عمنا في هيفها الصبيح وفي قسماتها الوضاحة .

فخجلت شيمانه من هذا الاطراء الذي لم تعهده في ابن عمها أن وراءه غرضاً يقصده .

ـ الا تعلمين سبب دعوتنا لك في مثل هذا الوقت الذي طابت فيه نفوسنا . ونريد ان تطيب فيه نفوس الآخرين ؟

ـ لا يعلم الغيب الا الله !.

ـ ما رأيك في رذريق ؟

ودبّت رعشة في جسدها عند سماعهـا اسم رذريق ينطلق من شفتي الملك الادفونش !.

ـ انه قاتل ابي وسأنتقم منه .

ـ طال العهد على تلك الحادثة المشؤومة . فلماذا ننفض عنهـا تراب السنين ؟ ثم إن القتل كان نوعاً ما شرعياً في مبارزة ثنائية تغلّب فيها رذريق على ابيك الذي كان قـد صفع اباه بحضرة الملك ابينا ، بلل الله ضريح الاثنين بالرحمة والرضوان .

ـ الى أين تريد الوصول من وراء هذه التلميحات ؟

ـ ارتأيت وارتأت اوراكه أن نقرّب بينكما ، فأنت لا تضمرين الحقد على رذريق بل حباً جارفاً ويبادلك الحب نفسه ، فمن الواجب الرحمـة بالقلوب . تتزوجين رذريق وتجدين فيه الرجل الذي فقدته في والدك . ولا حاجة بنا الى الكلام عن مواهب رذريق فهي غير خافية عليك ، فالاقرار له بالشجاعة والدراية واجب ، فبفضله تغلب علي أخي شانجه رحمه الله في معركتين متواليتين رغم تفوقنا العددي . ثم انه يتهالك في محبتك ورضاك ويفاخر بزواجه منك فانت اعرق نسباً وتكونين مكرمة في داره.

ولانت نفس شيمانه الا انها ما زالت مصرة على الرفض . فدعا الادفونش الحاجب اليـه مرة أُخرى وامره بالتوجه الى منزل رذريق كي يحضر الى مقابلة الملك .

وشاءت شيمانه الاعتراض فراحت اوراكه تحدثها في امور تصرفها عن هذا التفكير وشيمانه لا تقوى على نزع أفكارها من هذه المقابلة القريبة التي ستتم بينها وبين رذريق ، فلماذا الانكار انها تحبه في كل خلجة من عروقها .

وكان السيد بين اهله واعوانه يتداولون في الموقف الذي يجب اتخاذه من هذه المملكة الجديدة فقرّ رأيهم على الطاعة المطلقة للملك الادفونش، انه الملك الشرعي بعد موت شانجه الثاني .

وصل الحاجب وأدّى الرسالة بأدب جم ، انه أمام قاهر ليون مرتين ومعجب بشجاعة السيد الطائرة الذيوع .

فحار رذريق في أمره . ما الداعي لهذا الطلب ؟ وسأل الحاجب عن الموجودين في حضرة الملك ، فقال : انه في خلوة مع الاميرة اوراكه والنبيلة شيمانه .

فخفق قلبه عند سماعه اسم حبيبته وعاودته الذكريات الحلوة وكاد ينفر الدمع من عينيه من التأثر . فأصلح من شأنه وسار بصحبة الحاجب ، والارتباك باد عليه ، وود لو يعفيه الملك من هذه المقابلة رغم تشوقه العظيم اليها .

ادركا القصر فترجل عن جواده واصلح هندامه ، فقاده الحاجب الى القاعة الصغيرة التي ضمّت الاشخاص الثلاثة . فتقدم رذريق ثابت الجنان رغم الخجل المستحوذ عليه من المثول امام شيمانه .

فناداه الملك : « إقترب يا رذريق ، شيمانه بانتظارك » .

فخفّ رذريق والفرح يملأ صدره واقترب من شيمانه ، فاغضت عنه ، فخاطبها الملك :

— « اخلعي عنك هذا المظهر يا شيمانه ، انتهت ايام الحرمان والعذاب فالله عزّ جلاله لم يهب الانسان الحياة حتى يحرمه من هبات اقل قدراً ويمنعه عن التمتع بلذائذ قدسها فلم يميزها عن طبيعة الانسان . فعندما

استحق هبة الوجود التي تفوق كل هبة أُخرى معناه انه يستحق كل تلك التي تأتي بعدها . نعلم من زمان بعيد ان الحب يربط قلبيكما ومتى ربط الحب قلبين فليس من قوة مهما سمت تقوى على فصلهما . ادنُ يا رذريق وقبّل امرأتك » .

ـ اذا كانت هذه مشيئة مولاي فلا اعتراض لي عليها .

وتعانق الحبيبان بين تصفيق الملك الادفونش السادس وابتهاج الملكة اوراكه الطافح قلبها بالسعادة ، فتتمنى أن تغمر هذه السعادة ذاتها جميع المخلوقات .

وشيمانه دهشت من هذا التصرّف الغريب من قبل اوراكه حيالهـا ، عهدها بهـا تتهالك في حب رذريق ، فماذا دهاها ؟ وساورتها الظنون وعجزت عن تفسيرها وتأويلها . هل وقعت اوراكه في حب جديد انساها حبها التليد ؟ واغلق عليها الامر فهي في حيرة وريبة واساءة ظن دون ان تملك الدليل القاطع على هذا التبديل المفاجىء .

وصار الخطيبان يستعدان للزواج واستغرق استعدادهما عـدة أشهر ، حتى جاء اليوم المشهود والاجل المضروب في ١٩ تموز ١٠٧٤ ، ورذريق له من العمر إحدى وثلاثون سنة .

والعرف السائد يقضي بأن يقدم الزوج للزوجة مهراً بمثابة شراء جسدها او اكراماً لطهارتها وشغفاً بجمالها . تلك شرائع ليون ، الزوج يقدم للزوجة نصف ما ملكت يداه ، وحسب شرائع قشتالة يقدم لها الثلث فقط .

وكتبت وثيقة بهذا المعنى تقول : إن رذريق دياث من قرية فيفار ، الواقعة باقليم برغش من مملكة قشتالة ، يقدم لشيمانه زوجته نصف ممتلكاته إكراماً لجمالها وطهارتها .

واقيمت الولائم والافراح واقبـل الناس من كل فج وصوب لمشاهدة

وتهنئة العريس القشتالي والعروس الاشتورية والعرّابان بطره أنشورش والفق غرسيه أردونس .

وكان يأمل الملك الادفونش السادس من تدبير هـذا الزواج وتسهيله ازالة الخلافات القائمة بين ليون وقشتالة فلم يوفق على قدر امله ، اذ ان الخلاف لم تبرد حدته بـين هاتين المملكتين المتنافستين على السيادة فعزم القيام برحلة الى « أوفيده » الواقعة في اقاصي الشمال لتكريم بعض ذخائر القديسين والاولياء الموجودة في كاتدرائية المدينة واستصحب من جملة من استصحب رئيس اساقفة برغش ورذريق السيد ولم يكن قد مضى بعد ستة اشهر على زواجه وهي المرة الاولى التي يزور فيها بلاد امرأته . وضمّت الحاشية ايضاً الملكة اوراكه والاميرة البيره اختها والقمز المعاهد ششنند وزير قمبره في البرتغال وبعض الاساقفة والاشراف . وتمت هذه الرحلة الى الديار الشمالية في مستهل صوم سنة ١٠٧٥ مسيحية .

وهنـاك في مدينة اوفيده في أواخر الصوم ، اجتمع « القورت » في جلسة تشريعية بدير القديس بلايه على اثرها عـيّن الملك قاضيين : الواحد ششننده وزير قمبره والآخر رذريق دياث ولم يتجاوز الثانيـة والثلاثـين من عمره ، انه تمييز كبير له من قبل الملك ادفونش .

وعند انتهاء صوم سنـة ١٠٧٥ عادت الحاشية من اوفيده الى قشتالة ووصلت الى برغش في اول أيار من هذه السنة .

ورزق الله السيد ولداً سماه دياغه كان فاتحة خير عليه اذ اعفي من دفع الضرائب المترتبة عليه ، ضيعته فيفار من اعمال برغش .

وتوالت الاحداث في السنة التالية ، ففي الرابع والعشرين من حزيران ١٠٧٦ م. قتل غيلة الملك شانجه من مؤامرة دبرها اخوه الاصغر رامون واخته المدعوة اوراكه وبعض اشراف البلاد . وجاء هذا المصرع لصالح الملك الادفونش السادس لأن اهل نباره رفضوا وضع التاج على رأس الاخ

القاتل ، ولم يفكروا في ابن المقتول الذي كان ما يزال طفلاً فقرروا ضم مملكتهم الى مملكة ليون وقشتالة حيث يملك الادفونش السادس ، غير ان نبارة بكاملها لم تنضم الى مملكة قشتالة وليون اذ ان بنبلونه اعترفت بسيادة الملك شانجه راميرس ملك ارغون ، والناحية الجنوبية من المملكة انضمّت الى الملك الادفونش السادس .

وبرز نجم غرسيه اردونيس بعد انضمام هذا القسم من مملكة نباره الى ليون وقشتالة ، فهذا الشاب لم يلعب اي دور هام على عهد الملك شانجه الثاني لأن رذريق السيد كسف نجمه - اما في عهد الملك الادفونش فقد اصبح قائد جيوشه ثم منحه لقب قند واقامه حاكماً على ناجره وزوّجه اوراكه احدى شقيقات ملك نباره المقتول ، إنه زواج سياسي آخر مثل زواج رذريق ، في منطقة جديدة انضمت حديثاً الى المملكة .

وهكذا تفوق غرسيه اردونيس على السيد واحتل المركز الاول في البلاط دون ان تكون له مؤهلات او مآثر تذكر مثل رذريق ، وطيلة حياته لم يلاق سوى الفشل في جميع اعماله كما سنرى .

* * * * * *

- ٣ -

اسبانيا والكرسي الرسولي

حاول الكرسي الرسولي الروماني في القرن الحادي عشر أن يبسط سلطته الروحية والزمنية على اسبانيا لأن هذه البلاد ، على عهد القوط ، اتخذت لها طقساً كنسياً يختلف عن الطقوس الكاثوليكية في بقية انحاء العالم ، ولم تكن علاقة القوط بروما على اشدها فحاول البابا الجالس على كرسي رومة سنة ١٠٥٩ م. مد سلطته ونفوذه الديني والمدني على الكنيسة

جمعاء حيثما كانت ، فراح يفتش في كتب الحق القانوني الكنسي عن حجج تدعم هذه النظرية . فالأدلة التاريخية تساعده على ادراك غرضه حتى تصبح جميع البلدان من اسبانيا الى بولندا الى روسيا خاضعة للكرسي الرسولي فيفرض سيادته على الملوك والامراء : سيادة حقيقية كاملة بالحرم الكنسي والخلع عن العرش والحملات العسكرية التأديبية .

والكنيسة في هذه الحقبة من الزمن تركت جانباً الحياة القشفة وعمدت الى نشر سلطانها المدني والزمني . وتغذى طموح الكنيسة في هذا القرن من شظافة وتقشف الملوك ، فالسلطة الدينية هي السائدة وقد استقاها الاحبار الاعظمون من كلمات السيد المسيح في الانجيل لما خاطب بطرس هامة الرسل وأقامه رئيساً للكنيسة المنظورة حين قال :

« يا بطرس انت الصخرة وعلى هذه الصخرة ابني بيعتي وقوات الجحيم لن تقوى عليها . واعطيك مفاتيح ملكوت السماء ، فمهما تحله على الارض يكن محلولاً في السماء ومما تربطه على الارض يكن مربوطاً في السماء » .

فتكون السلطة الدينية هذه اقوى واثبت من سلطة الملوك الزمنيين لأنها منبثقة عن مصدر الهي ، بينما السلطة المدنية اختراع من عمل البشر في العالم الوثني . فعلى جميع الامم المسيحية ان تتحد تحت ادارة وتوجيه الحبر الاعظم . انه طموح في توحيد اوروبا سياسياً تحت شعار التوحيد الروحي .

وهذه الفكرة لم تصدر عن بابا رومـــة وحده بل عن الامبراطورية الرومانية الجرمانية حليفة البابا ، انهم يسعون الى بعث امبراطورية القيصر وكارله سلطان الفرنجة ، فيخضع العالم اجمع لسلطان رومـــا وادارتها الرشيدة المقدسة .

وشاء الاحبار الاعظمون تنفيذ هذه الفكرة في اسبانيا عـــلى الصعيد الديني والسياسي .

رضخ شانجه رمرس ملك أرغون لرغبات البابا الاسكندر بترك الطقس القوطي بايماز من الكردينال هوغه كنده .

ووجد هذا الكردينال عنـد عودته إلى روما ان فوزه الديني مسألة ثانوية في نظر الكرسي الرسولي . فراجت اشاعات ان اسبانيا كانت تابعة لكرسي القديس بطرس ، وجند البابا اسكندر الثاني حملة عسكرية للاستيلاء على اسبانيا عنوة .

قاد هذه الحملة الضابط ابلس شقيق ملكة ارغون وشرع يعدّ العدّة لمهاجمة مملكة سرقصطة العربية . وفي هذه الأثناء مات البابا اسكندر الثاني .

ولما تمّ انتخاب البابا غريغوريوس السابع وجّه نداء الى جميع أمراء المسيحية يحرّضهم على الجهاد في اسبانيا مؤكداً لهم ان هذه البلاد كانت في الماضي تخصّ الكرسي الرسولي وما زالت تخصّه دون سواه رغم الاحتلال العربي . وكل مـــا يستولي عليه ابلس فانـه يستولي عليه باسم القديس بطرس ، والكردينال هوغه يمثّل إرادة البابا في شبه الجزيرة الأبرية .

لم يلاقِ هـــذا النداء التحبيذ المأمول من قِبَـــل الأمراء في فرنسا واسبانيا ، فالملك شانجـه رمرس رغم طاعته المطلقة لروما وتأديته الجزية لها (خمسمائة قطعة من الفضة في السنة) لم ينظر بعين الرضى الى احتلال البلاد لحساب الكرسي الرسولي .

وتجاه هـذا الفشل وبعد مضي أربع سنوات وجّه البابا غريغوريوس السابع نداءً آخر الى ملوك وأمراء اسبانيا جاء فيه :

« أريد أن أعلمكم أن اسبانيا ، حسب الدساتير القديمـة ، خاضعة لسيادة الكنيسة الرومانية المقدسة بالحق والتملك ، غير انـــه لم تطبّق هـذه الدساتير بسبب الاحتلال العربي وإهمال البابوات الذين سبقوني الى كرسي رومة . فليكن في علمكم أنتم الذين استرجعتم بلادكم من العدوّ أنه لا يجب أن تخسر الكنيسة هذه الحقوق بسكوتي ويجهلكم . فتبصروا في الأمر ملياً وضعوا نصب أعينكم خلاص نفوسكم وإيمانكم المسيحي » .

لم يقبل الادفونش السادس أن تصبح اسبانيا ملكاً للقديس بطرس .

وأول ما عمله أنه لم يدفع الجزية لروما كما يفعل ملك ارغون وغيره من الأمراء الأوروبيين . فعمد الى تسمية نفسه امبراطوراً كما فعل أبوه قبله وصار يوقّع المراسيم بهذا اللقب منذ سنة ١٠٧٧ م التي ظهرت فيها براءة البابا غريغوريوس السابع الآنفة الذكر فيستهل المرسوم بهذه الكلمات : « أنا الادفونش امبراطور اسبانيا جمعاء » . ونجد هذا اللقب والتسمية عند المؤرخين العرب الذين يقولون : « ان الادفونش هذا كان يستعمل لقب امبراطور ومعناه ملك الملوك » .

ولم يتوقف الاستياء الاسباني من مطامع البابا الروماني عند هذا الحد بل تعدّاه الى عامة الشعب . فالأغاني السائرة آنذاك تتحدّث عن تهديد البابا وامبراطور المانيا وملك فرنسا لاسبانيا بإرسال جيش صليبي ضدها . ونجد أيضاً في هذه الأغاني الشعبية أن رذريق السيد نصح الادفونش بعصيان البابا وأن استرداد اسبانيا من عمل الاسبانيين وحدهم وليس من الأجانب ، ويتحدّى رذريق البابا وامبراطور المانيا في هذه الأغاني الشائعة التي يترنم بها الشعب في ذلك العهد وتقول :

« يا بابا رومة ، لا نشكركم على خير صنعتموه معنا
« جئتم تطلبون الجزية السنوية .
« تعالوا خذوها اذا استطعتم من الملك فرننده
« يسلمها لكم في ساحات القتال » .

سكت مؤرخو ذلك العصر عن الحملة التي قام بها ابلس ضد اسبانيا وعن البراءة البابوية الموجّهة الى ملوك اسبانيا وأمرائها وذلك لأن الذين كتبوا التاريخ في هذا العصر هم من الاكليروس والرهبان ولم يهتموا بهذه القضية . ذكرها المغنون الشعبيون المتجولون في قصائدهم .

أما المؤرخون الرهبان فذكروا انه في سنتي ١٠٧٧ و ١٠٧٨ م أدخل الطقس الروماني الكنسي بعد مقاومة كبيرة في مملكتي ليون وقشتالة . وأن الملك الادفونش السادس صار يلقّب بأمبراطور .

بنو عبّاد

دخـــل الأندلس بعـــد الفتح رهط من بني لخم تفرّقوا في أقطارها وانحـاز منهم الى غربيها شقيقان نعيم وعطّاف نزلا في اشبيلية وتناسلا وتصدّرا للوجاهة في دولة الحكم المستنصر وابنه هشام وحاجبه المنصور. وقـد كان نشأ فيهم صدر بيتهم ومؤسس مجدهم اسماعيل بن عبّاد فقدمه المنصور على خطة القضاء فيهـــا وظـلّ حتى انقراض الدولة الأموية في قرطبة ، ونزل في عينه الماء ففقد بصره فلم يستجز الحكم بـــين الناس فولّى ولده أبا القاسم القضاء واقتصر على رئاسة البـــلد وتولى المشيخة وتوفي سنة ٤١٤ هـ .

جاء بعده ابنه ابو القاسم محمد بن اسماعيل بن عبّاد بن عمرو بن عطّاف الداخل مع بلج بن بشر ، فجرت له في تدبير الأحوال أمور شهيرة ودان له الناس وسلك سيرة أصحاب الممالك بالأندلس .

وعظم ملك ابن عبّاد وأكثر من الغارات الى أن أصيب ولده اسماعيل بأيدي بني زيرى المتغلبين على كورة البيرة في هزيمة ، وسنأتي على ذكر هؤلاء .

وكانت له وعليه وقعات شهيرة الى أن توفي القاضي أبو القاسم محمـد ابن اسماعيل بن عبّاد في سنة ٤٣٣ وولي الأمر بعده ولده أبو عمر عبّاد ابن محمد الملقب بالمعتضد فاستولى على غرب الأندلس كشلب ولبلة وجبل العيون .

لم يقصّر عبّاد هذا في دولته التي مهّدها فوق أطراف الأسنّة وصيّر أكثر شغله فيهـــا شب الحروب وكيد الملوك ، فابتنى القصور السامية واقتنى الغلمان واتخذ الرجال الذادة .

وعظمت القطيعة بينه وبين جاره المظفر بن الأفطس حتى عجز المظفر عن حربه ووقعت بينهما الهدنة بسعي الشيخ ابن جهور امير قرطبة .

ثم تفرّد المعتضد الى حرب الأمراء الباقـــين بالغرب فأتيح له الظفر بهم والاستيلاء على بلادهم .

ثم تملّك الجزيرة الخضراء وصرف جهـــده الى قرطبة ووجّه اليها عزمه ، فأتاه الحمام من دون ذلك ، وكان تملّكها مذخوراً لولده المعتمد الذي ولي الأمر بعده .

كان المعتمد شجاعاً مقداماً حسن السيرة رفيقاً بالرعية ، سمت بـــه همته الى تملّك قرطبة وولى عليها ابنه الحاجب عبّاد بن عبّاد .

واتصلت ايام المعتمد عـــلى الله ولهجت القصّاص بأخباره وأحاديث حظيته المسماة « اعتماد » والملقبة بالرميكية نسبة الى مولاها الذي اشتراها منه واسمه رميك . والمعتمد هذا كان يدفع الضريبة لأدفونش مثلما كان يدفعها أبوه المعتضد لوالد ادفونش الامبراطور فرننده .

دولة بني زيرى بن مناد الصنهاجي

ورد عـــلى الأندلس من رؤساء الصنهاجة وأبناء ملوكها في التخوم الافريقية والحدود القبلية زاوى بن زيرى وقومه . كان ليث الحروب ورجل دهاء وحزم وحصانة وصبر وإقدام ورأي . جـاز الى الاندلس عـلى أيام المنصور أبي عامر فتلقاه بكل برّ وترحيب بصحبة ابني أخيه حباسة وحبوس . فلما انشقت العصا ودالت دولة بني أميـة في قرطبة ذهبوا من الفساد في الارض الى غير نهاية وأوقع زاوى بن زيرى بجيش الخليفة المرتضي في غرناطة واستولى على محلاته .

ثم ثبّت حبوس قدمه بغرناطة سنة ٤١٤ هـ فبنى ملكاً شامخاً وغلب

نظراءه واستولى على كورتي جيان وقبره واتصلت ايامه الى أن هلك في رمضان سنة ٤٢٩ هـ وولي الأمر بعده ابنه باديس .

وكان أرفع ملوك البرابرة في ذلك الوقت شأناً وأشدهم سلطاناً وأكثرهم رجالاً . امتدّ سلطانه من أطراف كورتي بسطة وجيان الى مالقة واستجة وما تحت ذلك من اقليم قرطبة . أساء الانتقام ولم يقل العثرة وأخذ بالظنة وأسرف في العقوبة وقرّب اليه كاتبه الاسرائيلي ابن نغرالة وله معه أمور وأمور .

ولما توفي باديس بن حبوس اتفق خدّام دولته وأشياخ قبيلته على تقديم عبدالله بن بلقين فأخذوا له البيعة من الناس ولقّبوه بالمظفّر بالله وهو ما يزال طفلاً ، وانفرد بتربيته وتدبير ملكه الوزير سماجة الصنهاجي فاستقلّ بسياسته .

وطمع المعتمد بن عبّاد فيما بأيديهم فحشد الحشود ووصل الى غرناطة وابتنى على ستة فراسخ منها حصناً لتجميد رابطته فيه مضيّقاً على من بالمدينة ، فلم يفز برجوته لاضطلاع سماجة بالأمور . وكان هذا الوزير شديد السطوة مرهوب العقاب شجاعاً فاضلاً شدّد في منع اتخاذ الخمر وجعل بازاء ذلك القتل .

ولمّا بلغ عبدالله أشدّه أراد الاستبداد بحاله وضاق بسماجة فرحل عنه الى المرية ، وكان عبدالله المظفر مغتمد السيف متكاسلاً عن الخيل زاهداً في النساء موصوفاً بالضعف وكانت بينه وبين المعتمد بن عبّاد عداوة كما سنرى .

لمّا أعلن الادفونش نفسه امبراطوراً على جميع اسبانيا شاء إخضاع ملوك الطوائف ومن بينهم المعتمد بن عبّاد الذي كان والده المعتضد يدفع الجزية للملك فرننده الاول فانتقل هذا النفوذ على ملوك بني عبّاد من الوالد الى الولد .

كان يرسل الادفونش في كل سنة مندوباً الى اشبيلية لاستلام الجزية. فأرسل لهذا الغرض في سنة ١٠٧٩ رذريق السيد ، وفي الوقت نفسه قام بحملة عسكرية على مملكة بطليوس وطليطلة العربيتين دون أن يترك مجالاً للسيد كي يشترك بها ، انه يريده سفيراً لا جندياً .

وصل السيد الى اشبيلية في ظروف غير مؤاتية ، فالمعتمد على خصام مع جاره عبدالله المظفر أمير غرناطة . انها عداوة موروثة ، فبنو عبّاد في اشبيلية من أصل عربي كما رأينا جاء الى اسبانيا في أوائل الفتح بينما بنو زيرى لم يأتوا الى الاندلس الا على عهد المنصور أبي عامر أي حوالي ثلاثة أجيال بعد دخول العرب الى اسبانيا .

وزادت المنافسة بين هاتين المملكتين على عهد المعتمد من جهة وعبدالله المظفر من جهة أخرى ، منافسة دائمة بين اشبيلية وغرناطة منافسة بين العرب والبربر . ولمّا وصل عبدالله أمير غرناطة الى الحكم سنة ١٠٧٣ لم يكن له سوى مدينة غرناطة بينما المعتمد ملك اشبيلية يبسط نفوذه على مساحات شاسعة من الاراضي بعد ان احتلّ قرطبة سنة ١٠٧٠ م ومرسية سنة ١٠٧٨ م انه أقوى ملوك العرب في اسبانيا .

وكان المأمون ملك طليطلة قد أقنع عبدالله المظفر ليدفع الضريبة للامبراطور الادفونش . وعندما كان السيد في اشبيلية يستلم الضريبة من المعتمد كان في غرناطة أربعة أشراف من بينهم القند غرسية اردونس حضروا للغرض نفسه .

اعتقد هؤلاء انهم يخدمون مصالح الامبراطورية الاسبانية اذا غذّوا الخلاف بين ملوك الطوائف ، فشرعوا في إعداد حملة على اشبيلية بمساعدة عبدالله المظفر ملك غرناطة .

وعلى ما يظهر ان الادفونش السادس لا يرى بعين الرضى والارتياح المعتمد يوسّع رقعة مملكته على حساب جيرانه . وقع الهجوم من قبل الغرناطيين ورجال الادفونش وبينهم القند غرسيه على أراضي المعتمد .

فرأى السيد أن يكتب اليهم رسالة يطلب منهم العدول عن تنفيذ خطتهم في اجتياح الاراضي الاشبيلية .

وصلت الرسالة فهزأ منه القنـــد غرسيه اردونيس واستخفوا بالسيد نظراً لقلة عدد رجاله ولكثرة عدد رجالهم .

اجتاحوا أراضي المعتمد بن عبّاد واستسلموا الى السلب والنهب حتى وصلوا الى قلعة قبرة .

خرج السيد على رأس قوّة ضئيلة العدد مشكّلة من الفرسان الاسبان الذين يرافقونه ومن قوات الملك المعتمد ، ودارت معركة بـين الفريقين : البرابرة الغرناطيون وقوّات قشتالية بقيادة غرسيه اردونس من جهـــة ، وقوّات عربية اشبيلية واسبانية بقيادة رذريق من جهة أخرى .

وقعت الخسارة عـلى الغرناطيين والقند غرسيه الذي سقط في قبضة السيد مع الكثيرين من الفرسان .

احتفظ السيد بالأسرى ثلاثة أيام فقط ليبرهن على انتصاره ثم أطلق سراحهم ولم يسلمهم الغنائم التي استولى عليها منهم .

ثم رجـــع الى اشبيلية غانماً ظافراً فاستقبله المعتمد أحسن استقبال وسلّم له الضريبة مـــع هدايا نفيسة له شخصياً كمكافأة عـلى الانتصار الكبير الذي أحرزه . فشكره رذريق ورجع الى قشتالة مرفوع الرأس .

وصل الى برغش عاصمة الدولة القشتالية في شهر ايار سنة ١٠٨٠ م ، وكان قـد وصل اليها ايضاً القند غرسيه الذي لم ينس الإهانة التي لحقته من أسر السيد له في قبره CABRA . وحضر الاثنان مجمعاً تقرّر فيه اعتناق الطقس الروماني الكنسي . وحضر المجمع أيضاً القنـــد بطرس اشورس من قاريون ورذريق دياز شقيق شيمانه امرأة السيد .

ولكن الإهانة التي لحقت بالقند غرسيه لم ترق كثيراً للملك الادفونش

وان راقت للشعب الذي كان يحب السيد . ومن ناحية أخرى فان هذا الانتصار بقوّات ضئيلة على قوّات كثيرة العدد أيقظ الحسد في نفوس الكثيرين من البلاط على السيد فراحوا يفترون عليه عند الملك بكل ما سوّلت لهم نفوسهم من خساسة : اتهموا السيد بالخيانة ، وانه احتفظ لنفسه بحصة الأسد من الهدايا التي أرسلها الملك الاشبيلي المعتمد الى الامبراطور .

تنبّهت في نفس الملك الادفونش الضغائن التي كان يضمرها للسيد مما ساعد على تصديق الوشاية الملفقة من قبل اخصام رذريق وحسّاده ولكنه لم يتخذ أي إجراء ضد البطل القشتالي . غير ان ما سيأتي سوف يزيد الطين بلّة .

* * * * * * *

- ٥ -

طليطلة

طليطلة مدينة حصينة قديمة على ضفة نهر التاجه الكبير ولها قصبة حصينة في غاية المنعة ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان على قوس واحد والماء يدخل تحته بعنف وشدة جري ، ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً وهي تصعد الماء الى أعلى القنطرة ويجري الماء على ظهرها فيدخل المدينة .

ان المأمون يحيي بن ذي النون صاحب طليطلة بنى بها قصراً تأنّق في بنائه وأنفق فيه أموالاً كثيرة وصنع فيه بحيرة وبنى في وسطها قبة وسيق الماء الى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون . فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطاً بها متصلاً بعضه ببعض . فكانت القبة

في غلالة من ماء سكب بدون فتور ، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولو شاء ان يوقد فيها الشمع لفعل .

فبينما هو ذات يوم فيها إذ سمع منشداً ينشد :

« أتبني بنـاء الخالدين وإنمـا بقاؤك فيها لو علمت قليـل
لقد كان في ظل الاراك كفاية لمن كل يوم يعتريه رحيل »

وبالواقع لم يطل أجله بعـد ذلك فمات في قرطبة لإحدى عشرة ليلة من ذي القعدة سنة ٤٦٧ هـ ١٠٧٥ م .

وبويع لحفيده القادر بالله أثر بلوغ الخبر بموته .

سار الحفيد على خطى الجد الذي كان قبل وفاته قسّم وظائف الملك ، فجعـل الجند الى وزيره ابن الفرج ، وأمور الرعايا والمشورة والرأي الى ابن الحديدي ليبلغ كل مبلغ في شد أزره وتثبيت أمره بين أهل بلده . وكان ابن الحديدي قد أنقذ المأمون بن ذي النون من مكيدة دبّرها له أعداؤه داخل طليطلة وهو بعيـد عنها في بلنسية فأطلعه على مؤامرتهم فرجع الى طليطلة وقـد ضاق ذرعاً وكادت نفسه تذهب شعاعاً ، وأدار الحيلة عـلى مشيخة طليطلة حتى سجن اكثرهم في حصن أوبذة إحدى قلاعه المنيعة ولم يزالوا بها حتى شاب الشاب . فلم ينس المأمون هـذا الفضل لابن الحديدي فوضع في حياته ذمامه بيده واستخلفه بعـد وفاته على بلده وولده .

واستبشر الناس بمبايعة القادر فعلّقوا عليه الآمال الواسعة ، انهم ما زالوا يذكرون اعذاره الشهير .

قام الشاعر ابن السيد البطليوسي يمدحه بقصيدة يستهلها بالغزل مثلما كان يفعل شعراء المشرق العربي يقول فيها :

« ضمان على عينيك اني هائم تصدع قلبي حول وصلك حائم
فؤادك قاس ليس لي فيه رحمة ويوهم منك الحظ انـك راحم

ظلمت ولم ترهب مغبة ما جنت جفون لهـا في العاشقين ملاحم
اظن عقاب الله نالك في الهوى فخصرك مظلوم وردفـك ظالم
ولحظك مضنى ما يفيق من الضنى كما ضنيت فيـك الجسوم النواعم
وخـدّك بالألحاظ يجرح دائباً فكل له باللحظ مـدم وكالم
يقولون غصن البان ما حاز خصره ودعص النقا ما حاز منه المعالم
وفي طوقـه بدر الدجنة طالع تجلله قطع من الليـل فـاحم
وقالوا اللمى المحمر فص عقيقـه بمبسمه المعسول والثغر خـاتم
وما انت الا آية الله في الورى وحكمته ان قال بالعـلم عـالم
لقد بخسوك الحق جهلاً وأخطأت بما رجمت فيك الظنون الرواجم
كما بخسوا يحيى بن ذي النون حقه فقالوا ابن سعدى في النوال وحاتم
وقالوا حكى الضرغام في الروع بأسه وذلك مـا لا تدعيه الضراغم
وقالوا هو الدهر الذي ليس دونه حمى وهو المخدوم والدهر خادم
وانى لليث الغاب في الروع بأسه اذا صال في الهيجاء والنقع قاتم
ومن أين للسيف الحسام مضاؤه اذا انتضيت للحرب منه العزائم
لنا بارق من بشره ليس خلّبا اذا شامـه يوماً من الناس شائم
عليه من المأمون يحيى مشابه ترى ولاسماعيـل فيـه مباسم
همامان شادا بيت مجد له التقى أساس وأطراف الرمـاح دعائم
فدم عامراً للمجد تعنو لك العدى وتحسدنا فيـك النجوم النواجم »

ولنسمع هذا الشاعر ذاته يصف مجلس القادر بن ذي النون :

فمن ذلك انـه حضر مع القادر بالله بن ذي النون بمجلس الناعورة بطليطلة في المنية المتناهية البهاء والإشراق التي ينفح شذاها العطر ويكاد من الغضارة يمطر ، والقادر بالله قد التحف الوقار وحكّم العقار والمجلس يشرق كالشمس ، والزهر عبق والدولاب يئن كجريح ، والجو قد عنبرته أنواؤه والروض قد بللته أنداؤه والأسود قد ففرت أفواهها ومجت مياهها :

« يـا منظراً ان رمت بهجته اذكرني حسن جنة الخـلد
تربـة مسك وجـوّ عنبر وغيم نـد وطش مـا ورد

والماء كاللازورد قد نظمت فيه اللآلي فواغر الأسد
كأنما جائل الحباب به يلعب في حافتيه بالنرد
تراه يزهي اذا يحل به آل قادر زهو الكعاب بالعقد
تخاله إن بدا به قمراً كما بدا في مطالع السعد
كأنما ألبست حدائقه ما حاز من شيمة ومن مجد
كأنما جادها فروضها بوابل من يمينه رغد
لا زال في عزة مضاعفة ميمّم الرفد وارى الزند »

واجتمع حول القادر قوم من أخصام ابن الحديدي يغرونه به مخوفينه من غوائل ختله وأن سلطانه لا يتم إلا بعد الفراغ من قتله . وكان أسيره أبو سعيد بن الفرج ينهاه عن اخفار الذمم فلم ينته وركب هواه وخالف ناصحه وجرّد قطعة من جنده وأمرها باستقبال تابوت جدّه المحمول من قرطبة وأنهى اليهم سراً قتل ابن الحديدي وقال لهم : « إذا لقيتموه فكونوا حوله وعظّموا قوله فإذا ما وجدتموه على غفلة فاقتلوه كيف أمكن » .

ونما الخبر الى ابن الحديدي القادم من قرطبة يحثّان المأمون ، فكفر بطاغوتهم ونكب الى بعض الضياع من شيعته وأتباعه ، فاضطرمت الصدور .

ثم وافى البلد ليلاً وقد استوحش من أنسه وأصبح في المدينة خائفاً يترقب . فركب الى ابن ذي النون ذات يوم ، وقد أخذ حذره وملأ الغوغاء أفنية القصر . فحين ارتفعت الاصوات وغصّت بهم العرصات ، انصاع ابن ذي النون فأمر ابن الحديدي بالخروج فخرج والدولة متعلقة بأذياله وطبقات أعيانها عن يمينه وشماله والعامة بين يديه ومن خلفه يتمسحون بآثاره وهو يشكر صنيعهم .

وكان عندما أذكى عيونه وبث الأرصاد أوقع التهمة على شيخين من شيوخ الخدمة يدعيان مؤملاً وابن صروم ، فأغرى العامة باستئصالهما وتحبب اليهم بنهب أموالهما ، فكانا عنوان الفتنة .

ونصح له ابنه يومئذ بالفراغ من شيعة ابن ذي النون فلم يسمع النصح ولو فعل لنجت طليطلة البائسة .

وزين هذا الحزب الذي لم يقض عليه ابن الحديدي ، للقادر أنـه لا يدرك مأربه من التخلص من ابن الحديدي إلا باطلاق سراح تلك الطائفة المسجونة في حصن أوبـذه المحترقة أكبادهم بنيران دمهم وأحقادهم داء دفين وشر مضمون . وسوّلوا له أنـه اذا فـكّ أغلالهم ووصل بحبل الحياة حالهم غسل جوانحهم ، وتآلف ناصحهم .

أمر باطلاق سراحهم وأدخلهم البلد سراً من بعض مداخله الخفية وقد سترهم باللثم وأوهم أنهم بعض الحرم حتى وصلوا اليه ومثلوا بـين يديه ، وذلك اليوم يوم الجمعة لعشر خلت لمحرم سنة ثمـان وستين واربعمائة هـ ١٠٧٦ م .

وكان الذي مالأ ابن ذي النون على ذلك وسهّل له تلك المناهـج الخبيثة الفقيـه ابن المشاط متولي القضاء ، كان يومئذ في قونكه . وكان أبو بكر بن الحديدي يألفه ويسكن اليه قديماً ، فاستدرجه الى مصرعه حتى جرعه رداه .

ودخل ابن الحديدي يومئذ القصر وابن المشاط يستدرجه الى حتفه .

فلمـا أفضى الى مجلس ابن ذي النون ، رأى وجوهاً غريبة وأيقن بالشر ، لا خلاص ولات حـين مناص ، فجاذبهم أطراف الخصام . فقام ابن ذي النون من موضعه وابن الحديدي متعلق بأذياله يستجيره ، فلم يغنه ذلك فشغبوا عليه وتمكنوا منه وأحاطوا به حتى قتلوه .

ولمـا أحسّت العامة بقتله وأخذت سلاحها من أجـله ، ثار أولئك المخرجون في وجوههم فأخذ كل واحد منهم بطرف من الطريق وتشاغلوا بنهب دور بني الحديدي حين عجزوا عن نصرته .

وظن ابن ذي النون انه هتك أستار الخطوب وأن الجو خلا له بموت

ابن الحديدي ، لقد هتك ولكن حجاب قلبه ، واذا بتلك الجماعة ، لما فرغوا من ابن الحديدي رجعوا على حفيد المأمون ، وكان الشر سبباً فأصبح أ بابا والناس حزبا فتفرّقوا أحزابا ، والبلية ترافق البلية ، فانتبذ ابن عبد العزيز ببلنسية وخلع يده من طاعة القادر وقد كان يدفع له الجزية .

وفخر الادفونش السادس فمه على ثغور طليطلة فجعل يطويها طي الرداء ، وابن ذي النون يلقمه أفلاذ كبده والادفونش يطالبه بردّ الأمس .

ولما استوثق أمر تلك الطائفة التي أخرجها من الاعتقال في حصن أوبذه ثارت عليه فطار به الذعر ففرّ من القصر وأن زوجته وابنته منها تبعتاه يومئذ راجلتين نيفا على فرسخين حتى أدركتا بمركوب .

واجتمع مشيخة طليطلة بفناء القصر مرتبكين بين اللجاج والذعر ، عامتهم تتطاول بزعمها اليه وخاصتهم تتخيّل المثول بين يديه وهم يظنونه بحيث يرى ويسمع فوجدوه قد خرج في بعض تلك المخارج الخفية ، فاستأسدت كلابهم لأكل لحم ليس له ناصر .

وتلاحق بابن ذي النون بقية سربه بحصن من حصونه في قونكه . وأقام أهل طليطلة بعده أياماً كالسائمة المهملة نام راعيها ليس عليهم أمير ولا فهيم الى الصواب مشير . وتشاوروا في ملوك الطوائف يحكمونه عليهم .

وكان عندهم يومئذ أبو محمد يوسف القلاس البطليوسي أحد عفاريت الضلال أجرأ خلق الله على سفك الدماء فعرض عليهم صاحبه المتوكل عمر بن المظفر بن الافطس ، فأتاه سفيرهم فدخل طليطلة عقب سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة وأقام عندهم نحواً من عشرة أشهر يسدّد أمورها ، أضلّ من يد في رحم وأذلّ من لحم على وضم .

وكان ابن ذي النون حين هرب من طليطلة تهيّأ له دخول قونكة فثاب اليه حسه وراسل الادفونش الذي كان ينتهز الفرصة ويسمع القصة

فذكره القادر بالله سالف عهده أيام كان مخمولاً بتغلب أخيه شانجه الثاني عليه فآواه المأمون ابن ذي النون ونصره .

لبّى الادفونش دعواه وسمع شكواه فأقبل معه الى طليطلة والمتوكل ابن الافطس بهـــا طليح جفان وطريح أكواب ودنان ، وأهـل طليطلة المتحنون في غمرتهم ساهون وعلى أعقابهم ينكصون ويخرّبون بيوتهم بأيديهم .

فلما شبع المتوكل تذكّر عواقب الطمع فكايدهم بفراره الى بطليوس ينشد :

« إن الله يرجعني من الغزو لا أرى وإن قلّ مالي طالباً ما ورائيا »

وحصل من ذخيرة ابن ذي النون وماله ما عثر عليه وتركهم كالسفينة خانتها الريح ، بـــين ناب الادفونش وظفره يقدح لهم نار الفتنة ويريهم الموت في أهول صوره ، مقسماً لا يبرح طليطلة حتى يفي لابن ذي النون بضمانه ويكافئه على سالف الإحسان من جدّه . وكان عاقده ابن ذي النون انه ، إذا أماط أذاها ، خلّى بينه وبينها . هذا ما أضمر ، فأما الذي أظهر فانه وعده اداء جملة من المال .

وكم رام أهل طليطلة قتل القادر بعدما شاهدوه يدعو لأدفونش ويمشي بين يديه ويمالئه ويطلب نصرته عليهم هم أبناء جلدته ورعاياه .

فلما كان يوم النحر سنة أربع وسبعين وأربعمائة هـ زحفوا الى الادفونش يشكون ابن ذي النون ويستصرخونه عليه فرماهم بحجر فتفرّقـوا بكل سبيل ، حتى مات ابن مغيث كبيرهم . ورجع بنوه فنزلوا بمدينة بجريط فكانت بـين ابن ذي النون وبينهم وقائع باد فيها جمهورهم وبلغ ابن ذي النون من هدم ربوعهم وصلبهم على جذوع الأشجار ما يبرّد صدر الموتور .

وأخذ ابن ذي النون حين استقرّ في طليطلة يعمل على أداء ما ضمن لأدفونش من الأموال فضرب مدبّرهم بمقبلهم وأصبح الرجـل منهم يرتاع

من ظله ويلتفت وإنما هو بين أهله ، والادفونش هجم على مملكة طليطلة يتنسف مرافقها يأسر ويقتل ويحرق ويمثّل وبلغت القلوب الحناجر .

وكان من غريب ما اتفق ان البُر كان يمكث عندهم أكثر من خمسين سنة ولا يؤثر فيه طول القدم ولم يرفع مدة الفتنة من البيادر على تعذّر بدره ، إلا وقد بدا البلى عليه .

ولما شمل البلاء وقضى الادفونش قضاءه من استباحة الحريم وإتلاف الموجود أسرى تحت الليل فنزل المنية المسوّرة التي كان المأمون يحشد اليها كل حسن ويباهي بها جنة عدن ، فاتخذها مربضاً لأفراسه . وهجم الشتاء فمنعه من مسيرة تأتيه فأقام نيّفاً على شهرين لا يسيغ الشراب ، ليس له شوكة إلا ظلّ لوائه ، ولولا حماقة ملوك الطوائف باصغائهم الى شقاشقه لطار شعاعاً وذهب ضياعاً .

وفي هذه الاثناء كان العرب المناوؤن للقادر اغتنموا فرصة تغيّب الملك الادفونش السادس عن قشتالة فهاجموا قلعة شانتاستبان وساقوا منها غنائم عظيمة انتقاماً من الادفونش لمساعدته القادر عدوّهم .

والسيد كان مريضاً في قشتالة ، فلما سمع بهذا النبأ جمع فرسانه ووزّع عليهم السلاح ودخل في مملكة طليطلة فخرّب الأراضي في حملة تأديبية ورجع بأكثر من سبعة آلاف أسير من رجال ونساء وغنم من هذه الغارة أضعاف ما غنمه العرب .

واستاء أصحاب البلاط القشتالي من هذا الانتصار الذي أحرزه رذريق فأوغروا صدر الملك الادفونش من جديد عليه قائلين : « انظر الى سوء نيّة السيد وبشاعة مقصده ، انه يعرّضك مع جميع الذين يحاربون الى جانبك للموت على يد العرب الذين يطلبون الثأر لضحاياهم من كل من هو اسباني » .

وصدّق الادفونش هذه المرة أقوالهم لأنه وجدها معقولة وتبيّن

خطورة موقفه وموقف الذين معه فبادر الى تهدئة نفوس العرب المناصرين للقادر وقد ناالهم البلاء أيضاً من رذريق ، ووعدهم بمعاقبة الفاعل العقاب الذي يستحقه لأنه كان عليه أن يميّز بين الصديق والعدوّ .

وبالواقع فإن رذريق في سلبه ونهبه لم يميّز بين فئة دون أخرى ولم يحرق قرية عدوّة ويعف عن قرية صديقة بل عامل جميع القرى العربية على السواء .

فلما نأى الشتاء سال بأهل طليطلة سيل لا يقوم له سهل ولا وعر ، واضطرّ من أخطأته الحوادث الى مداخلة الادفونش ، فشرعوا في ذلك غير مظهرين للاستسلام طمعاً في أن يغروه ولو باغلاء سوم ، فأبى الادفونش الا عرصة الدار .

فخرج من أعيانهم جملة الى مضربه في بعض تلك الايام وقد ضاق المجال وأقبلت الحتوف تختال فقام الحاجب دونه وقال : هو نائم فكيف توقظوه ؟ فعدلوا الى مضرب ششنند وزير البرتغال ، رجل يتوقّد جمرة ذكاء ، فأدخل على الادفونش يومئذ منهم جماعة فوجدوه يمسح الكرى من عينيه ، ثم أقبل عليهم بوجه كريه ولحظ لايشكّون أن الشر فيه وقال لهم : « الى متى تتخادعون وبأي شيء تطمعون » ؟ قالوا : « لنا بغية ولنا في فلان وفلان أمنية » .

وسمّوا له بعض ملوك الطوائف ، فصفّق بيديه وتهافت حتى فحّص برجليه ثم قال : « أين رسل ابن عبّاد ؟ »

فجيء بهم يرفلون في ثياب الختاعة وينبسون بألسنة السمع والطاعة . فقال لهم : « منذ كم تحومون عليّ وترومون الوصول إليّ ؟ ومتى عهدكم بفلان وأين ما جئتم به ؟ »

فجاءوا بجملة ميرة . ثم ما زاد على أن ركل كل ذلك برجليه وأمر بانتهابه كله . ولم يبقَ ملك من ملوك الطوائف الا أحضر يومئذ رسله ،

وكانت حاله حال من كان قبله . وجعل أعوان الملك الادفونش يدفعون في ظهورهم وأهـــل طليطلة يعجبون من ذلّ مقامهم ومصيرهم . فخرج مشيختها من عنده وقد سقط في أيديهم وخلوا بينه وبين البلد لثلاثة أيام من ذلك المشهد ودخلت طليطلة في حكمه .

وخرج ابن ذي النون خائباً والارض تضجّ من مقامه وتصرخ طالبة الانتقام منه ، واستقرّ بمحلة الادفونش مخفور الذمة ذليـل الحرمـة ليس دونه باب ولا دون حرمه ستر ولا حجاب .

وكان بيده اسطرلاب يرصد فيه أي وقت يرحل وقد أطاف بـه الاسبان والعرب ، أولئك يضحكون من فعله وهؤلاء يتعجبون من جهله . وعتا الادفونش لحين استقراره بطليطلة واستكبر واستبدّ بملوك الطوائف وتجنّى ورأى أنهم قد دخلوا بأجمعهم تحت عصاه .

وولى ششنند المذكور تدبير طليطلة فهوّن عليهم الرزية بمـا أراهم من سهولة مرامه وبسط فيهم من عدل أحكامه حتى استمال قلوب أعلامها .

وقـد كان من رأي ششنند الإبقاء على أهل طليطلة فقال لأدفونش : « لست تجد بمن تعمرها ولا تظفر بعامل أطوع من ابن ذي النون » .

فأبى الادفونش الا لجاجاً في سفهه وانحطاطاً في جبل شرهه . فلما تهيأ له ملكها قال له ششنند : « اخفض جناحك لأهلها ولا تلج على ملوك الجزيرة فلست تستغني عنهم ولا تجـد عمالاً أطوع منهم فانك ان أبيت الا اللحاح عليهم والتسرّع بالمكروه اليهم أحوجتهم الى مداخلة سواك » .

فخالف الادفونش هـــذا القول وشرع لوقته في تغيير الجامع بها . فقال له ششنند : « انك ان فعلت أوغرت الصدور » .

فشمخ الادفونش بأنفه وأمر بتغيير المسجـــد الجامع في ربيع الأول سنة ثمان وتسعين واربعمائة هـ .

وأشاروا على الادفونش بلبس التاج وزيّنوا له زي من سلف بالجزيرة قبل فتح العرب اياها فقال : « لا ، حتى أطأ ذروة الملك وآخذ قرطبتهم » .

وكان أعدّ لمسجدها الجامع ناقوساً تأنق في إبداعه .

فراح الشعراء العرب يرثون طليطلة فقال احدهم :

« يا أهـل أندلس شدّوا رحالكم فما المقام بهـا إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منثوراً من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيّات في سفط »

وقال آخر هذه القصيدة المشهورة :

« لثكلك كيـف تبتسم الثغور سروراً بعدمـا بئست ثغور
أما وأبي مصاب هـد منه ثبير الدين فاتصل الثبـور
لقد قصمت ظهور حين قالوا أمـير الكافرين له ظهـور
ترى في الدهـر مسروراً بعيش مضى عنـا لطيتـه السرور
أليس بهـا أبي النفس شهم يـدير على الدوائر إذ تـدور ؟
لقـد خضعت رقاب كن غلباً وزال عتوّها ومضى النفـور
وهان على عزيز القـوم ذل وسامح في الحريم فتى غيـور
طليطلة أباح الكفر منهـا حماهـا ان ذا نبأ كبـير
فليس مثالها ايوان كسرى ولا منها الخورنـق والسدير
محصنـة محسنـة بعيـد تناولهـا ومطلبهـا عسير
وكانت دار إيمان وعـلم معالمهـا التي طمست تنـير
فعادت دار كفر مصطفـاة قـد اضطربت بأهليها الأمور
مساجدهـا كنائس أي قلب على هـذا يقـرّ ولا يطـير ؟
فيـا أسفاه يا أسفـاه حزناً يكرّر مـا تكررت الدهور
خذوا ثأر الديانـة وانصروها فقـد حامت على القتلى النسور
ولا تهنـوا وساوا كل عصب تهـاب مضارباً عنـه النحور
وموتوا كلكم فالموت أولـى بكم من أن تجاروا أو تجوروا

أصبراً بعد سبي وامتحان يلام عليهما القلب الصبور ؟
نخور اذا دهينا بالرزايا وليس بمعجب بقر يخور
لقد ساءت بنا الاخبار حق أمات المخبرين بها الخبير
أتتنا الكتب فيها كل شر وبشّرنا بأنحسنا البشير
وقيل تجمّعوا لفراق شمل طليطلة تملّكها الكفور
لقد صمّ السميع فلم يعول على نبأ كما عمي البصير
تجاذبنا الأعادي باصطناع فينجذب المخول والفقير
فباق في الديانة تحت خزي تثبطه الشويهة والبعير
وآخر مارق هانت عليه مصائب دينه فله السعير
أنترك دورنا ونفرّ عنها وليس لنا وراء البحر دور ؟
ولا ثم الضياع تروق حسناً نباكرها فيعجبنا البكور
وظل وارف وخرير ماء فلا قر هناك ولا حرور
ويؤكل من فواكهها طري ويشرب من جداولها نمير
لقد ذهب اليقين فلا يقين وغرّ القوم بالله الغرور
فلا دين ولا دنيا ولكن غرور بالمعيشة ما غرور
مضى الإسلام فابكِ دماً عليه فما ينفي الجوى الدمع الغزير
ونح واندب رفاقاً في فلاة حيارى لا تحط ولا تسير
ولا تجنح الى سلم وحارب عسى أن يجبر العظم الكسير
ولو أنّا ثبتنا كان خيراً ولكن ما لنا كرم وخير
اذا ما لم يكن صبر جميل فليس بنافع عدد كبير
الا رجل له رأي أصيل به مما نحاذر نستجير
يكر إذا السيوف تناولته وأين بنا إذا ولّت كرور
عظيم أن يكون الناس طرا بأندلس قتيل أو أسير
تنغصت الحياة فلا حياة وودع جيرة إذ لا مجير
قليل فيه همّ مستكين ويوم فيه شر مستطير
ونرجو أن يتيح الله نصراً عليهم انه نعم النصير »

******

القسم الرابع

المنفـــى

- ١ -

وجمع السيد أخصاءه وتلا عليهم الرسالة التي وجّهها اليه الملك الادفونش السادس يدعوه فيها الى مغادرة الأراضي الاسبانية في مدة لا تزيـد عن تسعة أيام ، وشاء معرفة أسماء الذين يرغبون في مرافقته الى بلاد الغربة فخاطبهم قائلاً :

« من أراد مرافقتي فليجازه الله عني خيراً ، ومن يفضّل البقاء أودّعه كصديق » . فأجابه ابن عمه البرهانيس : « نحن معك ما بقيت فينا بقية من روح تختلج ، أخلصنا لك بالأمس ونخلص لك اليوم وغداً وبعده الى ما شاء الله » .

ووافق الجميع على كلام البرهانيس ، وشكرهم رذريـق السيد جميعاً ، وخرج في الحال من فيفر (VIVAR) قريته في اتجـاه برغش وتركت منازلهم قفراً ، أبوابها مفتوحة على مصراعيها .

ووصل الى برغش برفقة ستين رجلاً ، فخرج النساء والصبيان والرجال للتفرّج عليهم وأطلّوا برؤوسهم من نوافذ البيوت وفي عيونهم الدمع وعلى شفاههم الكلمة : « ما أحسنه من خادم مخلص لو كان له سيّد قدير » .

وتمنّوا لو قدروا على تقديم مـا يحتاج اليه السيد ولكن خوفهم من انتقـام الملك الذي بعث رسله منذراً بأقصى العقوبات كل من سوّلت له نفسه إيواء السيد أو تقـديم الطعام له ، يخسر أملاكه وتنزع عيناه من وجهه وروحه من جسده . فحزن الجميع حزناً لا مزيد عليه وفرّوا من أمام السيد دون أن يأووا على أداء كلمة .

فتوجّه الى الفندق الذي اعتاد النزول فيه عند قدومـــه الى برغش فوجد الابواب موصدة في وجهه تنفيذاً لأوامر الملك فيفضّل اصحابها ان يخلعها على ان يفتحوها له . فصار رجال السيد يصرخون ولا يجيبهم احد من الداخل ، ورفس السيد الباب برجليه فصمد لأنه كان محكم الإغلاق .

وبينما هم على هذه الحال اقتربت طفلة لا يزيد عمرها على تسع سنوات وقالت : « ايها السيد المولود في يوم سعيد ، اعلم ان الملك حرّم علينا ايواءك وقـد وصلت أوامره ليـلة أمس مشدّدة ، صارمة ، فمهما عظمت محبتنا لك لا نفتح لـك الابواب لأننا نخسر بيوتنا وأملاكنا وعيوننا . انك لا تربح شيئاً من شرّ يداهمنا . تابع طريقك والله يوفقك ويرعاك » .

ثم دخلت الطفـلة الى بيتها وابتعد السيد عن الباب وسار في برغش حتى وصل الى كنيسة القديسة مريم فترجّل عن جواده وأخذ يصلّي . وعند انتهاء صلاته للعذراء امتطى صهوة جواده وخرج من المدينة ونصب خيامه في ضواحيها .

وانضمّ اليه عدد كبير من الذين يرغبون ان يقرنوا مصيرهم بمصيره ، وحار في اطعامهم فلم يقوَ على نيل اليسير من اللحم .

وافاه احد أشراف برغش واسمه مرتين انطولينس ، بأحمال من المآكل والمشرب ، لم يعصَ أوامر الملك إذ لم يشترِ هذه المآكل انها من خيرات املاكه ومواسمه ، فسرّ السيد بها كل السرور وقال له مرتين :

« ايها القنبطور ، لنسترح هنا هذه الليلة ونرحل غداً في الصباح ، فأنا

لا آمن من الوشاية بي لدى الملك فيطاردني غضبه وسخطه لتصرّفي معك هذا التصرّف ، فاذا قدّر لي ان أنجو بنفسي بصحبتك فالملك يرضى عني آجلاً أم عاجلاً » .

فقال رذريق : « مرتين ، ايها الفارس الذي لا مثيل له ، إذا اعطاني الله عمراً طويلاً ضاعفت لك حسن صنيعك ، انفقت كل مـا عندي من ذهب وفضة ولست احمل مالاً كما ترى لأنفق منه على صحبي . ولا بدّ من الحصول عليه بالقوّة او بالحيلة لأنني لم أنله باللين . نبني فلكين ونملأهما بالرمل ضمن اكياس من الجلد مزخرفة ومساميرها مذهبة ، ثم تقصد منزل راحيل وبيداس اليهوديين وتقول لهما : جئت من قبل السيد وهو يقريكما السلام ، ولا يقوى على نقل أمواله كلها لأنها ثقيلة الوزن ، فيفضّل رهنها عندكما بثمن لا يكون فيـه مغبوناً . ثم تحمل لهما الفلكين متستراً برداء الليل فلا يراهما احد . الله يرى ويحكم ويعلم اضطراري الى سلوك هـذا السبيل إذ لا وسيلة أخرى غير هذه للحصول على المال الضروري » .

فتوجّه مرتين مسرعاً الى برغش ودخل حي اليهود مفتشاً عن راحيل وبيداس فوجدهما جالسين ينظران في حساباتهما وارباحهما فحياهما قائلاً : السلام عـلى الصديقين الكريمين راحيل وبيداس ، ارغب في الكلام معكما على حدة .

ولما صار الثلاثة في خلوة قال لهما مرتين : عاهداني انكما لا تفشيان سرّي لأحد من العرب او الاسبان ، ستصبحان غنيين الى الابد فـلا تحتاجان بعد اليوم الى العمل .

وعاهداه على كتم السر .

لا شك تعلمان بأن السيد له أموال طائـلة وخيرات كثيرة لا تفنيها النيران ومن بعض مـا له فلكان محشوّان بالذهب الناعم ، وتعلمان ايضاً ان الملك نقم عليه ونفاه من ارضه ولا يقوى على حمل امواله كلها معه

مخافة ان ينكشف امره فهو يحب ايداعها عندكما وتقرضاه لقاء ذلك كمية من المال معقولة على شرط ان لا تلمسا الفلكين طيلة سنة .

فشرع راحيل وبيداس يفكران : المهم ان نربح ، ان القنبطور جمع ثروة عظيمة لما كان بين العرب ، ومن كان له مثل هذه الثروة لا ينام مطمئن البال . فلنأخذ هذين الفلكين ولنحتفظ بهما في مكان خفي عن العيون .

– كم يطلب القنبطور لقاء هذا الرهن ؟

– فأجاب مرتين : السيد يقنع بالقليل ، ستمائة دينار كافية لسدّ نفقات السفر .

– نقدّم له هذه القيمة بكل طيبة خاطر .

– ادركنا الليل ، والسيد ينوي الرحيل ونحن بحاجة الى هذا المال سريعاً .

– المعاملات لا تكون على هذه الطريقة . اولاً نستلم ثم ندفع .

– اتفقنا . هلما بنا الى السيد ونحن نساعدكما على حمل الفلكين الى مكان امين .

– احسنت وعندما يصير الفلكان في حوزتنا تقبض ستمائة دينار .

بلغ الثلاثة الى خيمة السيد فدخل راحيل وبيداس وقبّلا يده فابتسم لهما وقال :

– السلام عليكما يا راحيل ويا بيداس ، سوف تذكراني ما دمتما في قيد الحياة . استفادتكما مني تغنيكما عن العمل حتى آخر ايامكما .

فقبّلا يده من جديد ، وتمت الصفقة بين الطرفين ، يتعهدان بأن لا يمسا المال طيلة سنة ويدفعان ستمائة دينار للسيد .

فقال لهما مرتين انطوليئس : ارافقكما لتدفعا لي المـال لأن القنبطور سيرحل عند صياح الديك .

فقبّل راحيل يد السيد قائلاً : ايها القنبطور يا خير من جرّد سيفاً ، سترحل عن قشتالة لتعيش بـــين قوم غرباء ، هذا هو مصيرك ، النجاح يحالفك وتكثر اموالك ، أقبّل يدك وأرجوك ان تبعث لي جـلداً احمر عربياً جميلاً .

ـ لك مـا طلبت ، واذا لم أوفّق الى ان آتيك به فاحسم قيمته من الفلكين .

حمل راحيل وبيداس الفلكين ودخـلا برغش بصحبة مرتين في ظلام الليل ودخـــلا منزلهما ومدّا في القاعة بساطاً وفرشا عليه غطاء ابيض رقيقاً وعـدّ عليه مرتين ثلاثمائة دينار من الفضة دون ان يزنها والدنانير الباقية دفعت له من الذهب .

ولما أخذها مرتين جميعها قال لهما : ألا استحق منكما هدية او مكافأة ؟

فانفردا عنه ودار بينهما حديث : انه يستحق مكافأة على هذه الصفقة التي خرجنا منها رابحين ، لنقدّم له ثلاثين ديناراً .

فقبلها مرتين شاكراً وودّعهما وخرج من عندهما ووصل الى خيمـــة السيد فاستقبله باسطاً له ذراعيه :

ـ انت اخلص الاصدقاء يا مرتين جزاك الله عني خيراً .

ـ ربحك ايهـا القنبطور ستمائة دينار وربحي ثلاثون ديناراً فمر بشد الرحال على جناح السرعة فندرك عند صياح الديك دير القديس بطرس القرديني حيث نجد امرأتك الشريفة الفاضلة ، ونقصر الإقامة هناك ونترك هذه البلاد لأن المهلة المعطاة قد قاربت الانتهاء .

فرفعوا الخيام وطارت بهم خيولهم كأنها العقبان .

وبسط السيد ذراعيه نحـــو كنيسة القديسة مريم وقال : « سبحانه وتعالى سيّد السماء والأرض ، ومباركة مريم العذراء القديسة . حامي عني ، أبعدني غضب الملك عن قشتالة ولا أعلم إذا كنت سأعود اليها أم لا . لا تهمليني ايتهـا العذراء لا في الليل ولا في النهار ، فاذا بسم لي الحظ وكثرت مغانمي قدّمت على مذبحك أفضل الهدايا والتحف وجعلت أن يقام ألف قداس في هذه الكنيسة المخصصة على اسمك .

وودّعهم مرتين والألم يحزّ في فؤاده وقال :

أنا عائـــد إلى برغش لتوديع امرأتي ، ولا أعبأ إذا نزع الملك مني أملاكي وبيوتي فقبل طلوع الصباح ألحق بكم .

وتوجّـــه الى برغش وتوجّه رذريـــق الى دير القديس بطرس القرديني برفقة فرسانه المخلصين له .

وصل الى الدير المذكور عند صياح الديك فألفى الرهبان في صلاة الفجر . وهرع رئيس الدير الى استقباله بفرح ظاهر قائلاً : الحمد لله على وصولك انزل عليّ ضيفاً .

ـ شكراً أبت الرئيس ، اننا نحسن إعداد الطعام ، اليك بهذه الصرة وفيها خمسون ديناراً وسأضاعف لك العدد ان شاء الله ، لكي تتمكن من الإنفاق على زوجتي شيمانه طيلة هذه السنة ، وهـــذه مائة دينار أخرى لانفاقها على اولادنا والحاشية . حافظوا على هاتين الطفلتين وارعوهما بين عنايتكم ، وإذا نفـد المال قدّموا لهم كل مـا يحتاجون وكل دينار ينفق عليهم أردّه لكم أربعة دنانير .

فجثت شيمانه أمـام القنبطور والدموع تترقرق في مقلتيها وفي صوتها تضرع وفي صوتها شكوى وفي صوتها تصبّر :

ايهـــا القنبطور أقصتك عني ألسنة النمامين والحسّاد . أصغ إليّ أنا امرأتك ، فرقتك وشيكة فقل لي بحق القديسة مريم ماذا يجب ان نصنع ؟

فأخذ السيد طفلتيه بـــين ذراعيه وتسارعت الدمعات متساقطة على لحيته وقال متنهداً : « شيمانه زوجتي الفاضلة ، أحبك كنفسي وعن قريب أنفصل عنك ، أنا أرحـل وأنت تبقين الى جانب طفلتينا ، شاء الله ان يمدّ بآجالي حتى ازوجهما افضل زواج ، وليعطني الله القوة حتى اخدمك بجميع قدرتي ايتها المرأة الشريفة الطاهرة .

وهيّأوا الزاد الكثير للسيد ورجاله ، وأخـذت أجراس الدير تقرع بشدة كأنها تعلن سخطها على الأقدار التي قضت بإبعاد السيد عن أهـله وولده وأوطانه .

وأبصر السيد فرساناً عديدين يقتربون من الدير فتبينهم فاذا به يرى على رأسهم مرتـين انطوليس فعدّهم فاذا هم مائة وخمسة عشر فارساً ، فسرّ كل السرور لأنه بقدر مـــا تزداد قوّاته بقدر ما تزداد آماله في الحصول على الثروات والمكاسب ، فخرج لاستقبالهم وتبسم عن ارتيـــاح وتقدّم جميعهم وقبّلوا يده دلالة على الخضوع لأوامره .

فخاطبهم القنبطور بقوله : ان الله القادر على منح الخيرات ، يعوّض عليكم أضعاف الأضعاف مما تركتموه لأجلي .

وانقضت ستة أيام من المهلة المعطاة ولم يبق سوى ثلاثة فجمع القنبطور رجاله وقال لهم : اسمعوا ايهـــا الرجال ولا يحزنكم قولي . المال معي قليـــل ، ولكن كل منكم سينال حصته من الغنائم . عند صياح الديك تسرجون خيولكم ثم نسمع القداس الإلهي ونجدّ في السير .

فتمّ كما شاء ، وطيلة الذبيحة الالهية كانت شيمانه جاثية أمـــام المذبح طالبة من الله لكي يوفّق زوجها وينقذه من كل أذى :

« أيها الباري تعالى ، خالق السماوات والارض والبحر والنجوم والقمر والشمس التي ترسل لنا حرارتها ! يا من تجسّد في أحشاء أمـــه العذراء وولد في بيت لحم بمشيئته ، انت الذي سبّحك الرعـــاة وذهب لعبادتك

المجوس مقدّمين لك الذهب والمرّ واللبان ، انت انقذت يونان لما سقط في البحر ، ودانيال من جب الاسود والقديس سابا في رومة والقديسة سوسنة من الأثيم الكذوب . انت الذي عشت في العالم ثلاث وثلاثين سنة ، انت الذي اجترحت المعجائب فحوّلت الماء الى خمر في عرس قانا الجليل وأحييت لعازار من بين الاموات بقوة ارادتك ، وأسلمت ذاتك لليهود في جبل الجلجلة حيث علقت على خشبة الصليب بين لصين ، استحق احدهما الجنة والآخر لم يستحقها . انت الذي اجترحت الاعجوبة الكبرى على الصليب لما طعنك احد الجنود بحربة في جنبك وانحدر الدمع عليها حتى وصل الى يده فأدناها من عينيه ، وكان أعمى فأبصر وآمن بك . انت الذي قمت من بين الأموات وانحدرت بارادتك الى الجحيم وحطمت أبوابه وأنقذت الآباء القديسين . انت ملك الملوك وسيّد السادات ورب السماوات والارض ، أعبدك وأؤمن بـــك وأتضرّع الى القديس بطرس ليساعدني في الصلاة اليك لكي تحفظ زوجي من كل شر وتعمل على لقبانا من جديد فى هذه الحياة » .

وبعد هـــذه الصلاة الطويلة خرجوا من الكنيسة فاقترب السيد من زوجته شيمانه وقبّلها قبلة الوداع وهي بدورها أكبّت على يـده تقبّلها باكية العـين كئيبة الفؤاد ، وقبّل السيد ابنه دياغه البالغ ست سنوات وابنتيه شمس وألبيره ، وكرّر على رئيس الدير التوصية خـــيراً بامرأته وحاشيتها واولادها . وألقى آخر نظرة على برغش المكللة بالقلعـة وعلى كنيسة القديسة مريم ، انها نظرة وداع من رجل حكم عليه ان يعيش بعيداً عن دياره وعن أهله .

وامتطى صهوة جواده ، واقترب البرهانيس من رئيس الدير وقال له : « إذا أراد احد ان يتبعنا فليقتف خطونا فلا شك مدركنا في السهل أو في الوعر » .

وساروا يقطعون الجبال والوهاد والفرسان تنضم اليهم . وعند مجيء

العتمة استراح القنبطور ورجاله ، وتراءى له في الحـــلم الملاك جبرائيل قائلاً : « سر حيث شئت فالطرق معبّدة امامك » .

فصنع الكامبدور اشارة الصليب على وجهه عند استيقاظه وعدّ رجاله فاذا هم ثلاثمائة رامح .

* * * * * * *

- ٢ -

في المشرق الاسباني

سار السيد وركبه يقطعون السهول والوهاد حتى أشرفوا على قلعة « القُصير » القريبة من قلعـــة ايوب ، فناجزوها القتال فأبت ورضيت بدفع الجزية لهم الأمر الذي لم تسترح اليه قلعة ايوب .

ولمـا رأى القنبطور ان القلعة لا تستسلم اليه أمر برفع الخيام جميعها الا واحدة لايهام أهل القلعة انه قد يئس من السيطرة عليها . فلما رأى الاهالي ان السيد قـد رحل برجاله سروا كل السرور وقالوا فيما بينهم : لقد نفـــد الخبز والشعير عنده فتركه اتباعه فلنهجم عليه ونسترد منه الجزية التي دفعناها له قبل ان يستولي عليها غيرنا ولا يصيبنا منها شيء .

فخرجوا من القلعة وتظاهر السيد بالهرب امامهم ، فقالوا لقد أفلتت الغنيمة من أيدينا وتركوا الأبواب مفتوحة ولما اصبحوا على مسافة كبيرة منها أمر السيد رجاله بالعودة الى القلعة ومنعوا اهلها من الدخول اليها وأعملوا فيهم السيوف وقتلوا منهم ثلاثمائة رجل واستولوا عـــلى القلعة وتركوا الباقين احياء ليخدموهم .

لم يفرح سكان قلعة ايوب بهذه الانتصارات فوجّهوا الى ملك بلنسية رسالة يقولون فيها : « قدم من قشتالة فارس اسمه رذريق دياس من فيفر ،

طرده الملك الادفونش من بـلاده استقرّ في منطقة « القصير » واستولى على القلعة غيلة ، فإذا لم تسرع لنجدتنا خسرنا بلادنا كلهـا فالأمور هنا تسير من سيء الى أسوأ » .

حمل الرسل هذا الكتاب الى ملك بلنسية واضطلع عليه فغضب أشد الغضب وأمر فى الحال ثلاثة آلاف فارس من رجاله بالتوجه مع الرسل لمساعدة قلعة ايوب وليأتوا بالسيد حيا .

وبعد مسيرة يومين وصلوا الى قلعة ايوب وكان قد انضم اليهم فرسان عديدون من هنا وهناك فتوجّهوا جميعاً لمحاصرة السيد في قلعة القصير . وقطعوا المياه عن القلعة ودام الحصار ثلاثة اسابيع .

وبعدها جمع السيد رجاله في مجلس شورى طالباً رأيهم في الأمر فالماء نفد من عندهم والزاد عـلى وشك النفاد ايضاً ولا قبل لهم على محاربة العرب المتزايد عددهم ، فما ترون ايها الابطال فيما يجب فعله ؟

فقال البرهانيس : جئنا من قشتالة لحرب العرب والا فمن أين نحصل عـلى القوت والكسوة ، الرأي عندي ان نبتدىء غداً في الهجوم لنا قوات قوامها ستمائة رجل .

وفي اليوم التالي قال رذريق لرجاله : « لنخرج جميعاً الى القتال ولا يبقى سوى رجلين لحراسة مدخل القلعة فاذا متنا في ساحة الوغى يحملوننا الى القلعة واذا ظفرنا فالغنيمة الكبرى لنا » .

وخرج لملاقاة العرب ، والعرب من جهتهم استعدوا لملاقاتـه بجموع لا تحصى .

ونشب قتال شديد بين الطرفين ظهرت فيه الغلبة للسيد إذ سقط من العرب الف وثلاثمائة قتيل ، وبالرغم من ذلـك واصلوا القتال ، واصطدم السيد مـع مقدم القوم ودس له ثلاث حربات أخطأته الاولى والثانية ،

اما الثالثة فأصابته وأسالت دماءه فولّى الادبار وانطلق جيشه في اثره ووقعت عليهم الهزيمة .

وقال البرهانيس الآن استراحت نفسي ستصل انباء هذه الانتصارات الى قشتالة . وشرع السيد ورجاله في جمع الغنيمة والاسلاب من معسكر العدو المنهزم . وتفقد قواته فاذا خسارته في الارواح لا تزيد على خمسة عشر قتيلاً ، وتكدست الغنائم بين أيديهم فحملوها الى القلعة وقدّموا قسماً منها للعرب الذين كانوا يخدمونهم واحتفظ رذريق بخمسها ووزّع الباقي على رجاله .

ثم قال لابرهانيس : « انت ذراعي الأيمن خذ ما شئت من هذه الأموال وتوجّه الى قشتالة وأخبرهم بانتصاراتنا وقدّم للملك الادفونش ثلاثين حصاناً بما عليها من العدة ، واليك هذا الذهب فادفع منه حسنة الف قداس لكنيسة القديسة مريم في برغش ، وما فضل فليكن لشيانه واولادها وليصلّوا لأجلي ليل نهار ، فان شاء الله ستصبح ابنتاي من السيدات الكريمات » .

ورحل البرهانيس مع طلوع الصباح وبقي القنبطور مع رجاله فوجد أن الظروف غير مؤاتية للمكوث في تلك الأراضي التي يحيط بها الأعداء من كل جانب .

وفي ذات اليوم قرّر الرحيل بعد أن باع قلعة القصير لسكان قلعة ايوب بثلاثة آلاف دينار من الفضة ووزّع أربعة أخماس القيمة على رجاله فأغناهم جميعاً .

ولما همّوا بالرحيل قيل للسيد ان امرأة طباخه قد وضعت طفلاً في تلك الليلة فسأل أحدهم : « كم يوماً تلازم النساء القشتاليات الفراش عندما يضعن طفلاً » ؟ فأجابوه سبعة أيام ، فقال : « لتبق مضاربنا منصوبة طيلة هذه المدة وأمر باعادة نصبها بعد أن كانت قد رفعت ، ولم يعبأ بالعدوّ الذي يتربص به الدواهي ويحيط به من كل جانب » .

ورأى القنبطور أن يولي شطر وجهه برشلونه بدل أن يذهب الى الأراضي العربية في سرقسطة مثلاً ، وفي برشلونه يحكم الشقيقان القند رمون برنجير الثاني والقند برنجير رامون الثاني منذ سنة ١٠٧٦ م .

وصل الى برشلونه والغرور يملأ برديه ، ولكن لم يدر في خلده ان انتصاراته لم يصل خبرها الى هذه المناطق الشرقية من اسبانيا حيث تصوّروا السيد رجلاً كثير الاحلام والادعاء . استقبله برنجير رمون الثانى استقبالاً فاتراً ، وتجاه هذا الواقع المؤلم وجد أنه لا يستطيع الاتكال على أي زعيم مسيحي ليضع سيفه تحت تصرفه ، فاضطرّ الى التفاهم مع العرب ، وبدأ يفاوض ملك سرقسطة . وقد فات برنجير رمون الثاني أن اليد التي مدّت اليه ورفضها ستنقلب عليه وتضربه أشد الضربات كما سيأتي .

في بلاد بني هود بسرقسطة

الحياة في الممالك العربية مصير كل من حكم عليه بالنفي من الاراضي القشتالية مثلما جرى لغرسيه ملك غليشية والادفونش ملك ليون ، اضطر الأول لخدمة ملك اشبيلية العربي والثاني للاقامة في بلاط المأمون بطليطلة ، والسيد وإن لم يكن ملكاً فلم يخالف هذه القاعدة لاسيما بعد الاستقبال البارد الذي لاقاه عند قند برشلونه ، فقصد سرقسطة المدينة العربية عاصمة مملكة بني هود كما أشرنا سابقاً ، وقد حارب فيها السيد منذ أربع عشرة سنة . وكان يملك فيها منذ سنة ١٠٤٦ م المقتدر بن هود الذي بنى قصر الجعفرية في ضواحي المدينة حيث يعيش بين العلماء والادباء .

والمقتدر ، ككل ملوك الطوائف في القرن الحادي عشر المسيحي ، لا يستطيع الحياة بدون مساعدة الجنود الاسبان أو بخضوعه لملك اسباني يدفع له الاتاوة ، دفعها في السابق للامبراطور فرننده الاول ثم شانجه الثاني ملك قشتالة الذي اغتاله بلليده دلفوس ، ثم في سنة ١٠٦٩ م وضع

ذاته تحت حماية ملك نباره الى أن اغتيل هـذا سنة ١٠٧٦ م والتجأ القاتل الى سرقسطة وكان اسمه الأمير رمون ، وتوقف عن دفع الجزية . غير ان أعداءه كثر : فمن جهة ملك نبارة وارغون ، ومن جهة أخرى ملك ليون وقشتالة الادفونش السادس ، فرأى من حصافـة الرأي اتخاذ الضمانات اللازمة لسلامة بلاده ففصل ساعد السيد على طلب حماية أحـد هؤلاء الملوك المجاورين ، فاستقبله أحسن استقبال ، انه معجب به فأعماله البطولية ما تزال عالقة في ذاكرته لما كان على رأس قوات الملك شانجه الثاني .

مات المقتدر في تشرين الاول سنة ١٠٨١ وقسم مملكته بـين ولديه فأعطى الاكبر ، المؤتمن مملكة سرقسطة . والاصغر ، الحاجب المنـذر ، لرده وطرطوشة ودنيه ، فخلقت هذه القسمة حروباً متواصلة بين الشقيقين اللذين بدل أن يعيشا في السلام والوئام مـع بعضهما البعض ، تناجزا العداوة منذ أن تربعا على العرش وفتشا عن الحلفاء عند العرب والاسبان ، فاستعان المؤتمن ملك سرقسطة برذريق السيد والمنذر ملك لرده وطرطوشة تحالف مع شانجه ملك ارغون ونباره وبرنجير رامون الثاني قند برشلونة .

وطلب المؤتمن من السيد شن الغارات على أراضي شانجه رميرس ملك ارغون ، فهدّد وأقسم ان المحكوم عليه بالنفي لا يتجاسر ولن يدخـل الى « لرده » ولا غيرها . ولما سمع السيد بهذا القسم ثبت عزمه وخرج من سرقسطة مع جنوده وعسكر في محلة برلته PERALTA على مسافة يوم من منشون ، وقوات المنذر وشانجه مرابطة قربـه . وفي اليوم التالي توجّه الى منشون ودخلها دون أن يتجاسر الملكان على التصدّي له أو الحؤول دون الدخول اليها .

واصل السيد زحفه فاحتلّ تمريت TAMARIT وصادف انـه ذات يوم خرج من هذه المدينة مع اثني عشر فارس من فرسانه ففاجأه مائـة وخمسون رجلاً من فرسان ملك ارغون فألجأهم الى الفرار بعد أن أخـذ منهم سبعة أسرى ، فطلب هؤلاء الأمان والعفو فأطلق سراحهم ووهب لهم خيولهم .

ورأى المؤتمن ان من الموافق له ترميم قلعة المنارة الواقعة بين لرده وتوريس فنفذ السيد أوامره . فلم يرض المنذر شقيق المؤتمن عن هذا التصرف فانه يشكل خطراً دائماً على ممتلكاته فعمد الى محالفة أقماط برشلونة وسردينية وكركسون التابعة آنذاك لبرشلونة وتوجه بهذه القوات الجرارة لمحاصرة قلعة المنارة فضيق عليها الخناق حتى نفد الماء عندها .

وصل الخبر الى السيد الذي كان يقوم بالغارات في مقاطعة لرده ويحتل المدن والقرى فبعث الى سرقسطة يطلب المساعدة من المؤتمن فهرع الى تماريت واجتمع بالسيد .

وعقد الاثنان مؤتمراً في القلعة وارتأى المؤتمن مهاجمة الحلفاء الذين يحاصرون قلعة المنارة ، فنصحه السيد بدفع كمية من المال لأخيه حتى يفك الحصار عن القلعة ويذهب في سبيله لأنه لا يقوى على حربه ، وأنصاره كثيرون . رضخ المؤتمن لنصيحة قائده وشرع في المفاوضة مع أخيه والقند برنجير : يدفع الجزية لقاء فك الحصار عن القلعة ، فرفضوا هذه الشروط لأنهما كانا على ثقة من احتلالها عنوة .

وتجاه هذا الأمر لم يبق أمام القنبطور سوى القتال فأمر رجاله بأخذ السلاح وانقضوا على العدو الذي وقع عليه الهجوم مفاجأة فتبلبلت صفوفه وأعمل فيهم السيد التقتيل فولوا الأدبار وسقط برنجير ذاته أسيراً ، فغنم جيش المؤتمن من هذه المعركة ما يعجز اللسان عن وصفه .

وحُمِل القند الى خباً السيد وأمر خدمه بالسهر عليه وتوجه الى جمع الغنائم والاسلاب وأقيمت وليمة لم يشهدها رجال السيد من زمان طويل ، ولم يشأ القند ان يتناول طعاماً ، انه مضرب عنه وهو يردد :

« لا أذوق لقمة واحدة ولو ملكت ذهب اسبانيا ودرّها ، أفضّل أن يموت جسدي وتهلك روحي على أن اتناول من هذا الطعام الذي تقدمونه لي . أيعقل أن يقهرني هؤلاء الحفاة » ؟ فقال له السيد : « كل

من هذا الطعام واشرب من هذا الخمر ، فاذا سمعت كلامي اطلقت سراحك وإلا فلن تكلم انسياً ما دمت حياً » .

ـ كل أنت يا قنبطور واسترح إذا شئت ، أما أنا فلا حاجة بي الى طعام أو شراب دعني أموت .

ومضت ثلاثة أيام عـلى إضرابه عن الطعام ولم يجدوا سبيلاً لإقناعه في الكف عن هذا الصيام مـا لهم وله انهم في شغل شاغل عنه بتقسيم الغنيمة .

فألحّ السيد عليه من جديد :

ـ ايها القند كل قليلاً من الطعام وإلا فلن تعود تبصر وجهاً مسيحياً . فاذا سمعت كلامي اطلقت سراحك وسراح اثنين من رجالك .

فعادت روح القند اليه عند سماعه هذا الوعد .

ـ إذا أسديت لي هذا المعروف ايها السيد تقلدني جميلاً لا أنساه .

ـ كل ايها القند وسترى فعندما تشبع اطلق سراحك ولكن انبهك الى أمر وهو ان جميع مـا خسرتموه في ساحة القتال لا يعاد اليك منه شيء . حاجتي شديدة الى المال لأن رجالي يلاقون الويلات والأهوال الى جانبي وليس لي إلا الذي استولي عليه بقوّة سيفي ، اليوم منكم وغـداً من سواكم وهكذا حتى يقضي الله أمراً كان مقضياً .

فشرع القند والفارسان اللذان قرّر السيد إطلاق سبيلهما في الأكل بشهية الذئب ، والسيد يتأملهم قائلاً :

ـ ايهـا القند اذا لم تأكل كما اشتهي تحكم على ذاتـك بالبقاء معي مدى الحياة .

ـ آكل بشهية كما ترى .

فطابت نفس السيد لما رآهم يلتهمون الأطعمة بتلك الشهية .

– ايها السيد إذا ارتأيت ، يمكننا أن نرحـــل الآن ، فليشدّوا لنا خيولنا . واعلم اني لم آكل بمثل هذه الشهية منذ أن صرت قند برشلونة .

فأسرجوا لهم ثلاثة جياد وخرج رذريق لتوديعهم قائلاً :

– سر ايها القند حراً معافاً . اشكرك على الغنائم التي تركتها بين يدي ، فاذا شئت يوماً الانتقام مني فأخبرني سلفاً .

– يمكنك ان تطمئن من هـــذه الناحية فلن أفكّر بالمجيء اليك مرة أخرى .

فسار القند في حذر ، يخشى ان يندم السيد على إطلاق سراحه ، ولم يدر ان القنبطور لن يرجع عن كلمة اعطاها .

واجتمع رذريق مع رجاله وأطلق العنان لسروره الفلتان على الغنائم التي في أيديهم .

وعاد القنبطور الى سرقسطة بصحبة المؤتمن ودخلوها بأبهة عظيمة .

وتربّع في البلاط ينهي ويحكم كأنه صاحب الأمر فالمؤتمن قدّمه على جميع الأشراف حتى عـلى ولي العهد نفسه ، وأتحفه بالهدايا حتى أغناه ، ولا يرى نفسه الخاسر لأنه ما زال السيد في جواره فهو في أمان ، لأن الانتصار الذي أحرزه القنبطور على قوات الحلفاء متجمعة يبرّر هـــذا الاعزاز والاكرام .

* * * * * *

- ٣ -

مصالحة عابرة

كانت قلعة الروضة لأسياد سرقسطة وتقع على خمسة وثلاثين كيلومتراً من هذه المدينة في واحة تسقيها مياه نهر جلون JALON والقلعة هذه منتصبة على هضبة قريبة ، يلجأ اليها أمراء بني هود كلما وجدوا الخطر محدقاً بهم .

كان المظفر عم المؤتمن أسيراً في هذه القلعة ضحية المطامع الأخوية في السيادة والسيطرة المطلقة ، مثلما جرى من قبـــل للملك غرسيه الغليشي شقيق الملك الادفونش السادس ، فغرسيه المسكين ما يزال في الأسر .

وعند موت المقتدر ١٠٨١ م ثار قائـد حامية الروضة ، أبو الفلق ، باتفاق مـــع الملك الأسير المظفر ضد المؤتمن المالك في سرقسطة وطلب بالحاح من ملك قشتالة الادفونش ان يشد ازر العصيان ، فرأى القشتالي الفرصة مؤاتية للتدخل في شؤون سرقسطة بعد أن أهملها للانصراف الى غيرها في طليطلة لأن في هذه السنة كانت الحروب في طليطلة ما زالت مستعرة والأحزاب تتنافس والادفونش يؤيّد حزباً دون آخر بغية السيطرة التامة عـلى المدينة الحصينة الواقعة على نهر التاج وتمّ له السيطرة عليها كما رأينا سنة ١٠٨٥ .

لبّى النداء وأرسل جيشاً قوياً الى الروضة لتعزيز الحامية من جهـة وتقوية معنوياتها من جهة أخرى .

وكان على رأس الحملة الأمير رودمير والقند غنصاله سلفادرس ، وهذا الأخير قبل ان يذهب الى القتال في اواخر صيف سنة ١٠٨٢ دخل دير قونيه وكتب وصيته التي يوصي فيها بجميع أملاكه للدير في حالة وفاته .

تقول الوصية هـذه : « أنا القند غنصاله قررت الذهاب الى الحرب مع سيدي الامبراطور ، أقـدّم لله ولدير قونيه حيث يرقد اجدادي ، لكي يظلّ ذكري محفوظاً هنا لدى الأجيال ، كل مـا أملك في قرى قشتالة سواء رجعت من الحرب حياً أو ميتاً . فاذا مت بـين العرب فلتذهب روحي الى خالقها سيدي يسوع المسيح ، ويؤتى بجسدي الى دير قونيه ويدفن مع آبائي وأجدادي ، وليقدّم للمذبح ستمائة مثقال وثلاثـة خيول من أفضل ما عندي وبغلتان وإناءان من الفضة وثلاثة أوشحة من البرفير والارجوان . وإذا مت بـين العرب ولم يحملني خدمي الى هـذا الدير فليعتبروا خائنين قتلوا سيدهم لأني جعلتهم من الأغنياء » .

وسارت هـذه الحملة نهار الخامس من ايلول من تلك السنة فانحدر الجنود القشتاليون في وادي نهر الابره ، حتى أدركوا القلمة فأقنعوا الملك المظفر على أن يلتمس من الامبراطور الادفونش الحضور بنفسه اليها فقبل الادفونش وجـاء الى الروضة ولكن لم يمكث فيها سوى بضعة أيام ، أمور خطيرة تتطلب حضوره في مكان آخر .

وظلت الثورة قائمة على قدمها الى ان توفي المظفر فجأة فاحتار قائد الحامية أبو الفلق في أمره ، لم يعـد من مبرر للثورة والعصيان فملكه المظفر قـد مات فعمد الى تنفيذ خطة يرضى عنه بواسطتها المؤتمن سيّد سرقسطة ، وترتج لها اسبانيا جمعاء .

دعـا اليه القند غنصاله المذكور والأمير ردمير قائدا الحملة القشتالية وعرض عليهما تسليم القلعة الى ملكهما الادفونش لأنه لا يشاء الاحتفاظ بها ولا يريد تسليمها الى عدوّه المؤتمن ، فأعجبت الفكرة القند غنصاله وبعث يطلعها على الملك الادفونش ، فابتهج لها ، انهـا غنيمة باردة لم تكلفه جهداً ولا تضحيات .

توجّه الادفونش الى استلام القلعة مع خيرة أبطاله وأعوانه وعـلى رأسهم القند غنصاله والأمـير ردمير وبقي الملك في المؤخرة وعندما

اصبحوا داخل القلعة وهم غافلون عن صروف الأيام أمطرهم العرب وابلاً من الحجارة فأبادوهم عن بكرة أبيهم ومن بينهم الأمير ردمير والقند غنصاله وغيرهم من أشراف قشتالة . كان ذلك في ٦ كانون الثاني ١٠٨٣ م .

وفشلت الخطة رغم هـذا لأن قصد أبي الفلق كان اغتيال الملك الادفونش فنجا لأنه لم يدخل الى القلعة مع الداخلين .

عاد الى قشتالة والألم يملأ فؤاده والقهر يضنيه لأنه لا يستطيع الانتقام .

وفي هذه الأثناء كان السيد في « تطيلة » فتوجّه مع رجاله الى الامبراطور عارضاً عليه المساعدة في هـذه المحنة الشديدة التي سقط فيها أفضل فرسان قشتالة . انهـا فرصة سانحة ليرضى عنه الملك ، وعلامة الرضى تكون بأن يقبل هذه المساعدة فالقبول معناه رفع حكم النفي عن السيد فيعود الى نعمته ، وبالواقع اجاب الادفونش لرغبات رذريق فاستقبله بالاكرام والحفاوة وأمره بالرجوع معه الى قشتالة .

فسار السيد بصحبة ملكه مسروراً ، عن قريب يشاهد وطنه وأهله وامرأته واولاده ، لقد نسي المكانة المرموقة التي ينعم بها في بلاط المؤتمن فتخلى عنها غير مكترث لها وطنه وأهله في الدرجة الأولى .

ولكن حلم السيد اللذيذ لم يدم ، فالملك الادفونش بعد أن مرّ تأثير الفشل الذي لحقه في الروضة وتذكّر الماضي البعيد وعادت الدسائس تحاك ضد القنبطور في البلاط وخارجه وجد ان الحياة لا تطاق في قشتالة وندم على مغادرته بلاط المؤتمن ، ولاسيما بعد ان وجد الملك الادفونش يفتش عن وسيلة جديدة للخلاص منه ، فلم يترك له سبيلاً الى وجودها فعمد من تلقاء نفسه الى مغادرة الاراضي القشتالية .

ورضي أبو الفلق بتسليم جثث القتلى الاسبان الى أصحابها ، فحملت جثة القند غنصاله الى دير قونيه لتدفن هناك تنفيذاً لوصيته ، ونقلت جثة الأمير ردمير لتوارى في كنيسة القديسة مريم في ناجره ، وهذه

الكنيسة كان قد بناها ابوه غرسيه ملك نبارة . وخلّف الأمير ردمير طفلاً مع مرور السنين يتزوج بابنة القنبطور .

* * * * * * *

— ٤ —

السيد في سرقسطة

عاد السيد الى سرقسطة فاستقبله المؤتمن افضل استقبال .

وخرج الاثنان في غزوة لأراضي ملك ارغون ، فغزيا ونهبا طيلة خمسة ايام وعادا الى قلعة منثون دون ان يتجاسر شانجه رميرس ملك ارغون على الخروج للتصدي لهما .

وبعد هذه الغارات الشديدة على أراضي ارغون وجّه القنبطور أعماله العسكرية نحو اراضي لرده حيث يملك الحاجب شقيق وعـدوّ المؤتمن . فاشتدت الغارات على الأراضي الاكثر وعورة في جبال مريلا MORELLA فلم ينج بيت واحد من النهب والتدمير .

وتعرّضت قلعة مريلا للهجوم ايضاً ، فقد طلب المؤتمن من السيد ان يرمم قلعة أَلَكَوْ OLACAU الواقعة على ثلاثة اميال غربي قلعة مريلا ، فحصّنها رذريق بالرجال والسلاح .

ولما رأى الحاجب الخطر على قاب قوسين منه زار الملك شانجه وجدد معه صداقتهما القديمة ضد العدو المشترك واتفقا على حرب القنبطور وقهره في معركة مفتوحة .

جمعا جيشهما ونصبا خيامهما على ضفاف الابره في طرطوشة على بعد حوالي خمسين كيلومتراً من معسكر السيد المرابط قرب مريلا .

وجّه ملك ارغون رسالة الى رذريق يطلب فيها منه مغادرة أراضي الحاجب ملك لرده بدون تأخير ، فأجاب السيد بمـــا يلي : « اذا أراد مولاي الملك المرور بسلام في هـذه الأراضي أكن له خادماً وأقدّم له مائة فارس لمرافقته في الطريق » .

استاء ملك ارغون كل الاستياء من هذا الجواب وتوجّه مع الحاجب حتى وصلا الى معسكر السيد ، فأقسم هذا انه لا ينقل خيامه من ذلك المكان ، عزم عـــلى القتال ، ولم ينتظر طويلاً لأنه في اليوم التالي أمر الملكان جيشهما بالهجوم في ١٤ آب ١٠٨٤ م ، ودامت المعركة عدة ساعات ظهرت فيها الغلبة لقوات القنبطور فلاذ الملكان الحليفان بالفرار فطاردهم السيد عدة أميال وأخذ منهم الفي أسير أمراء وقمامصة من البلاط .

واستولى على خيامهم وامتعتهم ولكنه اطلق سراح الأسرى واحتفظ بستة عشر من اشرافهم وتوجّه بهم ظافراً الى سرقسطة .

وبـــين هؤلاء الأسرى اسقف الروضة المدعو ريموندو دلماسيه صديق الملك شانجه الحميم ومدبر المؤامرات ضد اسقف خاكا شقيق الملك .

خرج المؤتمن مع رجاله وحاشيته بموكب حافل لاستقبال السيد لمـــا وصل اليهم نبأ انتصاره على قوات ملكي ارغون ولرده ، وأدركه الموكب على اربعة اميال خارج مدينة سرقسطة .

ونزل في ضيافة المؤتمن حتى توفي هذا سنة ١٠٨٥ م وخلفه ابنه المستعين الثاني ١٠٨٥ — ١١١٠ م فناله من الاكرام على عهده ما ناله عـــلى أيام أبيه المؤتمن .

والمستعين الثاني امتدّ ملكه حوالي خمس وعشرين سنة ومدحه الشعراء وأكرموهم . وقال فيه الشاعر ابن السيد البطليوسي قصيدة جاء فيها :

« هم سلبوني حسن صبري إذ بانوا باقمـــار اطواق مطالعها بان
لئن غادروني باللوى ان مهجتي مسايرة اظعـــانهم حيثما كانوا

سقى عهدهم بالخيف عهد غمائم ينازعها مزن من الدمع هتان
أأحبابنا هل ذلك العهد راجع وهل لي عنكم آخر الدهر سلوان ؟
. . فسرنا ومـــا ناوي على متعذر اذا وطن اقصاك آوتك اوطان
الى ملك حاباه بالمجـــد يوسف وشاد لـه البيت الرفيع سليمان
الى مستعـــين بالإله مؤيـــد له النصر حزب والمقادير أعيان
فوجه ابن هود كلما اعرض الورى صحيفة اقبال لها البشر اعوان
فتى المجد في برديه بدر وضيغم وبحر وقدس ذو الهضاب وثهلان
من النفر الشم الذين أكفهم غيوث ولكن الخواطر نيران
ليوث شرى ما زال منهم لدى الوغى هزبر بيمناه من السحر ثعبان
وهل فوق ما قد شاد مقتدر لهم ومؤتمن بالله لقيـــاه إيمان
ألا ليس فخر في الورى غير فخرهم والا فان الفخر زور وبهتان
فيا مستعيناً مستعاناً لمن نبـا به وطن يوماً وعضته أزمان
كسوتك من نظمي قلائد مفخر يباهي بها جيد المعالي ويزدان
معان حكت غنج الحسان كأنني بهن حبيب او بطليوس بغدان
اذا غرست كفاك غرس مكارم بأرضي اجنتك الثنا منه أغصان

وطمع الادفونش السادس في الاستيلاء على سرقسطة بعـد أن أخضع بقية أجزاء الوطن الاسباني ، فانه كامبراطور على اسبانيا ، كما سمّى نفسه يرغب في بسط سيادتـــه على مملكة نبارة وأرغون والثغر الأعلى أي سرقسطة وما جاورها .

ففي أوائل سنة ١٠٨٥ م هاجم سرقسطة وأقسم انـــه لا يبرح من مكانه قبل ان يستولي على المدينة ، والموت فقط قادر على منعه عن تنفيذ هذا القسم ، وكان يحارب الى جانبه في هذا الحصار شانجه رميرس ملك أرغون .

وحار السيد في أمره ، لقد وضعه الادفونش في موقف دقيق بمحاصرته سرقسطة عاصمة بني هود . فمن جهة لا يريد السيد مقاتلة ملكه الادفونش ومن جهة أخرى يخشى ، اذا قاتل الى جانبه ، ان يصيبه مـا أصابه في

المرة الأولى ويظل في المنفى ، فاتخذ موقفاً محايـداً لم يرض الكثيرين من رجاله فتركوه وانضموا الى قوات الامبراطور .

وضيّق الحصار على المدينة ، ورأى المستعين ان لا طاقة له على تحمّل حصار طويل الأمد ولا يقوى وحده على محاربة امبراطور اسبانيا فعرض عليه كمية كبيرة من المال لقاء فك الحصار عن عاصمته سرقسطة ، فكان جواب الملك الادفونش وقحاً للغاية : « كل ما تعرضه عليّ من مال وما لا تعرضه سيصبح لي عن قريب » .

ولكي يمهّـد الطريق أمام الاستيلاء على المدينة أمر جنوده بأن لا يتعرّضوا بأذى للسكان العرب المقيمين في تلك الانحاء ، وأكّد لهؤلاء انه سوف لن يتدخل في شرائعهم وعاداتهم العربية وانه لن يرهقهم بالضرائب مثلما يصنع ملوك الطوائف معهم بل يتقاضى فقط الضريبة التي نصّ عنها القرآن والسنة . فصدّقه العرب الساكنون في الأرياف ووقف بعضهم الى جانبه في محاصرة مدينة سرقسطة والبعض الآخر ظلّ على الحياد .

وشاء الحظ ان يخدم المستعين الثاني بعـد ان كان أشرف على البوار والادفونش جاد في المضايقة عليه وإحكام الخناق على عاصمته .

كان المرابطون قد أنزلوا قواتهم في الجزيرة الخضراء فخرج الجواسيس من طليطلة التي كان احتلها الادفونش متوجهين اليه وهـو في حصاره لسرقسطة وأخبروه بالواقع . فظنّ ان أهالي المدينة يجهلون وصول المرابطين فبعث الى المستعين يقول له انه يقبل بالجزية التي عرضها عليه سابقاً لقاء سحب قواته من هناك . ولكن المستعين الذي وصل اليه النبأ عن طريق آخر أجابه بما يلي : « لست مستعداً لأن أدفع لك درهماً واحداً فاصنع ما طاب لك » .

فاضطرّ الادفونش السادس على رفع الحصار الذي كان أحكم وضعه ، وطلب مساعدة ملك أرغون الموجود آنذاك في طرطوشة ومساعـدة

الأمراء الفرنسيس ، وبعث رسالة الى البرهانيس يأمره بمغادرة بلنسية والاسراع الى نجدته ، ولكنه لم يطلب مساعدة السيد ظناً منه انه لم تعد له قوات يمكن الاعتماد عليها . ونجت سرقسطة من هذا الحصار المرهق .

وتوجّه الادفونش السادس بهذه القوات الجرّارة لصدّ الغزاة القادمين من افريقية بقيادة يوسف بن تاشفين اللمتوني .

ولم يبق للسيد مناطق يحارب فيها مع جنوده لأنه لا يريد ان يحارب الامبراطور الذي بسط سلطانه تقريباً على جميع انحاء اسبانيا ، فعاش في الظلام ، وقد كان قضى البقية الباقية من حياته ، لأن نجم الامبراطور كسفه ، لو لم تهبّ رياح جديدة على الاندلس فان سلطة الادفونش امبراطور اسبانيا او سلطان الملتين كما كان يسمّي نفسه ، قد اصطدمت بقوة لم يدخلها في الحسبان . فشاء السيد ان يقف في وجه هذا الزحف العظيم الذي دك كل ما بناه الادفونش السادس كما سيأتي .

******

- ٥ -

معركة الزلاقة

في سنة ١٠٣٩ م ابتدأ الفقيه عبدالله بن ياسين في تعليم القبائل الصحراوية الديانة الاسلامية يحضهم على الصدقة والزكاة والصوم وبقية الفروض الدينية ويهددهم بعذاب الجحيم . فأطلق عليهم اسم المرابطين أي الذين أخذوا على أنفسهم العهد في الجهاد بقلعة اسمها الرابطة ، كان الفقيه قد شيّدها في جزيزة على بحر النيجر .

أطلق عبدالله تلامذته للجهاد وسيطرت عائلة صنهاجة على الصحراء الكبرى وامتازت قبيلة بني لمتونة بين السبعين قبيلة التي تشكل عائلة

صنهاجة وفضّلها الفقيه على سواها فاختار منها القائدين اللذين عليهما ان يتمّا احتلال الصحراء والقسم الاكبر من السودان . فالقائد اللمتوني يسير بالجنود الى القتال ، ولكن السيد الحقيقي كان الفقيه عبدالله ، يوبّخ القائد ويجلده عندما يرتكب بعض الاخطاء .

اعتنق المرابطون الديانة الاسلامية عن إقناع دون ان يكونوا مدفوعين بمصلحة خاصة أو بربـح مادي فطبّقوا الشريعة الاسلامية بحذافيرها : لا زواج أكثر من اربع نساء كما نصّ القرآن الكريم « فانكحوا مـا طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ... » ، وحرّموا الخمرة وهدموا بيوتها وأقلعوا عن سماع ألحان الآلات الموسيقية لأنها مفسدة للعادات الصالحة ، وألغوا جميع تلك الضرائب التي لم يفرضها القرآن .

انطلق هؤلاء البدو من صحرائهم سنة ١٠٥٥ م لاحتلال مدن المغرب بدعوة من الفقهاء لكي يجددوا الايمان الذي أخذ يضعف .

وفي سنة ١٠٦١ سئم القائد المرابط الحياة الرخية الناعمة في المدن المغربية ، فرجع الى الصحراء ليجاهد ويموت في السودان . وقبل ذهابه الى الجهـاد عيّن يوسف بن تاشفين حاكماً على المناطق المحتلة فأسّس مدينة مراكش واحتلّ فاس .

وكانت شهرة المرابطين تسبقهم في فتوحاتهم . وصلت هـذه الشهرة الى اسبانيا .

وقع اتفاق ملوك الاندلس على مكاتبة يوسف بن تاشفين لما تحققوا انه يقصدهم ، يسألونه الاعراض عنهم وانهم تحت طاعته ، فكتب كاتب عنهم من أهل الاندلس كتاباً جاء فيه :

« أما بعد ، فانك ان أعرضت عنا نسبت الى كرم ولم تنسب الى عجز وان أجبنا داعيك نسبنا الى عقل ولم ننسب الى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمـل نسبتينا فاختر لنفسك أكرم نسبتيك فانك بالمحل الذي لا

يجب ان تسبق فيه الى مكرمة ، وان في استبقائك ذوي البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت والسلام » .

وصله الكتاب مع تحف وهدايا ، وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربي لكنه ذكي الطبع يجيد فهم المقاصد . وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية فقال له : « ايها الملك ، هذا الكتاب من ملوك الاندلس يعظمونك فيه ويعرّفونك انهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ويلتمسون منك ان لا تجعلهم في منزلة الاعادي فانهم مسلمون وذوو بيوتات فلا تغيّر بهم وكفى بهم من ورائهم من الأعادي الكفّار وبلدهم ضيّق لا يحتمل العساكر فاعرض عنهم اعراضك عمن اطاعك من أهل المغرب » .

فقال يوسف لكاتبه : « فما ترى انت ؟ فقال : ايها الملك ، ان تاج الملك وبهجته شاهده الذي لا يرد فانه خليق بما حصل في يده من الملك والمال ان يعفو اذا استعفى وان يهب اذا استوهب ، وكلما وهب جليلاً جزيلاً كان لقدره أعظم ، فاذا عظم قدره تأصّل ملكه واذا تأصّل ملكه تشرّف الناس بطاعته ، واذا كانت طاعته شرفاً جاءه الناس ولم يتجشم المشقة اليهم ، وكان وارث الملك من غير اهلاك لآخرته . واعلم ان بعض الملوك الحكماء الأكابر البصراء بطريق تحصيل الملك قال : من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد » .

فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف بلغته فهمه وعلم صحته فقال للكاتب : أجب القوم واكتب بما يجب في ذلك واقرأ عليّ كتابك .

فكتب الكاتب : « باسم الله الرحمن الرحيم . من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، تحية من سالمكم وسلّم عليكم وانكم مما في أيديكم من الملك في أوسع اباحة مخصوصين منا بأكرم ايثار وسماحة فاستديموا أوفانا بوفائكم واستصلحوا اخاءنا باصلاح اخائكم والله ولي التوفيق لنا ولكم والسلام » .

فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه ، فاستحسنه وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللمط التي لا توجد الا ببلاده .

وأنفذ ذلك اليهم . فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه فرحوا به وعظّموه وسرّوا بولايته وتقوّت أنفسهم على دفع الادفونش عنهم وأزمعوا ان رأوا من الافرنج ما يريبهم انهم يرسلون الى يوسف يعبر اليهم أو يمدّهم باعانة منه .

والادفونش كما رأينا كان قد استولى على طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذي النون بعد قتال دام سبع سنوات (٢٥ ايار ١٠٨٥) وسيطر على نهر التاجه والمدينة التي كانت عاصمة القوط رجعت الى الاسبان بعد ان ظلت في أيدي العرب زهاء ثلاثة اجيال ونصف .

كانت دهشة العرب شديدة عند سقوط طليطلة وخيّل لهم ان سلطانهم قد زال عن الاندلس بأجمعه وقد سمعنا شاعرهم يقول :

يا أهل اندلس شدّوا رحالكم فما المقام بها الا من الغلط

والاسبان من جهتهم لم تكن دهشتهم أقل من دهشة العرب حتى ملك أرغون نفسه صار عند إصدار المراسيم ، يذكر اسم الامبراطور الادفونش قبل ذكر اسمه فيقول : « الادفونش الامبراطور المالك في طليطلة وليون والملك شانجه ردمير بنعمة الله المالك في بنبلونه وأرغون . »

وفي ربيع سنة ١٠٨٥ هاجم القشتاليون مملكة غرناطة ودارت معركة في محلة نيفر على بعد ميل من المدينة العاصمة ، وكان جيش آخر بقيادة غرسيه خيمانس ثبّت أقدامه في قلعة لييط (ALEDO) وهجم على لرقة (LORCA) وبقية المناطق في مرسية التابعة للمعتمد ملك اشبيلية . والخلاصة ، جميع ملوك الطوائف دفعت الجزية للامبراطور وأرسلت اليه الرهائن ، والمعتمد بن عباد أعظم ملوك الاندلس ومتملك اكثر بلادها مثل قرطبة واشبيلية وكان مع ذلك يؤدّي الضريبة الى الادفونش كل

سنة . فلما تملّك طليطلة ارسل اليه المعتمد الضريبة فلم يقبلها منه وأرسل اليه يهدده ويتوعده بالمسير الى قرطبة ليفتحها الا ان يسلّم اليه جميع الحصون المنيعة ويبقى السهل للمسلمين .

وكان الرسول في جمع كثير نحو خمسمائة فارس ، فأنزله المعتمد وفرّق أصحابه على قوّاد عسكره ، ثم أمر قوّاده ان يقتل كل منهم من عنده من الافرنج وأحضر الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه وسلم من الجماعة ثلاثة أنفار ، فعادوا الى الادفونش وأخبروه الخبر . وكان متوجهاً الى قرطبة ليحاصرها فرجع الى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويكثر العدد والعدة .

وسأل في دخول امرأته الى جامع قرطبة لتلد فيه إذ كانت حاملاً ، لما أشار عليه الاساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم . وأشاروا ان تكون المرأة المذكورة ساكنة بالزهراء وتتردد الى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة من الجامع المذكور .

وكان السفير في ذلك يهودياً وكان وزير الادفونش فأقنع ابن عباد من ذلك فراجعه فأباه وأيأسه فراجعه اليهودي وأغلظ له في القول وواجهه بما لم يحتمله ابن عباد . فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب بها رأس اليهودي فأنزل دماغه في حلقه وأمر به فصلب منكوساً .

واستفتى لما سكن غضبه ، الفقهاء عن حكم ما فعله باليهودي ، فبادره الفقيه محمد بن الضلاع بالرخصة في ذلك لتعدّي الرسول حدود الرسالة الى ما استوجب به القتل إذ ليس له ذلك . وقال للفقهاء : إنما بادرت بالفتوى خوفاً ان يكسل الرجل عما عزم عليه من منابذة العدو ، وعسى ان يجعل الله في عزيمته للعرب فرجاً .

وبلغ الادفونش ما صنعه ابن عباد فأقسم ليغزونه باشبيلية وليحاصرنه في قصره ، فجرّد جيشين الواحد توجّه الى كورة باجه من غرب الاندلس

فأغار على تلك التخوم والجهات . ثم يمرّ عـــلى لبلة الى اشبيلية للاجتماع معه هناك .

ثم زحف الادفونش بنفسه في جيش عرمرم ، فسلك طريقاً غير التي سلكها الآخر وكلاهما عاث في البلاد وخرّب ودمّر حتى اجتمعا بموعدهما بضفة النهر الاعظم قبالة قصر ابن عباد .

وفي أيام مقامه هناك كتب الى ابن عباد زارياً عليه : « كثر ، بطول سقامي في مجلسي ، الذباب واشتدّ عليّ الحر فأتحفني من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسي واطرد بها الذباب عن وجهي » .

فوقّع له ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة : « قرأت كتابك وفهمت خيلاءك واعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروّح منك لا تروّح عليك ، ان شاء الله » .

فلما وصلت الى الادفونش رسالة ابن عباد وقرئت عليه وعلم مقتضاها أطرق إطراق من لم يخطر له ذلك ببال .

وفشا في الاندلس توقيع ابن عباد ومـا أظهر من العزيمـة على جواز يوسف والاستظهار به على العدو . فاستبشر الناس وفرحوا وفتحت لهم أبواب الآمال .

أما ملوك طوائف الاندلس ، لما تحققوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه في ذلك اهتموا منه ، ومنهم من كاتبه ومنهم من كلّمه مواجهة وحذّروه عاقبة ذلك وقالوا له : « الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد . فأجابهم ابن عباد : رعي الجمال خير من رعي الخنازير » . ومعناه ان كونه مأكولاً ليوسف أسيراً يرعى جماله في الصحراء خير من كونه ممزقاً للادفونش أسيراً له يرعى خنازيره في قشتالة .

وقال لعذّاله ولوّامه : « يا قوم اني من أمري على حالين ، حالة يقين وحالة شك ، ولا بدّ لي من أحدهما . اما حالة الشك فاني ان استندت

الى ابن تاشفين أو الى الادفونش ففي الممكن ان يفي لي ويبقي عـــليّ وفـاءه ، ويمكن ان لا يفعل ؛ فهذه حالة شك . واما حالة اليقين فاني ان استندت الى ابن تاشفين فـاني أرضي الله وان استندت الى الادفونش اسخطت الله تعالى ، فاذا كانت حالة الشك عارضة فلأي شيء أدع مـا يرضي الله وآتي ما يسخطه » ؟

فقصر أصحابه عن لومه .

ولما عزم ، أمر صاحب بطليوس المتوكل عمر بن محمد وعبدالله بن حبوس الصنهاجي صاحب غرناطة ان يبعث اليه كل منهما قاضي حضرته ، ففعلا . واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة ابن بكر عبيدالله بن ادهم ، وكان أعقل أهل زمانه . فلمـا اجتمع عنده القضاة بأشبيلية أضاف اليهم وزيره أبا بكر بن زيدون وعرّفهم أربعتهم انهم رسله الى يوسف بن تاشفين ، وأسند الى القضاة مـــا يليق بهم من وعظ يوسف بن تاشفين وترغيبه في الجهاد وأسند الى وزيره ما لا بد منه في تلك السفارة من ابرام العقود السلطانية .

وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تفد عليه وفود ثغور الاندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء ناشدين بالله والاسلام مستنجدين بفقهاء حضرتـــه ووزراء دولته فيسمع اليهم ويصغي لقولهم وترقّ نفسه لهم . فعبرت رسل ابن عباد البحر الا ورسل يوسف لهم بالمرصاد .

ولما انتهت الرسل الى يوسف أقبـل عليهم وأكرم مثواهم . واتصل ذلك بابن عباد فوجّه من اشبيلية اسطولاً نحو صاحب سبتة فانتظمت في سلك يوسف . ثم جرت بينه وبين الرسل مراوضات ثم انصرفت الى مرسلها .

جاز اليه المعتمد سنة ٤٧٨ هـ باسطول الاندلس جوازاً فخماً ، اختار لمصاحبته في سفره الخواص والأعيان ، واستخلف ولده الرشيـد بأشبيلية وشيّعه الناس الى محل ركوبه البحر .

فقال في ذلك شاعره عبد الجليل بن وهبون القصيدة التي مطلعها :

« عزم تجدّد فيه النصر والظفر وفكرة خمدت من دونها الفكر
عساك خلت حباب الماء من زرد تعوّد الحوص فيه طرفك الأشر
أو قلت في المدح خرصان مفوقة تحارب الجيش أو مصقولة بتر
هي البسالة الا انهـــا شرف تنفي الحذار ومما يؤثر الحذر
لا تحمل الدين والدنيا على غرر فليس يحمد في امثالهـا الغرر
ان كان ثوبـك مختصاً بلابسه فقد تعلق من أذيالـك البشر »

ثم عبر يوسف البحر عبوراً سهلاً حتى أتى الجزيرة الخضراء ففتحوا له وخرج اليه أهلها بمـــا عندهم من الاقوات والضيافات وأقاموا له سوقاً جلبوا اليه مـــا عندهم من سائر المرافق وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيها فامتلأت المساجد والرحبات بالمتطوعين .

واجتمع بالمعتمد بن عباد بأشبيلية . وكان المعتمد قـد جمع عساكره ايضاً وخرج من أهـــل قرطبة عسكر كثير وقصده المتطوعة من سائر بلاد الاندلس .

ووصلت الاخبار الى الادفونش فجمع عساكره وحشد جنوده وسار من طليطلة وكتب الى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتاباً كتبه له بعض أدباء المسلمين يغلظ له في القول ويصف ما معه من القوة والعَدد والعُدد . بالغ في ذلك .

فلمـا وصل وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة ان يجيبه وكان كاتباً مفلقاً فكتب وأجاد . فلما قرأه على أمير المسلمين قال : هذا كتاب طويل .

وأحضر كتاب الادفونش وكتب في ظهره : « الذي يكون ستراه » .

وأرسله اليه فلما وقف عليه الادفونش ارتاع له وعلم انه بـلي برجل لا طاقة له به .

وكان يوسف أمر بعبور الجمال فعبر منها مـــا أغص الجزيرة وارتفع

رغاؤها الى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رؤوا جملاً قط ولا خيلهم فصارت الخيل تجمع من رؤية الجمال ومن رغائها . وكان ليوسف في عبور الجمال رأي صائب فكان يحدّق بها عسكره ويحضرّها للحرب فكانت خيل الفرنج تجمع منها .

وقدّم يوسف بين يديه كتاباً للادفونش يعرض عليه فيه الدخول في الاسلام أو الجزية أو الحرب كما هي السنّة . ومن جملة ما في الكتاب : « بلغنا يا ادفونش انك دعوت الى الاجتماع بنا وتمنيت ان تكون لك سفن تعبر فيها البحر الينا فقد عبرنا اليك وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك وما دعاء الكافرين الا في ضلال » .

وكان لما عبر يوسف وجمع جيشه الى الجزيرة الخضراء سار الى اشبيلية على احسن الهيئات جيشاً بعد جيش وأميراً بعد أمير وقبيلاً بعد قبيل .

وبعث المعتمد ابنه الى لقاء يوسف وأمر عمال البلاد يجلب الاقوات والضيافات ورأى يوسف ما سرّه من ذلك ونشّطه .

خرج للقاء يوسف بن تاشفين ملك غرناطة وملك مالقة . وملك المرية بعث ولده مع فرقة من الخيّالة معتذراً عن تخلفه عن الحضور بنفسه بسبب التهديد المتواصل من قبل الاسبان المقيمين في قلعة لبيط ، وتوجّهت جميع هذه القوات الى بطليوس للانضمام الى قوات المتوكل .

والادفونش من جهته جمع جيشاً عظيماً مشكلاً من قوات ملك أرغون وفرسان من ايطاليا وفرنسة بالاضافة الى قواته الكثيرة فخرج بها لملاقاة العرب المعسكرين في محلة الزلاقة على بعد ثلاثة أميال من بطليوس .

وخرج المعتمد الى لقاء يوسف بن تاشفين من اشبيلية في مائة فارس ووجوه اصحابه . فلما أتى محلة يوسف ركض نحو القوم وركضوا نحوه فبرز اليه يوسف وكان قد قارب الستين شديد السمرة ، طويل القامة هزيل الجسم ربيب الصحراء بعيداً عن اللذات الجسدية ، متقشفاً ، متواضعاً

قديساً ، يتغذى من خبز الشعير ومن حليب النوق ولحمها ولا يلبس سوى الصوف والقناع يغطي وجهه كما هي العادة عند رجال الصحراء ، والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقـــا وأظهر كل منهما المودّة والخلوص لصاحبه وشكرا نعم الله تعالى وتواصيا بالصبر والرحمة ، وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر ، وتضرّعا الى الله تعالى ان يجعل ذلـــك خالصاً لوجهه مقرّباً اليه . وافترقا . فعـــاد يوسف لمحلته وابن عباد الى جهته وألحق ابن عباد ما كان أعدّه من هدايا وتحف وضيافات أوسع بها على محلة يوسف .

وباتوا تلك الليلة ، فلما أصبحوا وصلوا الصبح ركب الجميع ، وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم نحو اشبيلية ففعل . ورأى الناس من عزّة سلطانهم ما سرّهم . ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من بادر وأعان وخرج وأخرج . وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف كل صقع من أصقاعه رابطوا وكابدوا .

وكان الادفونش لما تحقق الحرب استنفر جميع أهل بلاده ومـا يليها ومـــا وراءها ، ورفـع القسيسون والرهبان والاساقفة صلبانهم ونشروا أناجيلهم ، فاجتمع له من الجلالقة والافرنجة ما لا يحصى عدده وجواسيس كل فريق تتردد بين الجميع .

وبعث الادفونش الى ابن عباد : « ان صاحبكم يوسف قد تعفى من بلاده وخاض البحار وأنا أكفيه العناء فيما بقي ولا أكلفكم تعباً ، أمضي اليكم وألقاكم في بلادكم رفقاً بكم وتوفيراً عليكم » .

وقال لخاصته وأهل مشورته : « اني رأيت اني ان مكنتهم من الدخول الى بلادي فناجزوني فيها وربمـــا كانت الدائرة عليّ ، يستحكمون البلاد ويحصدون من فيها ، ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم ، فان كانت عليّ اكتفوا بما نالوه ولم يحملوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي وجبر لمكاسري . وإن كانت الدائرة عليهم

كان مني فيهم وفي بلادهم مـــا خفت أنا ان يكون فيّ وفي بلادي اذا ناجزوني في وسطها » .

ثم برز بالمختار من جنوده وأنجاد جموعه على باب دربـــه وترك بقية جموعه خلفه . وقال حـين نظر الى من اختاره منهم : « بهؤلاء أقاتـل الجن والأنس وملائكة السماء » . فالمقلل يقول المختارون اربعون ألف دارع ولكل واحد اتباع . واما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ويرون انهم اكثر من ذلك كله .

واتفق الكل ان عدد المسلمين اقل من عدد الفرنج .

ورأى الادفونش في نومـــه كأنه راكب فيلاً يضرب نقيرة طبل ، فهالته الرؤيا وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبه احد ، فدسّ يهودياً عمن يعـــلم تأويلها من المسلمين ، فدلّ على معبّر ، فقصّها عليه ونسبها لنفسه . فقال له المعبّر : « كذبت ما هذه الرؤيا لك ، ولا أعبّرها لك ما لم تصدقني بصاحبها » . فقال له : « اكتم عليّ ، الرؤيا لأدفونش » . فقال المعبّر : « صدقت ولا يراها غيره ، والرؤيا تدلّ على بـــلاء عظيم ومصيبة فادحـة فيه وفي عسكره ، وتفسيرها قوله تعالى : ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ؟ وأمـا ضربه النقيرة فتأويلها : فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير » .

فانصرف اليهودي وذكر لأدفونش ما وافق خاطره .

ثم خرج ابن عباد من بلاد الأندلس وتقدّم السلطان يوسف فقصده ، وتأخّر ابن عباد لبعض مهماته . ثم انزعج يقفو أثره يجيش فيه حمـــاة الثغور ورؤساء الأندلس وجعل ابنه عبدالله على مقدمته وسار وهو ينشد لنفسه متفائلاً مكملاً البيت المشهور :

« لا بـــد من فـــرج قريب يأتيـــك بالعجب العجيـــب
غـــزو عليـــك مبـــارك سيعـــود بالفتـــح القـــريب
لا بـــد من يوم يكون له أخـــاً يـــوم القليـــب »

ووافت الجيوش كلها بطليوس فأناخوا بظاهرها ، وخرج اليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ، فلقيهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل الجهود .

وجاءهم الخبر بشخوص الادفونش . ولما ازدلف بعضهم الى بعض ، أذكى المعتمد عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكايد الادفونش إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذلك بنفسه حتى قيل ان الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلة لقضاء أمر او حاجة إلا ويجد ابن عباد بنفسه مطيفاً بالمحلة بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات .

وقد تقدّم كتاب السلطان يوسف الى الادفونش يدعوه الى إحدى الثلاث المأمور بها شرعاً ، فامتلأ غيظاً وعتا وطغا وراجعه بما يدلّ على شقائه . وقامت الأساقفة والرهبان ورفعوا صلبانهم ونشروا أناجيلهم وتبايعوا على الموت .

ووعظ يوسف وابن عباد اصحابهما ، وقام الفقهاء والصالحون مكان الوعظ ، وحضّوهم على الصبر والثبات وحذّروهم من الفشل والفرار .

وجاءت الطلائع تخبر ان العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم وهو يوم الاربعاء . فأصبح المسلمون وقد أخذوا مصافهم ، فعاد الادفونش الى اعمال المكر والخديعة فعاد الناس الى محلاتهم .

وكان تراثيم يوم الخميس وهو الثاني عشر من شهر رمضان ، فاختلفت الرسل بينهم في تقرير يوم الزحف ليستعدّ الفريقان فكان من قول الادفونش : « الجمعة لكم والسبت للهيود وهم وزراؤنا وكتابنا واكثر خدم العسكر منهم فلا غنى بنا عنهم . والأحد لنا . فاذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف ». وقصد مخادعة المسلمين واغتيالهم .

فلما كان يوم الجمعة تأهّب المسلمون لصلاة الجمعة ولا امارة عندهم للقتال ، وبنى يوسف بن تاشفين الأمر على ان الملوك لا تغدر فخرج هو

وأصحابه في ثياب الزينة للصلاة ، فأما المعتمد فانه أخذ بالحزم فركب هو وأصحابه شاكي السلاح وقال لأمير المسلمين : « صل في أصحابك فهذا يوم ما تطيب نفسي فيه وها أنا من ورائكم وما أظن هذا الخنزير إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين » .

وكان الفقيه الناسك ابو العباس احمد بن زميلة القرطبي رأى في نومه حلماً يقول انه رأى النبي صلعم تلك الليلة في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة ، فتأهب ودعا وتضرّع ودهن رأسه وتطيّب . وانتهى ذلك الى ابن عباد فبعث الى يوسف يخبره بها تحقيقاً لما توقعه من غدر الادفونش .

وكان قد جاء بالليل فرسان من طلائع المعتمد يخبر انهم أشرفوا على محلة الادفونش وسمعوا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة . ثم تلاحق بقية الطلائع متحققين بتحرك الادفونش . ثم جاءت الجواسيس من داخل محلتهم تقول : استرقنا السمع فسمعنا الادفونش يقول لأصحابه : « ابن عباد مسعر هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويون ، وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الحروب فهم غير عارفين بهذه البلاد وإنما قادهم ابن عباد فاقصدوه واهجموا عليه واصبروا فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم ان صدقتموه الحملة » .

فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر بن القصيرة الى السلطان يوسف بن تاشفين يعرّفه باقبال الادفونش ويستحث نصرته . فمضى ابن القصيرة يطوي المحلات حتى وصل الى يوسف بن تاشفين فعرفه بجلية الامر. فقال له : « قل له انى سأقرب منه ان شاء الله تعالى » . وامر يوسف بعض قواده ان يمضي بكتيبة حتى يدخل محلة النصارى فيضرمها ناراً ما دام الادفونش مشتغلاً مع ابن عباد .

انصرف ابن القصيرة الى المعتمد ، فلم يصله الا وقد غشيته جنود الادفونش ، فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله . ومال الادفونش عليه

بجموعه وأحاطوا به من كل جهة ، فهاجت الحرب وحمي الوطيس . واستمر القتل في اصحاب ابن عباد . وصبر ابن عباد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه وعضته الحروب واشتد عليه وعلى من معه البلاء ، وابطأ عليه الصحراويون . وساءت الظنون وانكشف بعض اصحاب ابن عباد وفيهم ابنه عبدالله واثخن ابن عباد جراحات وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغه وجرحت يمنى يديه وطعن في احدى جانبيه وعقرت تحته ثلاثة افراس ، كلما هلك واحد قدّم له آخر وهو يقاسي حياض الموت ويضرب يميناً وشمالاً . وتذكر في تلك الحالة ابناً له صغيراً ، كان مغرماً به ، تركه في اشبيلية عليلاً وكنيته ابو هاشم ، فقال :

ابا هاشم هشمتني الشفار فلله صبري لذاك الاوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يثنني ذكره للفرار

ثم كان أول من وافى ابن عباد من قواد بن تاشفين داود بن عائشة ، وكان بطلاً شجاعاً شهماً ، فنفس بمجيئه عن ابن عباد .

ثم اقبل يوسف بعد ذلك وطبوله تصعد اصواتها الى الجو . فلما ابصره الادفونش ، وجّه حملته اليه وقصده بمعظم جنوده ، فبادر اليهم السلطان يوسف وصدمهم بجمعه ، فردهم الى مركزهم وانتظم به شمل ابن عباد واستنشق ريح الظفر وتباشر بالنصر . ثم صدقوا جميعاً الحملة فتزلزلت الارض بحوافر خيولهم واظلم النهار بالعجاج والغبار وخاضت الخيل في الدماء وصبر الفريقان صبراً عظيماً . ثم تراجع ابن عباد الى يوسف وحمل معه حملة جاء معها النصر . وتراجع المنهزمون من اصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين وصدقوا الحملة ، فانكشف الادفونش وفر هارباً منهزماً وقد طعن في احدى ركبتيه طعنة ، بقي يخنع بها بقية عمره ، وذلك أنه لحق اسوداً نفذت مزاريقه فاهوى ليضربه بالسيف ، فلصق به الاسود وقبض على عنانه وانتضى خنجراً كان متمنطقاً به فاثبته في فخذه فهتك حلق درعه ونفذ من فخذه مع بداد سرجه . وكان وقت الزوال ، ولجأ

الادفونش الى تل كان يلي محلته في نحو خمسمائة فارس كل واحـــد منهم مكلوم ، فاتبعهم العرب يقتلونهم في كل وجه ، ونجا الادفونش في تسعة من اصحابه .

وعمل العرب من رؤوسهم مآذن يؤذنون عليهـا ، والمخذول ينظر الى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى الا نكالاً محيطاً به وبأصحابه .

واقبل ابن عباد على السلطان يوسف بن تاشفين وصافحه وهنأه وشكره واثنى عليه . وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه وجميل صبره وسأله عن حاله ، عندما اسلمته رجاله بانهزامهم عنـه ، فقال له : هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك .

وكتب ابن عباد إلى ابنه باشبيلية كتاباً مضمونه : « كتابي هذا من المحلة المنصورة يوم الجمعة الموفي الثالث عشر من شهر رمضان ، فالحمد لله على ما يسرّه من هذه النعمة الجسيمة في تشتيت شمل الادفونش والاحتواء على جميع عساكره ، اصلاه الله نكال الجحيم ولا اعدمه الوبال العظيم المقيم بعد اتيان النهب على محلاته واستئصال القتل في جميع ابطاله وحماته حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، فلله الحمد عـــلى جميع صنعه ، ولم يصبني والحمـد لله الا جراحات يسيرة آلمت ولكنها فرجت بعد ذلك فالحمد لله والمنة والسلام » .

واستشهد في ذلك اليوم ، جماعة من الفضلاء والعلماء واعيان الناس ، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة ، وقاضي مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودى .

ان موضع المعركة كان على اتساعه لا يوجد فيـه موضع قدم الا على ميت او دم . واقامت العساكر بالموضع اربعة ايام حتى جمعت الغنائم ، واستؤذن في ذلك السلطان يوسف بن تاشفين ، فعف عنها وآثر بها ملوك الاندلس وعرّفهم ان مقصده الجهاد والاجر العظيم وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم .

فلما رأى ملوك الاندلس ايثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه واحبوه وشكروا له ذلك .

ورحل المعتمد الى اشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين فأقام بظاهر اشبيلية ثلاثة ايام وردت عليـه من المغرب اخبار تقضي العودة ، فسافر وذهب معه ابن عباد يوماً وليلة فحلف ابن تاشفين وعزم عليه في الرجوع. وكانت جراحاته تورمت عليه ، فسيّر معه ولده عبدالله الى أن وصل الى البحر وعبر الى المغرب .

ولمـا رجع ابن عباد الى اشبيلية ، جلس للناس وهنيء بالفتح وقرأت القراء وقامت على رأسه الشعراء .

وترك السلطان يوسف بن تاشفين الامير سيري بن ابي بكر احد قواده المشاهير وترك معه جيشاً برسم غزو الافرنج .

اما الادفونش فانه تمكن من الهرب . وبعد مسيرة عشرين ميلاً وصل الى القلعة الاسبانية قوريه ، التي كان قد احتلها منذ تسع سنوات ، وسأل عن ابطاله وشجعانه واصحابه ، فلم يسمع سوى نواح الثكلى عليهم ، اغتم جداً ولم يأكل ولم يشرب .

كان انتصاراً عظيماً ، وزعت رؤوس القتلى ، من جنود الادفونش على جميع المدن العربية في الاندلس ، مثل سرقسطة وبلنسية واشبيلية وقرطبة ومرسية للادلال على الفوز ، وان خطر الادفونش قد زال عن العرب في اسبانيا ، فصاروا يستطيعون التنفس بحرية دون خوف من الادفونش أو البرهانيس . واتجهت عدة سفن محملة بهذه الرؤوس الى افريقية لتوزيعها على مدن المغرب اعلاناً بالنصر الكبير .

وكان العرب الاندلسيون لم يشاهدوا مثل هذه المنائر المبنية من الجماجم منذ عهد المنصور أي حوالي جيل .

عاد مجد العرب مشرقاً ، مثلما كان على عهد الناصر وابنه الحكم وأبي عامر المنصور .

ان معركة الزلاقة وضعت حداً لاحلام الادفونش ومطامعه في السيطرة على الاندلس واخّرت استرداد اسبانيا ثلاثة اجيال كاملة . فلو ان الادفونش انتصر في هذه المعركة الحاسمة لكان بسط نفوذه على الاندلس كله وحقّق حلمه ولسمّي بحق « سلطان الملتين » .

ولكنه ارتكب اخطاء كثيرة ، وارتكاب الاخطاء له عقاب والعقاب يشتد بقدر ما يكون الخطأ جسيماً . اخطاء في سوء معاملته وتصرّفه مع الملوك العرب ، فأذلهم ونقّص من قدرهم ، فأثار حفيظتهم وايقظ انفتهم وشهامتهم وكلهم لا يقلون عنه في شرف المحتد وكرم النسب وحريصون على كرامتهم ولا يقبلون بأي نحو من الانحاء ان يمسّها احد ، مهما علا شأنه وقوي سلطانه ، حتى يوسف بن تاشفين الذي أنقذهم من الادفونش ، تمرّدوا عليه وناصبوه العداء فيما بعد ، لأنه تعرّض لاستقلالهم .

أجل كان الادفونش يجهل النفسية العربية ، واعتد بذاته وبقوته فطغى وتجبر حتى ظن أن العالم كله ملك يديه وفي متناوله .

هذا من الناحية النفسية العربية ، ومن الناحية العسكرية اخطأ ايضاً خطأ كبيراً . كان عليه أن ينتصر في معركة الزلاقة ، فالآراء متفقة على ان جيشه كان اكثر عدة وعدداً من قوات الملوك العرب وجيش المرابطين مجتمعين . ومع ذلك فقد ابيد عسكره عن بكرة ابيه . فلماذا ؟ حاول استغلال عامل المفاجأة وتوجيه جميع قواته ضد جيش المعتمد ولم يحسب لجيش المرابطين حساباً ولم يدر في خلده ان هذا الجيش الطري يدخل بقواته الى المعركة وتكون له الضربة الحاسمة ، كما جرى .

امر جيشه بالهجوم في ساعة لم يكن يتوقعها الملوك العرب او بالأحرى ظن أن العرب لا يتوقعونها ، والامر لم يكن على هذه الصورة لأن المعتمد كان يحذّر يوسف بن تاشفين من مكر الادفونش ، فهو أعلم منه به وقد

بلاه سنوات طويلة . لم تنجح الخطـــة لأن المعتمد تلقى الصدمة الاولى بجأش وصبر لها حق وافته قوات المرابطين فانقذته من الخطر .

استحقر الادفونش من جهة أخرى قوة المعتمد وشك في مقدرته على الصمود طويلاً امام جيشه الذي يحارب فيه الملائكة والجن ، عـلى حدّ قوله . هذا الاعتداد بالنفس دفع ثمنه غالياً جداً .

هذا بالنسبة إلى الادفونش ، اما بالنسبة الى العرب ، فالمسألة هي حياة او موت . الفشل معناه الزوال ، معناه خسارة الارواح والاملاك والابعاد عن الاندلس ، كما يجري لهم في كل مرة يسترد الاسبان جزءاً من اراضيهم فيضطر السكان العرب الى النزوح عنهـــا الى مناطق عربية جديدة في الاندلس ، امـــا اذا ضاع الاندلس بكامله ، فالى اين ينزحون ؟ والشعب العربي الاندلسي اكثر وعياً من حكامه على الخطر الوشيك الوقوع ، لأن البلاء يقع دائماً على عامة الناس على الكادحين من ابنائه ، لأن الحكام في اغلب الاحيان ينجون من الموت او يصبحون حكاماً على مناطق أخرى ، كما تمّ للقادر ملك طليطلة ، خسر بلاده وملكه في هذه المدينة فنقـــله الادفونش الى بلنسية وجعله ملكاً عليها ، كما سنرى .

تردّد ملوك الطوائف قبل مساعدة المرابطين ، واذا طلبوا هذه المساعدة فبدافع من الشعب الذي يمثـــله الفقهاء والادباء والشعراء لأن هؤلاء الملوك يخشون على سلطانهم من يوشف بن تاشفين ولا يخشون عليه من الادفونش السادس لأنه قد يبقي عليهم كعملاء يستخدمهم لتنفيذ اغراضه في ابنـــاء رعاياهم فلا يعقل ان يقيم على هذه الرعايا العربية ولاة وحكاماً يجهلون النفسية العربية .

اما مع المرابطين ، فالامر على عكس ذلك ، الغمد لا يتسع لسيفين ، واذا طلبوا مساعدة يوسف ، فقد فضلوا الشر الادنى . ولو أن الادفونش احسن معاملتهم ، ولو بالظاهر ، لما فكروا بطلب مساعدة المرابطين الذين ليس طبعهم من طبعهم ولا عاداتهم مثل عاداتهم ولا لغتهم مثل لغتهم ، لأن يوسف ، كما رأينا ، كان يجهل العربية .

الشعب العربي في الاندلس يرى في المرابطين منقذيه من جور الحكام العرب الذين يرهقون كاهله بالضرائب الفادحة اشباعاً لشهواتهم وارضاءً لجشع ملوك الاسبان المتزايد سنة بعد سنة ، وملكاً بعد ملك . وفعلاً ، لما استولى ملك قشتالة الادفونش السادس على طليطلة ، كان من شأنه ان يترك العرب باحواز الموضع الذي يقصده فيزرعون الاراضي ، فاذا كثرت الغلات ، استكثر من الاحتشاد من رعيته فيستولون على ما كان العرب يستفيدونه لأنفسهم وينقل ذلك الى ثغوره المجاورة ليمير بها محلاته عند الحاجة لذلك . وضرب الجزية عليهم بما شاءه .

لما مات ابوه الملك فرننده وولي شانجه اخو الادفونش ، ذهب الناس في تقديم المال كالمعتاد ، فقال شانجه : « انما كان ذلك المال لفرننده وهو ثابت ابداً حسناته ، لا يزول وانما نصالحكم على ما يختص بي ، فاضعف العدد ». ثم هلك شانجه الثاني هـذا وولي بعده الادفونش السادس الذي نحن بصدده ، فسار بسيرة اخيه وضاعف العددين . فكانت الرعايا تتحمل هذه الاموال ، زيادة الى اموال الجباية المستقضاة بالعنف ، التي يقيم منها ملوكهم ما يختص بهم ، فباتت الحالة لا تطاق .

فلا عجب بعد هذا اذا استقبل الشعب المرابطين بالابتهاج ، عله ينقذهم من هذه الضرائب التي تثقل كواهلهم ، وملوكهم مسؤولون عنها بالدرجة الاولى . فلنسمع الشاعر الاندلسي ابا الحسن بن الجد يصف احوال الاندلس وما وصلت اليه من سيء الامر حتى جاء يوسف بن تاشفين :

« في كل يوم غريب فيه معتبر نلقاه أو يتلقانا بـــه خـــبر
ارى الملوك اصابتهم بأندلس دوائر السوء لا تبقي ولا تذر
قد كنت انظرها والشمس طالعة او صحّ للقوم في امثالها النظر
ناموا واسرى لهم تحت الدجى قدر هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من في كفّه قدح يحدو بـه ملهياه الناي والوتر
صمت مسامعه من غير نغمته ممـــا تقرّبـه الآيات والسور

تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه ... له خوار ولكن حشوه خور
من حوله كل مغتر وما علموا ... ان الذي زخرفت دنياهم غرر
فقل لمن نام : اصبحت انتبه فلقد ... مضى بك الليل نحباً وانقضى السحر
وانظر إلى الصبح سيفاً في يدي ملك ... في الله من جنده التأييد والظفر
يرعى الرعايا بطرف ساهر يقظ ... كما رعاها بطرف ساهر عمر
ردوا موارد قد اوردتم حنقاً ... بها الانام ولكن ما لكم صدر
كأنني بكم قد صرتم سمرا ... وما لكم في الورى عين ولا اثر
اماتكم قبل موت سوء فعلكم ... وكيف بالذكر إن لم تحسن السير

تلك حال ملوك الاندلس كما صوّرها هذا الشاعر . انقسموا الى دويلات وانصرفوا الى ملذاتهم . فقوي العدو عليهم وابتزّ اموالهم وخيراتهم وانتهك حرمتهم وكرامتهم حتى صار رسول الادفونش ، اليهودي بن شاليب يتجاسر على اعظم ملوك الطوائف ، المعتمد بن عباد ويهدده ويتوعده بأخذ عينيه . لما جاء الى اشبيلية عاصمة المعتمد ليقبض مال الجزية ، فهم برده معتلاً بسوء العيار ونقصان الاتاوة عن السنة الماضية وقال لوزير المعتمد : « بلّغ سيدك انه لا يحول الحول حتى آتي فآخذ عينيه » . فأين سمع بهذه الجسارة والوقاحة على ملك يعتبر من اقوى ملوك العرب في الاندلس آنذاك ؟ ولكن المعتمد ، لحسن الحظ ، تنبهت فيه كرامته ونبله فأمر بصلبه ولم ينفع اليهودي ابن شاليب توسله ، فقد شاء شراء حياته بوزن جسمه ذهباً ، فأجابه المعتمد : « لا والله ، ولا بثقله لآلىء ويواقيت .

ولم يخطر للادفونش ببال ان ملوك الطوائف يطلبون النجدة من المرابطين لأنها تكلفهم ملكهم وهم حريصون عليه كل الحرص ويريدون ابقاءه مهما كلفهم الامر ، وفي هذا أيضاً اخطأ حدس الامبراطور الادفونش لأنه يجهل الامثال العربية في هذا الموضوع : طفح الكيل . والامور اذا تناهت انتهت وبلغت النفوس الحناجر .

والخطة العسكرية التي اتبعها الادفونش في معركة الزلاقة فشلت ايضاً ، لم يدخل في حسابه مقاومة المعتمد الشديدة لأنه كان قصده القضاء عليه

بأسرع وقت ، ثم يتحول الى المرابطين فيسهل عليه قهرهم . فاستفاد يوسف بن تاشفين من انشغال الادفونش في مقاتلة المعتمد ، فوجه قوة من جنده الى معسكر الملك القشتالي ، فأعملت فيه الحريق والنهب ، ولما حاول انقاذ معسكره وجد ذاته بين فكي كماشة ، المعتمد ورجاله من جهـــة وقوات المرابطين من جهة ثانية ، فأبيد جيشه حتى لم يبق منه احد يخبر عما جرى في تلك المعركة المفجعة .

وخطة القتال التي سار عليهـا المرابطون ، ادخلت الرعب في قوات الملك الادفونش التي لم تتعوّد على اصوات الطبول المدوية وعـلى الزحف الجماعي المتراص بل على القتال الفردي ، رجل ضد رجل .

حاول « السيد » الاستفادة من جميع هذه الاخطاء التي ارتكبها سيده مع المرابطين ، كما سنرى في الفصول المقبلة .

* * * * * * *

- ٦ -

المشرق الاندلسي منذ اوائل القرن الحادي عشر – بلنسية : مبارك ومظفر وليا اولاً وكالة الساقية ببلنسية وصرفا عنها . ثم ضرب الدهر ضربته فقضى لمبارك بالامارة هنـــاك . وظهر من سياسة هذين العبدين الصقلبيين ، مبارك ومظفر في مدة امارتهما أن تعاملا كاخوين طوال حياتهما، نزلا يومئذ معاً في سلطانهما بقصر الامارة مختلطين تجمعهما في أكثر اوقاتهما مائدة واحدة ولا يتميز احدهما عن الآخر في ما يستعملونه من كسوة وحلية وفرش ومركوب وآلة ، لا ينفردان الا في الحرم خاصة . على أن جماعة حرمهما كن مختلطات في منازل القصر ومستويات في سائر الامر . غير ان لمبارك كان التقدم في المخاطبة هناك في حقيقة رسوم الامارة لفضل

صرامة كانت فيه ، يقصر عنها مظفر لدماثة خلقه وانحطاطه لصاحبه في سائر امره .

وبلغت جبايتهما لأول جبايتهما مائة وعشرين الف دينـــار في الشهر سبعون الف من بلنسية وخمسون الف من شاطبة .

ولحق بهم لأول امرهم من موالي المسلمين ومن اجناس الصقلب والافرنج والبشكنس عشيرتهم . ودرّبوا على الركوب حتى تلاحق ببلنسية ونواحيها من هؤلاء الاصناف فوارس برزوا في البسالة .

وانفتح على العرب ببلاد الاندلس امر شديد في اباقـة العبيد اذ نزح اليهم كل شريد طريد وكل عاق ، وزهدوا في الاحرار وأبنائهم ، وانتمت جماعة هؤلاء الاخلاط الممتهنة الى ولاء بني ابي عامر .

وطلب هذان العبدان لمـا اتسعت لهما الدنيا فاخر الاسلحة والآلات والخيل ونفائس الحلي والحلل ، فصارت دولتهم اثرى الدول ، ولحق بهما عريف كل صناعة ورئيس فنفق سوق المتاع لديهم وجلبت كل ذخيرة اليهم.

وبنيا بلنسية وسدا عورتها بسور ، احاط بمدينتها تحت ابواب حصينة فارتفع الطمع عنها ورحل الناس من كل قطر بالاموال اليها . واستوطنها طائفة من جالية قرطبة القلقة الاستقرار فبنوا بهـــا المنازل والقصور ، واتخذوا البساتين الزاهرة واجروا بها المياه المتدفقة وسلك مبارك ومظفر سبيل الملوك الجبابرة في اشادة البناء والقصور .

واتسع الخرق في عظيم ذلك الانفاق ، فمنهم من قدرت نفقته على منزله بمائة الف دينار وأقل منها وفوقها .

كانا عبدي مهنة لمولاهما مفرج العامري ، وكانا من الجهل والافن واللكنة كما يقول ابن عذاري ، يحسبان انهما نالا ذلك السلطان بالاستحقاق وان لهما على الايام ديناً ، يضطهدان الرعية بسلطانهما ولا يعبآن ، يقلدانها شرار العمال ويستزيدان عليها في الضرائب الثقال حتى غدا كثير منهم يلبسون الجلود والحصر ويأكلون البقل والحشيش وفرّ اكثرهم من قراهم .

وكان سبب موت مبارك احدهما ، انه ركب يوماً من قصر بلنسية يبغي الخروج للنزهة خارج البلد على فرس مطهم ، واهل بلنسية يستغيثونه في ان يرفق لهم في مال كان فرضه عليهم . فقال لهم يومئذ : اللهم ان كنت لا اريد انفاقه فيما يعمّ المسلمين نفعه فلا تؤخر عقوبتي الساعة .

ثم ركب اثر ذلك ، فلما أتى القنطرة وكانت من خشب ، خرجت رجل فرسه فرمى به واعترضته خشبة نائية من القنطرة شدخت وجهه وسقط الفرس عليه وكسر عظامه وفتق بطنه وفاضت نفسه لوقته وآمن اهل البلد من مقتله فثاروا يومهم ذلك ونهبوا قصره .

وكانت ولايته ثلاث سنوات ، ١٠١٥ - ١٠١٨م.

ولاية لبيب الصقلبي : لما مات مبارك اتفق اهل بلنسية على تقديم لبيب الصقلبي هذا فأحدث فيهم احداثاً مقتوه لاجلها فلاذ بالافرنج حتى صيّر نفسه كبعض عمالهم ، ففاظهم ذلك اذ جعلهم تحت رحمة ملك الاسبان فوثبوا عليه واستصرخوا ابن هود فجاء لنجدتهم ووقعت بينه وبين الصقلبي هذا واليفه مجاهد حروب استولى فيها ابن هود على دانية ، كما رأينا .

عبد العزيز بن ابي عامر ١٠٣٠ - ١٠٦٠ م ٤١٧ - ٤٥٢ هـ : وكان الموالي العامريون عند ذهاب لبيب ومجاهد ١٠١٨ - ١٠٣٠ عنهم ، قد اسندوا امرهم الى مشيخة منهم . وتشاوروا في ارتقاء أمير منهم يعترفون له فاتفقوا على ابن مولاهم عبد العزيز هذا إيثاراً له على ابن عمه محمد بن عبد الملك ، وكان محمد مقيماً بقرطبة وعبد العزيز بسرقسطة ، فلحق ببلنسية واستقبله الموالي افواجاً ينخعون له بالطاعة وقلدوه رئاستهم سنة ٤١٧ هـ .

وكان عبد العزيز هذا من اوصلهم لرحمه قد بعثه الله رحمة للممتحنين من اهل بيته فأواهم وجبر كسيرهم الى ان بلغ من ذلك مبلغاً اعيا ملوك

زمانه ، وخاطب الخليفة القاسم بن حمود بقرطبة ولاطفه بهدية حسنة فتقبله وسماه ذا السابقتين ، ولقّبه بالمؤتمن. فتوطد سلطانه واشتمل على خدمته اربعة من الكتاب كانوا يسمون الطبائع الاربع ، وهم ابن طالوت ، وابن عبد العزيز وابن التاكرني كاتب رسائله ، ولم تزل حاله تسمو حتى اتصل بوزارته فنال جسيماً من دنياه .

وفي أيام عبد العزيز هذا ، كانت الوقيعة ببطرنة على المسلمين ، وذلك ان قطعة من الروم زلفت إلى بلنسية فاناخت عليها ، واهلها يومئذ جاهل غر قد خلوا بشهواتهم وانخدعوا باغفاء الدهر عن عثراتهم مغفلين للتدبير فطار بهم الذعر كل مطار . ثم كابدهم العدو باظهار الاضطراب والاستتار عن عيونهم ببعض تلك الهضاب استدراجاً لهم ، فماج رعاعهم وتنادى بالنفير صناعهم حتى قيل ان مخنثين تناديا الى الخروج وقد ايقنا بسبي العدو فهما يتنازعان المنى ويقولان نحن اعلم بغفلات القنى وهذه أشفى لبعض الصدور . وخرجا ولا سلاح الا رشا يتجاذبانه . ثم اصطلحا فاقتسماه .

وساعد اولئك الرعاع الخائنين اميرهم يومئذ المترف عبد العزيز بن أبي عامر ، فخرج بالعير والنفير يحسب الطعن كالقبل وبطن السيف كالمقل . فظفر العدو بهم فأتاهم من ظهورهم وحكم السيف في جمهورهم . ولم يبق الا من هو طويل العمر ، وتحصن ابن ابي عامر بربوة بين لمة من فرسانه ينشد هذا البيت والذعر قد عقد لسانه :

« خليلي ليس الرأي في صدر واحد اشيرا عليّ اليوم ما تريان »

عبد الملك بن عبد العزيز ١٠٦٠ – ١٠٦٤ م : ولما هلك عبد العزيز سنة ٤٥٢ هـ. اجتمع اهل دولته على تولية ابنه عبد الملك وهو صبي لم يبلغ الحلم ، وقام له بالامر كله كاتب والده المدبر لدولته ابن رويش القرطبي ، وكان موصوفاً بالرجاحة ، فأحسن معونته وتولى تمهيد سلطانه ، واستقر امره .

المأمون (ملك طليطلة) ١٠٦٤ – ١٠٧٥ م : وجاءت سنة ٤٥٨ ، نهض صاحب طليطلة يحيى بن دنون الملقّب بالمأمون ، الى صاحب بلنسية عبد الملك بن عبد العزيز بن ابي عامر وكان صهره وتزوج بنته ، بعد وفاة اخيه عليها ، فأساء عشرتها واهانها فاتصل ذلك بأبيها فحقد عليه وعمل مع الوزير ابن عبد العزيز الملقب بابن روبش القرطبي ، على الغدر به وصرف البلد الى المأمون . وكان عبد الملك بن عبد العزيز هـذا خليعاً مائلا الى الفتيان مع خدر كان بـــه . فقدم عليه المأمون من طليطلة على سبيل الزيارة ، وكانت بنته قد توفيت عنه قبل ذلك فنزل خارج البلد بعسكره ، فخرج اليه عبد الملك بن عبد العزيز وأدخله قصره ليبالغ في اكرامه وترفيعه ولا علم له بمـــا ينطوي عليه . وكان ادخل معه فتيانه وعبيده ، فأقام عنده اياماً . ثم قبض عليه وعلى ابنه واخرجا معاً ليلا الى مدينة شانت بريا من بلد ابن دنون ، فأقام فيها يسيراً ثم هلك . ولحق ابنه بسرقسطة فمات بها وانقطع اسم عامر ، وحصل شرق الاندلس لابن دو النون على هذا الوجه دون كلفة ولا مشقـــة . فحسده على ذلك امراء الاندلس ، ومكث ملكاً على بلنسية حتى سنة ١٠٧٥ م وهي سنة وفاته .

الوزير ابو بكر بن عبد العزيز ١٠٧٥ – ١٠٨٥ م : تولى امر بلنسية بعد موت المأمون ملك طليطلة وكان هذا الوزير احـد رجال الكمال في الاندلس وعين بلنسية التي بها تبصر ولسانها الذي يتكلم . وكان الادفونش السادس الذي مارس رؤساء اهل الاندلس بكثرة مداخلته معهم في امر بلادهم يقول اذا جرى ذكر الوزير ابي بكر بن عبد العزيز : « رجال الاندلس ثلاثة » فيعد فيهم ابن عبد العزيز .

عثمان بن ابي بكر ١٠٨٥م : لم يطل امره لأنه بعد سقوط طليطلة في يد الملك الادفونش السادس وكان عليها يحيي القادر حفيد ابن دنون المأمون ، التجأ الى ملك قشتالة هذا ، أي الادفونش ، فأقامه ملكاً على بلنسية بعد ان وجّه معه جيشاً حتى دخلها في السنة نفسها . وسيأتي الكلام عنه في الفصول القادمة

- ٧ -

مصالحة السيد مع الملك الادفونش : ادرك الملك الادفونش السادس، بعد فوات الاوان ، خطأه الكبير في السياسة التي اتبعها ازاء ملوك الطوائف الذين اضطروا الى مساعدة المرابطين ، فعاد الاتصال من جديد بين العدوتين، بين الاندلس العربي والمغرب الافريقي .

وتجاه هذه الوحدة الجديدة ، رأى سلطان الملتين الامبراطور الادفونش ان يعمل على إيجاد اتحاد مسيحي ، فبعث الرسل الى مـــا وراء الجبال البرانيس طالباً المعونة ، ومهدداً الملوك الاوروبين بتحالفه مع العرب وتركه لهم الباب مفتوحاً للدخول الى فرنسا اذا لم يجد المساعدة المطلوبة .

لاقى هذا النداء والتهديد التأييد المطلوب عنـد الفرنسيين ، فتجنّد الكثيرون منهم ، ولكن استغرق اعدادهم زمناً طويلاً حتى ربيع سنة ١٠٨٧ اي سنة كاملة بعـــد اندحار الزلاقة ، فدخل جيش افرنسي الى الاراضي الاسبانية وحاصر مدينة تطيلة . ولمـا رأى أن لا فائدة ترجى من هذا الحصار ، ارتد الى ما وراء الجبال .

وفكّر الادفونش ايضاً في السيد القنبطور الذي عاش طيلة هـــذه السنوات محجوباً ؛ لقد كسفه مجد الامبراطور . غير ان هذا لانت نفسه بعد اندحار الزلاقة ، وكانت عواطفه صادقة هذه المرة ، أكثر من الماضي بعد فاجعة الروضة .

تمّت المصالحة في ربيع ١٠٨٧ م في طليطلة بعد ان قضى السيد ستة اعوام في المنفى ، اي منذ سنة ١٠٨١ م ، وكان قد تزوج سنة ١٠٧٤ م.

وكان السيد في بلاط بني هود في سرقسطة قد جمع ثروة لا يستهان

بها . فدعا اليه البرهانيس وقال له : خـذ مائتي جواد كهدية مني الى الملك الادفونش .

فقطع البرهانيس الجبال والوهاد ، حتى وصل الى بلد الوليد حيث يقيم الملك . ولمـا سمع الادفونش بقدومه ، خرج للقائهم ، فترجل البرهانيس وصحبه عن خيولهم وسجدوا امام الملك وقدّموا له الهدية من رذريق .

فقبلها الملك بكل طيبة خاطر وشكر السيد عليها ، وقال : « اليوم يبعث الي السيد هذه الجياد ، وفي المستقبل انتظر منه اكثر من هذا » ، وأنعم على البرهانيس بالخلع السنية .

ودعا الملك البرهانيس وبطره برمودس رفيقه على حدة وقال لهما :

« اسمعا جيداً ، ان القنبطور يخدمني اصدق الخدمات ، اني أمنحه عفوي عن استحقاق كامل . فليأت الي ، إذا كان يرغب » .

فقال البرهانيس : « سنقوم بما طلبته منا أيها الملك ، وهو يقرّر ما يراه موافقاً » .

– قولا له ايضاً : « ان المقابلة تتمّ حيث يريد هو ، ارغب في مساعدة السيد على قدر الامكان » .

وودّع البرهانيس ورفيقه بطره الملك ورجعا الى الاجتماع بالقنبطور ، وخرج هذا للقائهم وعانقهما قائلاً : ما وراءكما من الأنباء عن سيدي الملك الادفونش ؟ هل سرّ بالهدية ؟

– كل السرور ، وقال : انه يرغب في مقابلتك حيث تشاء وفي أي موضع تراه ، وعند ذلك يمكنك ان تكشف دخيلتك ؟

– بكل طيبة خاطر .

– فكـّر إذاً في الموعد وفي المكان .

– اذا طلب مني الملك ان اذهب اليه فأنا على اتمّ الاستعداد واعتبر

هذا الطلب فخراً عظيماً . ولكن بما انه يرغب في مقابلتي فليكن مكان اجتماعنا على نهر التاجه في طليطلة .

وكتبوا رسالة بهذا الموضوع الى الملك الادفونش ، يقولون فيها : « ان القنبطور طوع اوامركم ، فعيّنوا النهار » .

وبعثوا الرسالة مع رجلين .

وصلت الرسالة الى الملك فتقبّلها بكل ارتياح وقال : فلتكن المقابلة بعد ثلاثة اسابيع .

ورجعا واخبرا القنبطور ، وابتدأت الاستعدادات من الطرفين لهذه المقابلة .

ورافقت الملك الادفونش السادس حاشية كثيرة العدد .

والقنبطور من جهته اعدّ الرحلة برفقـــة البرهانيس وبطره برمودس ومرتين مونيس وغيرهم من فرسان السيد الذين يعتمد عليهم في الملمات .

وخرجوا من سرقسطة قاصدين طليطلة . والملك الادفونش وصل الى المكان قبل السيد بيوم واحد . ولما ابصروه عن بعيد ، خفّوا لاستقباله وعـــلى رأسهم الملك . وترجّل السيد مع خمسة عشر من فرسانه والقى بنفسه عـــلى الحضيض وعلى العشب واسترسل في النحيب . فتأثر الملك الادفونش من هذا الموقف وامر السيد بالنهوض وقال : « قبّـــل يدي لا رجلي وإلا فلا نصيب لك معي » .

وكان السيد ما يزال على ركبته ساجداً فقال : « رحمة اطلب منك يا مولاي ومليكي ، وانا ساجد امامك بمرأى الجميع » .

ـ غفرت لك من كل قلبي ، واتقبلك في مملكتي منذ هذا اليوم .

ـ شكراً يا مولاي ، اقبل غفرانك واشكر الله اولاً وانتم ثانياً ، وهؤلاء الذين يحيطون بنا .

وكان ما زال ساجداً على قدمي الملك ، فقبّل يده ، ثم نهض وقبّله الملك في فمه وابتهج الجميع الا غرسيه اردونيس فقد ساءه هذا التصرف .

ـ شكراً للباري تعالى لأني نلت هذا العفو من سيدي الملك الادفونش، اذا اردتم سيدي فأنتم من ضيوفي .

ـ ليس من العدل لأنك وصلت منذ برهة ونحن هنـــا منذ أمس ، فأنت ضيفي وغداً يكون لك جميع ما تشتهي .

فقبّل السيد يد الملك .

ومنح الملك الادفونش القنبطور عـدة قلاع وقرى على نهر الدويره ، واصبح من حاشيته في برغش طيلة ما تبقى من سنة ١٠٨٧ وسنة ١٠٨٨م قضاهما إلى جانبه مخمول الذكر .

وفي النصف الثاني من سنة ١٠٨٨ ، توجّه القنبطور الى سرقسطة فقد ارسله الملك الادفونش السادس معتمداً على خبرته القديمة في تلك الاراضي ليستطلع الامور . لأن الادفونش بعد الهزيمة الكبرى التي اصابته في الزلاقة قرب بطليوس رأى ان يترك هذه المناطق الغربية من الاندلس بطليوس واشبيلية ، حيث خلّف يوسف بن تاشفين جيشاً قوامه ثلاثة آلاف رجل تحت تصرّف المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، وهم من أشد الفرسان مراساً .

والناجية الشرقية من الاندلس لم يصل اليها المرابطون بعـــد ، وهذه المناطق تشمل منطقة لرده ، بلنسية ، دانية ، مرسية ، المرية ، والبنت . فما كاد ابن تاشفين يعود الى افريقية حتى شرعت القوات الاسبانية المرابطة في قلعة لبيط بقيادة غرسيه شيمانس ، تشن الغارات عـــلى مملكة المرية ومرسية ولرقة المتاخمة لمملكة المعتمد بن عباد في اشبيلية .

* * * * * * *

- ٨ -

طمع ملك لرده في بلنسية : لما تخلى الادفونش بعد معركة الزلاقة عن التدخل في شؤون بلنسية ، حيث نصّب يحيى القادر ملكاً عليها ، بعد ان نزع منه مملكة طليطلة ، رأى القادر ان يعقد اتفاقية مع امير المسلمين يوسف بن تاشفين . ولكن هذه الاتفاقية لم تجده نفعاً ، فالامراء العرب الذين كانوا يدفعون الجزية للقادر ملك بلنسية تمنعوا عن دفعها ، ومن بينهم الحاجب صاحب لرده وطرطوشة ودانيه . وإذا القينا نظرة على الخريطة نرى أن مملكة الحاجب المشكّلة من لرده وطرطوشة ودانية لا تربطها وحدة ، اذ ان بلنسية تقع بينها ، فأراد توحيد هذه المملكة باحتلاله مملكة القادر في بلنسية ، فاستأجر بعض الجنود المرتزقة من قطالونية وحاصر بلنسية معتمداً أيضاً على مساندة الكثيرين من ابنائها المتذمرين من حكم القادر الملك الدخيل .

فلما رأى ملك بلنسية ان اعداءه يحيطون به من كل جانب ، عجّل في طلب المساعدة من الامبراطور الادفونش ، الذي اقامه ملكاً على المدينة وعرض عليه موقفه الصعب ، وفي الوقت نفسه طلب مساعدة المستعين ملك سرقسطة .

جاء ملك سرقسطة إلى مساعدة يحيى القادر لأنه كان يطمع في الاستيلاء على بلنسية ووجد الفرصة مؤاتية ، والسيد موجود عنده فاقنعه في التوجه معه لمساعدة القادر ملك بلنسية ضد الحاجب ملك لرده ، ولم يطلعه على نيته في احتلال المدينة . وقدّم له جميع ما يحتاج من المال ليساعده في ادراك غرضه دون ان يدرك ان فوات السيد تفوق ثمانية اضعاف ما لديه من قوى .

ولما سمع الحاجب ملك لرده بقدوم اخيه ملك سرقسطة بصحبة السيد لم يشأ انتظارهما وقتالهما فانسحب مع حلفائه القطلانيين .

وعند ذلك اتصل القادر سراً بالقنبطور ، حتى يعقد معـــه معاهدة صداقة ، دون علم المستعين ملك سرقسطة ، لأنه خشي على ملكه من جاره العربي ، ومن ناحية أخرى فان قوات القنبطور تصل إلى ثلاثة آلاف رجل بينما قوات المستعين لا تزيد عن اربعمائة فارس ، ففضل القادر حراب القشتاليين على سيوف المستعين لأن هذه الحراب قادرة وحدها على الدفاع عنه .

وصل رسل القادر ملك بلنسية الى معسكر القنبطور حاملين له الهدايا النفيسة من سيدهم واخبروه ان القادر كان قد طلب مساعدة الملك الادفونش قبل ان يطلب مساعدة المستعين ملك سرقسطة . وهكذا تم عقـد معاهدة بين ملك عربي ضعيف ومحارب قشتالي قوي قبل ان يصل هـذا الاخير إلى بلنسية .

ولما وصل القنبطور الى المدينة ، كشف له المستعين عن دخيلة امره ، طالباً منه المشورة ، فأجابه السيد : كيف اساعدك للاستيلاء على بلنسية وهي ملك الامبراطور وقد سلمها الى القادر ، فأنا لا اقوى على صنع ما يخالف مشيئة سيدي الامبراطور ، فاذا اتفقت معه على تسليمها اليك كان به والا فلا تنتظر مني مساعدة ضد الملك الادفونش السادس .

فلما رأى المستعين الثاني ان لا سبيل للوصول الى مساعدة من القنبطور عاد الى سرقسطة .

ثم وجّه القنبطور رسالة إلى الملك الادفونش يخبره فيهـا عن شؤون بلنسية وعن الفوضى والبلبلة السائدتين فيها ، مؤكداً له ان كل ما يعمله ويحتله يكون باسم الامبراطور .

وافق الادفونش على هـــذه الشروط ، فشرع السيد في استثمار تلك الاراضي العربية المجهولة ، فبعث رجاله يشنون الغارات هنا وهناك . ولما سأله العرب : لماذا تتصرّف هذا التصرّف ؟ اجابهم : لا بد من اطعام رجـــالي .

درس الاراضي وعرف عوراتها . ثم توجّه راجعاً الى قشتالة ليعقد اتفاقاً مع الامبراطور ينص على أن جميع الاراضي العربية التي يحتلها السيد تصبح له ولذريته من بعده .

وبينما كان القنبطور في قشتالة يفاوض الملك الادفونش ، اخذت المشاكل في بلنسية تتعقد اكثر فأكثر .

لما رأى ملك سرقسطة ان السيد لا يسايره بل يفضل مصالح الامبراطور على مصالحه ، قطع علاقاته به وهو صديقه القديم . وعندما درى قند برشلونه عدو السيد الدائم ، حاول استغلال الفرصة باشغال المركز الذي شغر في سرقسطة بتخلي السيد عنها ، فتوجّه الى تلك المدينة فاستقبله المستعين الثاني ملكها بكل حفاوة وعقد معه معاهدة صداقة وأعطاه كمية كبيرة من المال وارسله لمحاصرة بلنسية مستفيداً من غياب السيد عنها ، فقاوم القادر يحيى هذا الحصار منتظراً وصول النجدة من رذريق السيد .

وكان القنبطور بعد ان تمّ الاتفاق الذي أشرنا اليه مع الامبراطور ، استقرّ بعض الوقت في قشتالة ، حيث جمع جيشاً يصل عدده الى سبعة آلاف رجل بين فارس وراجل . فاجتاز المنطقة الجنوبية من مملكة سرقسطة ونصب خيامه في السهلة ALBARRACIN في محلة اسمها كلمتشه CALAMOCHA واحتفل بعيد العنصرة المصادف تلك السنة ٢٠ ايار ١٠٨٩.

وصلت اليه وفود ملك السهلة أبي مروان بن رزين ، وتمت الاتفاقية على ان يدفع ابن رزين الجزية للملك الادفونش كالسابق قبل اندحار الزلاقة ، عشرة آلاف دينار في السنة للقنبطور سفير الملك الادفونش السادس .

وبنو رزين هم من ملوك الطوائف من اكابر برابر الثغر ، والسهلة متوسطة ما بين الثغرين الاعلى والادنى من قرطبة ، وأبو مروان بن رزين هذا كان جده هذيل بن خلف بن لب بن رزين سما لاول الفتنة التي شبّت في قرطبة إلى اقتطاع عمله وانفصاله عن العاصمة الاموية تشبهاً بجاره اسماعيل

بن دنون في الشرود عن سلطان قرطبة ، وسلم من الفتنة اكثر وقته وتخطته الحوادث لقوة سعده .

وليس في بلد الثغر أخصب بقعة من السهلة .

وابو مروان هذا يجيد نظم الشعر ، فقد اخبر الكاتب ابو جعفر بن سمدون ، انه اصبح يوماً بحضرته وللرذاذ رش ، وللربيع على وجه الارض وقد صقل الغمام الازهار حتى أروى عطشها فكتب اليه :

فديناك لا يستطيعك النظم والنثر فأنت مليك الارض وانفصل الامر
مريناً نداك الغمر فانهل صيباً كما سكبت وطفاء او فتق الزهر
وجاء الربيع الطلق يندى غضارة فحيتك منه الشمس والروض والنهر
وما منهم الا اليك انتماؤه جبينك والجود المتمم والبشر
خلا منك دهر قد مضى بعبوسه فلما اتت ايامك ابتسم العصر
فبشرت آمالي بملك هو الورى ودار هي الدنيا ويوم هو الدهر

فاجابه أبو مروان بن رزين :

اليك فلولا انت لم ينظم الدر ولا التأم في مدح نظام ولا نثر
اذا قلت لم ينطق فصيح مدرّب ولا ساغ في سمع غناء ولا زمر
لك السبق كم روّضت من عاطل الربى وحلت من سحر وقد حرّم السحر
ولما ملكت القول قسراً وعنوة اطاعك جيش النظم وائتمر النثر
فلا نقل الا ما تقول بديهة ولا خمر ما لم تأت من فمك الخمر

وكبا به فرسه يوماً وقد ركب متصيداً ، فسقط سقطة اوهنت قواه ودعته إلى ملازمة مثواه . وبلغه ان احد حساده شمت بوقعته وسرّ بصرعته ، فقال :

اني سقطت ولا جبن ولا خور وليس يدفع ما قد شاءه القدر
لا يشمتن حسودي ان سقطت فقد يكبو الجواد وينبو الصارم الذكر
هذا الكسوف يرى تأثيره ابداً ولا يعاب به شمس ولا قمر

وتوجّه رذريق السيد بعد هـذا إلى جبال البنت ، حيث يملك نظام الدولة عبدالله بن قاسم الفهري الذي خلف أخـاه حق استولى المرابطون على مملكته سنة ٤٨٥ هـ. (١٠٩٢م) . خرّب القنبطور اراضي عبدالله وتوجّه بعد ذلك الى القلاع القريبة فأرغمها عـلى تسليم الجزية المتأخرة للملك بلنسية .

وأصحاب مدينة البنت استولوا عليها منـذ اول الفتنة الكبرى في قرطبة . واول من تأثل بها عبدالله إلى أن هلك سنة ٤٢١ هـ ثم ولي بعده محمد ابنه الملقب بيمن الدولة واستمرّت ايامه فيها الى سنة ٤٣٤ . ثم ولي بعده ولده احمد بن محمد بن عبدالله الملقّب بعزّ الدولة . وكان موته في رجب من هذه السنة . فنصب اصحابه بعده ابناً له صبياً ابن سبع سنين أو نحوها ، يسمى محمداً وسموه بالامارة مكانه وتخطوا بهـا عمومته ، اذ آثره بها شيخ دولتهم المسمى « قاسم » ، جد هذا الغلام ابو امه . ودبر الامر باسمه شهوراً الى ان يدرك .

فأنف عمه ابن محمد من ذلك وواطأ في السر جماعة من اصحاب اخيه على الوثوب بقاسم هذا وازالة امر ابن ابنته ، ليقوم هو مكانه ، خوفاً على ما في ايديهم . فتهيأ له ذلك ، ووثب بقاسم فقيّده وحبسه . وصرف الصبي ابن اخيه الى حجر امه ، ونكحها . وتصالح مع والدها المحبوس في يده وخلى عنه واعاده الى ما كان عليه مع اخيه صهره الاول . وقام بالامارة مقام اخيه المتوفى وتسمي نظام الدولة .

وفرض رذريق الطاعة وتأدية الجزية على امراء آخرين .

وترك السيد بعد ذلك كلاموشه وتوجّه إلى ضيعة قريبة من مورباطر (ساغونته الحالية) . ولم يشأ ان يحارب القند برنجير المحاصر مدينة بلنسية لأنه من انسباء الملك الادفونش ، فتبودلت الرسائل بينهما ورأى القند ان يفك الحصار عن المدينة ويرجع الى برشلونه بلده .

ولما علم القادر ملك بلنسية بوصول السيد الى نصرته ، بعث له بالهدايا

النفيسة والخلع السنية وصار يدفع له الجزية وهي الف دينار في الاسبوع. ومقابل ذلك ، ارغم السيد القواد اصحاب الحصون المجاورة على دفع الضريبة في حينها للقادر ويدافع عنه ضد جميع اعدائه ويسكن في بلنسية في ربض خاص .

وانذر قواد القلاع بدفع الضريبة لملك بلنسية ، كما كانوا يفعلون في الماضي ، فلم يخالف احد منهم لأنهم جميعهم يرغبون في صداقة القنبطور وكسب وده .

وهكذا فان السيد دبر الامور في المشرق الاندلسي لصالح قشتالة افضل بكثير مما كانت عليه قبل معركة الزلاقة . وقد اصبح اخضاع بلنسية والسهلة والبنت أمراً واقعاً . ومع ذلك ظل الملك الادفونش غير راض تمام الرضى عن تصرّفه .

* * * * * *

- ٩ -

المنفى مرة أخرى : لم تترك معركة الزلاقة في المنطقة الشرقية من الاندلس تأثيراً يذكر ، فالى جانب الانتصارات التي احرزها السيد في هذه الناحية ، احرز غرسيه خيمنس انتصارات أُخرى في قلعة لبيط وهي قاعدة يحتفظ بها الاسبان ضمن الاراضي العربية .

بعد اندحار الزلاقة ، عزّز الادفونش السادس حامية قلعة لبيط وامر قائدها غرسيه باجتياح منطقة لورقه التابعة لمملكة المعتمد بن عباد في اشبيلية عقاباً له على التجائه الى المرابطين . وكانت قلعة لبيط قد عززت لدرجة انها اصبحت قادرة على ان تضم بين جدرانها اثني عشر الف مقاتل.

فأخذت هذه الحامية الكثيرة العدد ، رضوخاً لأوامر الملك الادفونش

السادس ، تشن الغارات بتواتر على منطقة مرسية وتمتدّ إلى ولاية المرية ، فتنهب وتقتل كلما وجدت الى ذلك سبيلا . فضاع الامان والسلام في تلك الناحية بسبب هذه القلعة .

ورأى المعتمد انها اهانة موجهة اليه . فلورقه ملكه ولا يمضي عليها يوم دون أن تتعرّض لهجمات هذه الحامية . فقام بحملة ضدها على رأس قوات عربية ومرابطية ولم يوفق .

فلما اقتنع من عجزه ، وجّه رسالة إلى يوسف بن تاشفين يرغب اليه العودة مرة اخرى الى الاندلس . وكان سبق أن توجّه الى المغرب عدد من الفقهاء من بلنسية ومرسية ولورقـة وبسطة ليعرضوا على ابن تاشفين سوء الحالة في المشرق الاندلسي ، متذمرين بنوع خـــاص من القنبطور وبسطوا له مصير العرب المقيمين في لورقة والمعرضين في كل وقت لغزوات الاسبان المتحصنين في قلعة لييط . فاقتنع يوسف بن تاشفين بكلامهم وعزم على العودة مرة أُخرى الى الاندلس .

رجع يوسف الى الاندلس سنة ٤٨١ هـ. وكتب الى الملوك العرب يدعوهم إلى القتال في سهول لييط بمرسية ، فوافاه المعتمد ملك اشبيلية وعبدالله ملك غرناطة ، والمعتصم بن صمادح ملك المرية وابن رشيق ملك مرسية ، ومن قوات محمد بن لبون وابن عيسى حاكم لورقة .

وفي هذه الاثناء ، حاول ملك المرية ان يثـير سخط يوسف بن تاشفين على المعتمد ملك اشبيلية . وهذا من جهته اتهم ابن رشيق صاحب مرسية بأنه يمالىء الملك الادفونش سراً . فطلب يوسف الى الفقهاء ان ينظروا في القضية ، فوجدوا ملك إشبيلية على حق فألقى القبض عـلى ابن رشيق وسلّم إلى المعتمد ، فاستاءت القوات الموالية له ورفضت ان تقدم المؤن والذخائر وادوات الحصار بعد ان كان امتد هذا اربعة اشهر ونفد الماء عند المحصورين في قلعة لييط واصبحت حالتهم تنذر بالويل .

ودرى الادفونش بالمصير المشؤوم الذي ينتظر رجاله في تلك القلعة ،

فكتب إلى رذريق السيد ، يأمره حالاً بالتوجه ال مساعدتهم . فأجاب انه مستعد لإجابة اوامر سيده الملك . وشد رحاله وسار حتى وصل الى شاطبة . وهناك تلقى الاوامر من جديد لكي ينتظر الملك في « فليانه » واعلمه الرسول ان الادفونش جمع جيشاً قوامه ثمانية عشر الف رجل .

توجّه السيد الى « انينته » حيث الكلأ كثير ، اذ في « فليانه » الاراضي قفراء . ودسّ الطلائع في تلك الانحاء حتى « شنشله » لكي تخبره عن قدوم الملك لينضم اليه مع قواته . ولكن الادفونش غيّر خطة مسيره ، فبدل ان يتوجّه الى فليانه ، كما اعلم السيد ، وصل الى « مولينه » على فرسخين من مرسية .

لم ينتظر يوسف تاشفين وصول القوات الاسبانية ، فانسحب الى لرقة ثم المرية ومن هناك البحر الى افريقية .

وصل الملك الادفونش الى قلعة لييط فوجدها في حالة يرثى لها من الويل والخراب . اين حاميتها المؤلفة من اثني عشر الف رجل ؟ لم يبق منها سوى مائة فارس فقط ، على آخر رمق من حياتهم والباقون ماتوا من الجوع او في محاربة العرب . كان ذلك سنة ١٠٩٠ م.

زوّد الملك الادفونش القلعة من جديد بالرجال والعتاد وعاد الى قشتالة ولم يتمكن رذريق من الاتصال به .

صارت الوشايات من جديد تلعب دورها في البلاط ضد السيد ، حتى قيل انه تخلى عن ملكه الادفونش حتى يقتل مع جنوده في محاربة العرب.

ولم يكن الادفونش بحاجة الى هذه الاتهامات ، حتى يصب غضبه على السيد ، فنزع منه جميع املاكه والقرى والقلاع التي كان وهبه اياها والقى عائلته في السجن ، بموجب القوانين المرعية الاجراء في ذلك العهد التي تسمح بمعاقبة اهل المجرم حتى الموت ، اذا كانت التهمة الموجهة اليه تتعلق بسلامة الدولة او بخيانة الملك .

فلما علم السيد بالبلية التي لحقت به وبعائلته ، بعث احد اخصائه الى

الملك لينفي هذه التهمة الشائنة عنه ، فلم يسمع الملك اي عذر واي مدافعة عن النفس من هذا القبيل ، غير انه سمح لشيانه وأولادها باللحاق بزوجها بعد أن اطلق سراحها .

وتجاه هذا الامر الواقع اراد السيد تبرير نفسه من التهم المنسوبة اليه فكتب الى الادفونش ما يلي : « انا رذريق ، احلف ايها الرجل الذي تتهمني بقضية تخلفي عن اللحاق بالملك في قلمة لبيط . لم اتخلّف عن الذهاب الا لسبب واحد وهو جهلي موعد وصول الملك وهو جهل غير مقدور الدفع . انتظرته في فليانه وصنعت كل ما أمرني به سيدي الملك في رسالته . فأنا لم ارتكب الخيانة لا بالفكر ولا بالقول ولا بالفعل حتى تلحقني هذه الاهانات ويحتقرني الملك ، كما فعل . وإذا كنت اقسم باطلا فليسلمني الله الى يدك او يسلم الفارس الذي يناضل عني الى يديك حتى تصنع بنا ما تريده . ولكن اذا كنت صادقاً فلينجني الله الحاكم العادل من هذا الذنب المنسوب اليّ » .

فلم يسمع له الملك الادفونش ، فأرسل اليه القسم الثاني : « احلف لك ايها الفارس الذي ينازلني من قبل الملك ، انه منذ ان نلت العفو من سيدي ومولاي ومولاك الامبراطور الادفونش في طليطلة حتى اليوم الذي حبس فيه على امرأتي واولادي بقساوة بالغة وسلب مني اموالي وأرزاقي وضياعي الكائنة في مملكته ، لم اتلفظ بما يمس كرامته ولم افكر بشيء يسيء اليه ولم افعل امراً يضرّه لكي يسجن امرأتي ويلحق بي هذا الضرر الكبير ويحتقرني امام جميع الناس على هذا الشكل » .

لم يرضَ الادفونش سماع هذه الكلمات ولم يكشف اسم الواشي ولم يسمح للسيد بالدفاع عن نفسه لأن سلطة الملك مطلقة في القرن الحادي عشر .

علينا ان ننتظر جيلا كاملا حتى نسمع الادفونش التاسع يقسم انه لا يحكم على احد قبل سماع دفاعه عن نفسه أو يكشف اسم الواشي ويرغم هذا على إثبات ادعائه بالبراهين والادلة .

السيد في المشرق الاندلسي

دخل يوسف بن تاشفين للمرة الثانية الى الاندلس على أمل ان ينقذه من القنبطور ومن قلعة لييط. وعند انسحابه الى المرية ترك جيشاً جراراً بقيادة محمد بن تاشفين لينجـــد بلنسية ضد رذريق . وأبحر من الجزيرة الخضراء عائداً الى المغرب .

وعندما رأى العرب في بلنسية ان ابن تاشفين ترك لهم هـذا الجيش لحمايتهم وان الامبراطور حاقد على رذريق ، اعتقدوا انهم نجوا نهائياً منه ، والقادر نفسه امتنع عن دفع الجزية التي تعهّد بتأديتها .

وجد القنبطور ذاتـه وحيداً كما كان في المنفى الاول ، وتجمّع حوله أعداء لم يكونوا أعداءه في الماضي . عادى ملك سرقسطة حليفه السابق حباً بالملك الادفونش السادس ، واليوم تخلى عنه الادفونش وتخـــلى عنه فرسان كثيرون من قشتالة . وعادى ملك ارغون وقند برشلونة وصاحب لرده وبلنسية . رأى كل مـا بناه قد تهدّم بسرعة في المشرق الاندلسي وان جيشاً من المرابطين يتحيّن الفرص للانقضاض عليـه . قرّر العودة الى بلنسية المنطقة المتأججة السعير ، وسيعمل هـذه المرة لحسابه الخاص دون ان يخضع لأي ملك او أمير .

السنة ١٠٩٠ توجّه السيد الى مقاتـلة عدوّه الحاجب ملك لرده المقيم في اراضيه بدانيه فاجتاح جميع الاراضي الواقعة بين أرهولة وشاطبة ولم يترك فيها حجراً على حجر ، وكان يبيع السلب في بلنسية بأبخس الاثمان .

استقرّ في عين داره واحتفل بعيد القيامة ٢١ نيسان ١٠٩٠ ، ووصلت اليه رسالة من صاحب لرده يطلب فيها السلام ، فرضي السيد حالاً وتوقف عن غزو أراضي دانية وتوجّه الى بلنسية .

ولما رأى القادر صاحب بلنسية ان الحاجب ملك لرده اقام معاهدة سلام مع رذريق خاف على نفسه ان يخلعه القنبطور لصالح ملك لرده ، عقد اجتماعاً استمع فيه الى نصائح مستشاريه وقرّر ارسال الهدايا الثمينة الى السيد لتجديد الصداقة القديمة بينهما ، وقـــد استفاد القادر صاحب بلنسية من هذه المصالحة مع رذريق لأن اصحاب القلاع الذين كانوا قـد تمنعوا عن دفعة الجزية للقادر لما رأوا السيد قـد تخلى عنه ، فعادوا الى دفعها لما علموا برجوع السيد اليه .

وعندما رأى الحاجب ان بلنسية قـد خضعت للسيد عمد الى حبك مؤامرة لطرد رذريق من تلك الاراضي اشترك فيهـا ملك ارغون وقند برشلونة الذي يضمر عداوة قديمة له .

اما السيد فراح يتوغل في اراضي صاحب لرده فدمّر الزرع والضرع عندما تبينت له مؤامرة الحاجب ضده .

وأمام هذا الخراب الذي ألحقه السيد في أراضيه بعث يطلب مساعدة برنجير قند برشلونة وتوجّه الى دروكه لزيارة ملك سرقسطة . فالخوف من رذريق جمع بين ملك لرده هذا وقند برشلونة وملك سرقسطة ، ومـع ذلك فالقند لم يكن مطمئناً يريد انضمام الامبراطور الادفونش الى هـذا الحلف .

ذهب برنجير والمستعين ملك سرقسطة لمقابلة الامبراطور في ارون على نصف ميل من محـــلة مرنـده MIRANDA في ممتلكات غرسيه اردنس وطلبا اليه ان يساعدهما ضد رذريق . وتبجّح برنجير قند برشلونة أمام المستعين والملك الادفونش : انـه على كل حال قادر على طرد السيد من طرطوشة ولكنه يحترم الملك الادفونش لأن رذريق كان من صنائعه .

لم يلقيا أذناً صاغية عند الادفونش ، فعادا وجمعـا قوّات عظيمة من الاسبان والعرب في محلة كلموشه ظناً منهما ان السيد عندمـا يصل اليه نبأ الحشد يولي الادبار ، كما وان فرسان القند يعدّون من أشد الابطال مراساً .

كان رذريق معسكراً في طوبر TOBAR ، وهي وادٍ له ممرّ واحد فبعث المستعين يخبر السيد ان القند يريد قتاله فليكن على حذر . فأجاب رذريق الرسل باسماً : اشكر صديقي المستعين من كل قلبي لأنه كشف لي النقاب عن نوايا قنـــد برشلونة ، ولكن احتقر القند وجميع رجاله وأنا انتظرهم هنا بعون الله .

نصب القند خيامـه قريبة من معسكر السيد وبعث الجواسيس وبث الارصاد لتفقد مواقعه فوجدوا ان معسكره على سفح جبل .

وفي اليوم التالي تحـــدّى رجال القند السيد طالبين منه الخروج الى السهل ليرى من يكون الغالب ، فأجاب السيد : « ليس لي من رغبة في القتال ، أريد النزهة في هـذه الاصقاع مع رجالي . فتقدّموا من محلاته يصرخون ويشتمون والسيد لا يعبأ بصراخهم وشتائمهم .

ورأى قند برشلونة ان يكتب رسالة الى السيد يقول فيها :

« أنا برنجير ، قند برشلونة ، اخاطبك يا رذريق باسمي وباسم جنودي . قرأنا الرسالة التي وجهتهـا الى المستعين وفيها تهزأ بقوتنا وتستصغر قدرنا مما ملأ قلوبنا غيظاً . ألم تكفك الاهانات الماضية التي ألحقتها بنا ؟ استياؤنا منك لا حد له . فبقدر مـا نتهاون في الصبر على هذه الاساءات بقدر مـــا تسترسل في غلوائـك وصلفك . لا يزال المال الذي سلبته منا في قبضتك ، والله القادر على كل شيء ينتقم لنا منك لكل هـذه الاهانات التي تعرّضنا لها من قبلك ، والاهانة الكبرى انك شبهتنا بالنساء ، فهذا الهزء لا يرضينا . نطلب من الله ان يلقيك بين أيدينا لنبيّن لـك اننا فوق ما ذكرت وان شجاعتنا تفوق قليلاً شجاعة النساء » .

« وقلت للملك المستعين ايضاً : اننا اذا لم نخرج لقتالك فانـك خارج لقتالنا لا محالة ، قبل ان تصل الى منثون . واذا تأخرنا في النزول اليك فانك طالبنا في السهل وفي الوعر . بحقك لا تقلل من قدرنا بهذا المقدار ، وجدنا انك في حمى هذه الجبال تقاتل ، ورأينا ايضاً ان الغربان والصقور

والنسور وجميع انواع الطيور هي آلهتك لأنك تثق بها اكثر من وثوقك بالله ، أما نحن فاننا نعبد الله الواحد الذي سينتقم لنا منك ويسلمك الى ايدينا . غداً ان شاء الله سترانا قريبين منك جـــداً فاذا كنت تدعى القنبطور كما يسمونك ، تخرج الى لقائنا في السهل وتترك هـذا الجبل . واذا لم تصنع هذا ندعوك كاذباً دجالاً . سوف لن يجديك نفعاً ادعاؤك وغرورك ، إنّا قاصدونك ولا نرجع عنك الا قتيلاً أو اسيراً في ايدينا مصفداً بالاغلال ، سنصنع بـك مـا صنعت بنا والله ينتقم لكنائسه التي دنستها وهدمتها » .

فلما قرأ السيد هذه الرسالة أجاب عليها في الحال قائلاً :

« أنا رذريق باسمي وباسم رجالي أتوجّه اليك والى اصحابك ايها القند وأهديك السلام اعلم اني قرأت رسالتك وبقي معلوماً لديّ كل مـا جاء فيها . وبشأن الرسالة التي وجهتها انا الى المستعين فكل مـــا جاء فيها صحيح من الاستخفاف والاستهزاء بك ، لم أعبأ بأمرك وما زلت غـــير عابىء وأذكر لك الاسباب . لما كنت الى جانب المستعين في قلعة ايوب قلت له : اني ، أي السيد ، لا اتجاسر ان أطأ هذه الاراضي خوفاً منك ، وردّد هذا الكلام بعض رجالك في حضرة الملك الادفونش وأمام عدد من القشتاليين ، وانت ذاتك ايضاً قلت لأدفونش انك خارج لقتالي وانك قاهرني وطاردني من اراضي الحاجب واني لا اتجاسر على انتظارك فيها . لا اتماسك عن الضحك . واذا كنت اشبهكم بالنساء فما ذاك الا لأنكم لم تظهروا قوة اكثر من قوة النساء . لم يبق لك الآن عذر في تخلفك عن قتالي فـاذا أبيت ازددت أنا اعتباراً في عيون الناس وعن جـــدارة واستحقاق ، واذا اردت الخروج للقائي فأنا جئت لهـــذا الغرض ولست اخشاك ، ولا اخالك تجهل الأذى الذي اصابك مني . ولا اجهل تعاقدك مع الحاجب على طردك لي من ارضه وأرى من واجبك انجاز الوعد الذي أخذته على نفسك ولكن لا تجسر على اتمامه . لا ترهب الانقضاض عليّ فأنا بانتظارك في السهل كما ترغب ، واذا تمنعت عن القتال لا يكون فيه

صالحك لأني اكتب الى الملك الادفونش والى المستعين اذكرهما بتبجحك ويتمنعك عن الخروج لقتالي فيعرف الخاص والعام من العرب والاسبان ، كما يعرفون انك وقعت أسيراً في قبضتي وأموالك وأموال جنودك مـــا زالت بيدي . تدعي بأخذي اسيراً او قتيلاً ، ولكن ما لنا ولهذا الكلام الفارغ فالسلاح يقرّر المصير . تعال ولا تبطىء فتنال اجورك مثل العادة » .

فاحتدم برنجير الثاني غيظاً عند قراءة هذه الرسالة ، وعقد مع خاصته مجلساً قرروا فيه ارسال فصيلة من الفرسان تحت ستار الليـــل لاحتلال معسكر السيد ، وبقي هو مع قسم من جنوده على فم الوادي طريق ليسد طريق الهرب والقسم الآخر من جنوده بعثه الى المرتفعات للاستيلاء عليها وبذلك يكون قد طوّق السيد من جميع النواحي .

وجاءت المفاجأة غـــير سارة للقند فان القوات التي بعثها لاحتلال المرتفعات سقطت في الكمين الذي نصبه لهـــا السيد وأبيدت عن بكرة ابيها وسقط اكثرها في الاسر .

وفي هـــذه الاثناء كانت القوات التي توجهت الى معسكر السيد في الليل لترغمه على الهرب نحو المنطقة التي يظنونها قد سقطت بأيدي اخوانهم هجمت في الصباح الباكر والقند من جهته هجم على مدخل الوادي ودارت المعركة حامية اسفرت عن وقوع خمسة آلاف اسير من رجال القند وهو نفسه سقط اسيراً ، وسقـط السيد عن صهوة جواده في المعركة فترضض جسمه ولكن رجاله واصلوا القتال بعزم شديـد حتى استولوا على خمسة آلاف اسير من رجال القند واستسلموا الى نهب المعسكر ووضعوا السلب أمام السيد حتى يوزّعه بعدالة فيما بينهم ، ولم يبقوا على شيء من الاواني الذهبية والفضية والاقمشة الغالية والبغال والدواب والدرق والاسلحة على اختلاف انواعها .

وغنم السيد في هذه الحملة السيف العظيم « كولادا » الذي لم يفارقه فيما بعد ، وأطلق سراح الاسرى بعد ان وعدوه بتقديم فدية .

ولما علم الحاجب عدو السيد التقليدي بما وقع لحليفه القند في غاب طوبار ، استولى عليه الغم واليأس ولم يطل أمده حتى مات .

وأطلق سراح القند ، وانتقل السيد الى اراضي المستعين ومرض مرضاً شديداً ، وعاده قند برنجير واعداً اياه بالمساعدة وانه يرغب في مصادقته .

ووقعا معاهدة صداقة وتوجّها سوية نحو الشاطىء فنصب السيد خيامه في بريانه وعاد القند الى بلاده .

وخلّف الحاجب ولداً صغيراً سليمان بن هود ، تعهّد اوصياؤه بتقديم خمسين ألف دينار للقنبطور في السنة عن أراضي دانية وطرطوسة ولرده .

وفي بلنسية كان السيد يأمر وينهي ويُطاع ، والقـــادر كان ملازماً الفراش بصورة مستمرة فلا احد يبصر له وجهاً حتى ظنّ الناس انه مات .

وهكذا فان السيد بمفرده اظهر عن سياسة بارعة وشجاعة نادرة قهر قند برشلونة وأخضع المشرق الاسباني بكامله إذ جميع ملوك الطوائف في تلك المناطق صارت تدفـــع له الجزية . غير انـه بقي عليه ان ينازل الزحف الافريقي الجديد .

* * * * * *

القسم الخامس

جهود ضائعة

- ١ -

خلع ملوك الطوائف

حاول السيد ان يخلق في المشرق الاسباني بعـــد معركة الزلاقة شبه محمية وتوصّل الى هدفه ، غير ان المحافظة عليها ليست من الامور السهلة. فوجود المرابطين في الجنوب وفي الغرب من شبـــه الجزيرة يبعث روحاً جديدة اسلامية مليئة بالرجاء في خلع النير الاسباني .

اشتغل السيد لتثبيت دعائم ملكه في بلنسية ليشن منها الغارات على الغزاة الافريقيين وحاول بشتى الوسائل استمالة رعاياه العرب ليقصيهم عن المرابطين ، فحكم بينهم بالعدل ولم يسلبهم اموالهم ولم يحتقرهم كما فعـــل البرهانيس قبل باسم الامبراطور الادفونش .

وهذا أدرك من جهته ان سياسة العنف مع العرب لا تفيد ، ولا بد من اتباع سياسة بعيدة عن التعسف وشبيهة بالسياسة التي يسلكها رذريق في بلنسية . نـــدم على سوء تصرّفه مع الملوك العرب ، شاء اخضاعهم بسرعة وساهم جميع انواع الذل بالمغارم الباهظة التي فرضها عليهم ناهيك عن نزع الاراضي والقلاع منهم . والآن يريد اقناع العرب انه لا يبغي منهم لا اراضي ولا ضياعاً ولا قلاعاً ولكن عليهم ان يعمـلوا على طرد المرابطين من الاندلس .

لم تلاق سياسة التقرب هـذه في بادىء الامر اذناً صاغية ، فالاهانات التي ألحقها بهم الملك الادفونش لم يطل عهدها ، ومعركة الزلاقة وما رافقها من انتصارات ما زالت ماثلة امام الاذهان . ولهذين السببين ذهبت وعود الادفونش في الهواء .

غير ان المنافسة بين المرابطين وملوك الطوائف أخذت تشتد شيئاً فشيئاً لاسيما بعد حادثة لييط ، لدرجة ان المعتمد بن عباد نفسه وملك غرناطة عبدالله حفيـد باديس وغيرهما قاموا باتصالات سرية مع الملك الادفونش السادس ، وتعهّدوا له بأنهم لا يقدّمون للمرابطين اي مساعدة ويسلمونه ممالكهم على شرط ان يبقيهم حاكمين عليهـا . انهم يخشون على انفسهم من المرابطين اكثر من الادفونش عدوّهم التقليدي .

وحينما جاء يوسف بن تاشفين الى الاندلس في سنة ١٠٩٠ م لم يقدّموا له مساعدة كما وعدوا الادفونش بـل على العكس وضعوا العراقيل أمامه في الجهاد .

قصد يوسف استرجاع طليطلة من يـد الاسبان . تلك كانت رغبة شعبية شاملة ، وحاصر المدينة وحـده دون مساعدة الاندلسيين وتوصّل الى دك بعض اسوارها ولم يتوصل الى احتلالها لأن الادفونش حصّنها تحصيناً قوياً . وجاء ملك ارغون شانجه يشد ازرها ، فتخلى عنها يوسف دون نتيجة ، وهذا الفشل أثار حفيظته ضد ملوك الطوائف .

ورجال الدين من جهتهم لم يرضوا عن حياة الترف التي يعيشها ملوك الطوائف يثقلون كاهل الشعب بالضرائب لسد نفقاتهم المتزايدة ، والأمان مفقود في الانـدلس ، والخطر الاسباني جـاثم على الصدور والاستياء على اشده بين طبقات الشعب .

عبدالله بن بلقين بن باديس بن حبوس

جئنا على ذكر عبدالله هذا صاحب غرناطة مراراً في هذا الكتاب . ولاستيفاء الكلام عنه نذكر قصة والده بلقين والاسرائيلي بن نغراله وزير جدّه باديس ، وكان قد نشأ لباديس ولده المسمى بلقين ، فرشحه لولاية عهده ولقبه سيف الدولة وكان منحرفاً عن اليهودي المذكور منكراً استيلاءه على الملك وتقديم اليهود من قومه وابعاد العرب ، فصار يتشكى منه الى والده حبوس . وكان اليهودي قـــد بث جواسيسه في القصر فنقلوا اليه تحريضات بلقين به عند ابيه ، فاعمل الحيلة على بلقين باستدعائه الى مجلس شراب احتفله له ، وسقاه كأس سم ، قضى منه نحبه .

ولما بحث ابوه باديس عن أمره ، صرف اليهودي ابن نغرالة التهمة الى طائفة من فتيان بلقين وجواريه وقرابته . فعاث فيهم باديس قتلاً وابادة ففرّوا عنه وفسدت له قلوبهم . وعظم استيلاء اليهودي وزير باديس و كثرت فيـــه الاقوال ورمي بمداخـلة ابن صمادح صاحب المرية في تصيير ملك باديس اليه .

وقال المولى العابد أبو اسحق الالبيري ، قصيدة يخاطب فيهـا باديس ويحرّضه على اليهودي ابن نغراله :

الا قل لصنهاجة اجمـين بدور الزمان وأسد العرين
مقـــالة ذي مقة مشفق يعد النصيحة زلفى ودين
لقـــد زل سيدكم زلة تقربهـا اعين الشامتـين
تخير كاتبـــه كافراً ولو شاء كان من المؤمنين
فعزا اليهود به وانتخبوا وتاهوا وكانوا من الارذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى وقد جاز ذاك وما يشعرون
فكم مسلم راهب راغب لارذل قرد من المشركين
وما كان ذلك من سعيهم ولكن منا يقوم المعـــين

فهلا اقتدى فيهم بالاولى ... من القادة الخيّرة المتقين
وانزلهم حيث يستاهلون ... وردهم اسفل السافلين
وطافوا لدينا بأفواجهم ... عليهم صغار وذل وهون
ولم يستخفوا بأعلامنا ... ولم يستطيلوا على الصالحين
اباديس انت امرء حاذق ... تصيب بظنك مرمى اليقين
فكيف تحب فراخ الزنا ... وقد بغضوك الى العالمين
وكيف استنمت الى فاسق ... وقارنته وهو بئس القرين
وقد انزل الله في وحيه ... يحذّر من صحبة الفاسقين
فلا تتخذ منهم خادماً ... وذرهم الى لعنة اللاعنين
فقد ضجت الارض من فسقهم ... وكادت تميد بنا اجمعين
وكيف انفردت بتقريبهم ... وهم في البلاد من المبعدين
على انك الملك المرتضى ... سليل الملوك من الماجدين
وان لك السبق بين الورى ... كما انت من جلة السابقين
واني احتللت بغرناطة ... فكنت اراهم بها عابثين
وقد قسموها واعمالها ... فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها ... وهم يخصمون وهم يقصمون
وهم يلبسون رفيع الكسا ... وأنتم لاوضاعها لابسون
وهم امناكم على سركم ... وكيف يكون امينا خؤون
ويأكل غيرهم درهماً ... فيقصى ويدنون اذ يأكلون
وقد ناهضوكم الى ربكم ... فما يمنعون وما ينكرون
وقد لابسوكم باسحاركم ... فما تسمعون ولا تبصرون
وهم يذبحون بأسواقنا ... وانتم لا طريفهم آكلون
ورخم قردهم داره ... واجرى اليها نمير العيون
وصارت حوائجنا عنده ... ونحن على بابه قائمون
ويضحك منا ومن ديننا ... فأنّا الى ربنا راجعون
ولو قلت في ماله انه ... كمالك كنت من الصادقين
فبادر الى ذبحه قربة ... وضحّ به فهو كبش ثمين

ولا ترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرّق عراهم وخذ مالهم فأنتم أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غدرة بل الغدر في تركهم يعبثون
فقد نكثوا عهدنا عندهم فكيف تلام على الناكثين
وكيف يكون لنا همة ونحن خمول وهم طاهرون
ونحن الاذلّة من بينهم كأنّا اسأنا وهم يحسنون
فلا ترضَ فينا بأفعالهم فأنت رهين بما يفعلون
وراقب الهك في حزبه فحزب الاله هم المفلحون

فثار بهم باديس ، وتيقن العامة اعراضه عن اليهود وعمله على نكبتهم فزحفوا الى دار ابن نغراله فاقتحموها وانتهبوها واخفى اليهودي نفسه في بيت ملآن فحماً وسوّد به وجهه وتنكّر ، فأخرجوه وقتلوه وصلبوه على باب المدينة ، وقتل في هذا اليوم آلاف من اليهود وذلك سنة ٤٦٩ هـ.

وولي بعد باديس ، حفيده عبدالله هذا ، ابن ابنه بلقين الذي قتله اليهودي ابن نغراله بالسم .

ابتدأ يوسف بن تاشفين بخلع عبدالله حفيد باديس . وقد حركه اليه اغراء طائفة من خدامه ، لحقت بالامير اللمتوني واتهمت عبدالله بتجديد الاسوار ومراسلة صاحب قشتالة وغير ذلك من التهم التي لا تخلو من الصحة. فوجّه الجيش الى منازلته وقصده بنفسه ، فتبادر اليه رعايا عبدالله معلنين الطاعة ليوسف بن تاشفين .

ولما رأى اختلال حاله ونكول اهل غرناطة عن الدفاع عنه ، استشار صنائعه ، فأشاروا له بالخروج الى الامير يوسف والالقاء باليد اليه . فكان ذلك . فتلقّاه يوسف ، هو وامه على فرسخين من المدينة ، فترجّل عبدالله وسأله العفو ، فعفا عنه وامره بالركوب فركب والتفت به الخيل ، فانزل في مضرب عيّن له . وكان خلع عبدالله بن بلقين في شهر رجب من سنة ٨٤٣ هـ. وخلع ايضاً اخاه تميم بن بلقين عامله في مالقة لما اتصلت

به الشكوى من اهل المدينة ، فرفع حكمه واكبله بسبب الوشايات ، ونمي عنه انه اطلق لسانه عند القبض عليه في جهة السلطان ، فخصه بالنفي الى السوس . واسكن اخاه عبدالله بمدينة آغمات ، الى ان عفا عن تميم فسكن بمراكش حتى مات بها سنة ٤٨٨ ، فانقضى امر باديس وعقبه على هذا السبيل .

******

- ٢ -

خلع المعتمد بن عباد

ظن المعتمد ان يوسف بن تاشفين يرضى عنه ويسلمه غرناطة ، لأنه تخلى له عن الجزيرة الخضراء . فذهب مع المتوكل ، صاحب بطليوس يهنئه بما فعله مع ملكي غرناطة ومالقة . فلم يحسن مقابلتهما ، فعادا إلى مملكتهما والخوف يملأ قلبيهما ، يخشيان المصير نفسه ، الذي لاقاه ملك غرناطة عبدالله حفيد باديس . وشرع المعتمد في تحصين مدينة اشبيلية وتقوية اسوارها . واخذ ولي عهده يذكره بالماضي . وكان عليه أن يتفق مع الادفونش ، فأجاب المعتمد : « ما العمل يا ولدي ، اذا قضت هكذا مشيئة الله » .

وقبل ان يبحر يوسف الى افريقية ، استشار الفقهاء في الاندلس والمغرب بشأن الجهاد ، فقدموا الفتوى القائلة : « ان ملوك الطوائف لا يستحقون ان تطلق عليهم هذه الالقاب وقد اخلّوا بشروط الجهاد ، ويجب خلعهم عن عروشهم » . ولما اعترض يوسف بقوله انه أقسم بابقائهم على عروشهم . لما جاء الى الاندلس في المرة الاولى ، اجابه الفقهاء : لم يبروا بقسمهم ووعودهم ، تعاقدوا مع الادفونش ضدك ، فاخلعهم ونحن المسؤولون امام

الله والبلاء يقع علينا . واذا تركتهم وشأنهم يسلمون الاراضي العربية الى الاسبان وأنت تكون المسؤول . واتهموا المعتمد صاحب اشبيلية باستسلامه إلى شهواته الحسية وانجرافه في تيار حظيته الرميكية التي أفسدت عليه دينه لدرجة انه لا يحضر صلاة الجمعة في المسجد الاكبر .

ووافق فقهاء العراق ومن بينهم الطرطوسي والغزالي على فتوى فقهاء الاندلس . فنفّذ الحكم بقوة السلاح . وفي أوائل كانون الاول ، ابتدأ القتال ضد المعتمد ، فاستولى المرابطون على مدينة طريفة .

ندم المعتمد ، بعد فوات الاوان ، لأنه طلب مساعدة المرابطين ، فأرسل يستنجد بالامبراطور الاسباني الادفونش ، الذي قرّر التدخل لصالحه . ورفريق حاول من جهته صيانة الشرق الاسباني من الخطر الافريقي .

لم يشأ الامبراطور ان يجابه قائد يوسف بن تاشفين سير بن ابي بكر الذي ضرب الحصار على اشبيلية ، فقرّر مهاجمة غرناطة لمساعدة انصار ملكها عبدالله المخلوع .

ولى شهر آذار من سنة ١٠٩١م وفرض ضرائب باهظة حتى على الذين لا يدفعون الضرائب لجمع الاموال ، وحشد جيشاً قوياً ينطلق به الى غرناطة .

وحاولت الملكة التوفيق بين السيد والامبراطور ، فكتبت الى القنبطور تخبره عن عزم زوجها في مهاجمة غرناطة والسيطرة عليها ؛ فاذا انضم السيد إلى القوات الملكية ، يربح محبة الله والملك الادفونش .

ووصلت الى السيد رسائل أخرى من الزعماء القشتاليين بهذا المعنى . وكان يحاصر « لريه » من اعمال بلنسية ، وكانت على وشك الاستسلام . غير انه رغبة منه في ارضاء الملكة ، فك الحصار عن المدينة وتوجّه لملاقاة جيش الامبراطور في مرطش . والامبراطور من جهته اسرع الى ملاقاة السيد بكل ترحيب في بينوس بونتي ، على بضعة أميال من مدينة غرناطة .

فنصب الملك الادفونش خيامه عند منعطفات جبال البيره . ووصل السيد الى انقاض البيره ، آخر الجميع ، تاركاً وراءه جيش الامبراطور . وتقدّم نحو غرناطة ودخل في غوطتها ونصب فيها خيامه ، ليسهر على سلامة الملك ويلقي عليه عبء الاصطدام الاول مع العدو .

غير ان الملك لم تعجبه الفكرة ، فقال لجلسائه : انظروا كيف ان السيد وصل آخر الجميع وتقدمنا لينصب خيامه امام خيامنا . فوافق الحاضرون على كلامه متهمين السيد بالصلف . وأخذت هذه الروح الضعيفة تسود في صفوف القوّات الاسبانية وتفقدها قوتها .

ظلّ الادفونش ستة ايام امام غرناطة دون ان يهاجمها . والمرابطون من جهتهم لم يقوموا بأي هجوم . فقرّر الملك العودة الى طليطلة ، عن طريق آخر ، ونزل في قلعة اوبذة . والسيد الذي يجهل غضب الادفونش عليه ، عسكر في السهل ومضى للسلام عليه ، فاستقبله استقبالاً جافاً بارداً والصق فيه تهماً مختلفة . وكلما حاول السيد الدفاع عن نفسه يشتدّ غضب الملك ، حتى هدده بالسجن .

واقبل المساء ورأى السيد أن موقفه لا يحسد عليه وان حياته في خطر ، غادر سراً القلعة ووصل الى معسكره فوجد النفوس غير مستقرة لأنه وصل اليهم نبأ غضب الملك . فترك قسم كبير منهم ، زعيمهم السيد وانضمّوا الى القوات الملكية .

حزن رذريق حزناً شديداً لهذا الفشل . فمن جهة ، أغضب الملك على غير قصد منه . ومن جهة ثانية ، تخلى عنه عدد كبير من رجاله . فعاد الى بلنسية بما بقي معه من القوات وهو يعض البنان ندماً على تركه تلك الاصقاع أملاً في المصالحة مع الملك .

قد يكون الحسد من جملة العوامل التي حملت الملك الادفونش السادس على كره السيد . فلم ينظر بعين الرضى إلى السهولة التي بها بسط رذريق نفوذه على السهلة والبنت وبلنسية ودانية وطرطوسة .

وقلق الادفونش من مجرى الاحداث على الحدود الجنوبية من مملكته. فقائد يوسف بن تاشفين هاجم المعتمد بن عباد ووضع الحصار على اشبيلية وقوات اخرى افريقية هاجمت جيان وقرطبة والرندة حيث يحكم ولده الراضي.

كان يحكم قرطبة ابن المعتمد واسمه فتى المأمون ، وجد انه لا يقوى على الدفاع عن المدينة . ارسل عائلته الى قلعة المدور . ولم تلبث قرطبة أن سقطت في ايدي المرابطين وفتى المأمون قتل في ٢٦ آذار ١٠٩١ م.

ولما ضاق الامر بالمعتمد ، جدّد مراسلة الامبراطور الادفونش يستصرخ به ويعده بتسليم اشبيلية اليه ، اذا استخلصها من المرابطين . فبعث اليه جيشاً ، اوقع بالمرابطين المحاصرين لأهل جيان . ثم وصل الاسبان الى « بلمة » من احواز اشبيلية . ودارت بينهم وبين جيوش المرابطين وقعة تناصف فيها المسلمون . عند ذلك يئس ابن عباد وايقن بالغلبة . وترامى الناس من فوق اسوار اشبيلية ، واستدعى اهلها امراء المرابطين . وركب المعتمد يوم اقتحام البلد ، في منتصف رجب من سنة ٤٨٤ هـ. وعليه قميص يشف عن بدنه ، وقد اعتزل السلاح ، والسيف منتضى بيده ، وحمل على الداخلين ، فردّهم على اعقابهم وقتل منهم فارساً . وانزعج الناس امامه ، وخلفوا الباب . فأمر بسده وعاد الى القصر . وإلى تلك الحال يشير بقوله :

كم رمت يوم نزالهم ... ان لا تحصنني الدروع
وبرزت ليس سوى القمي ... ص على الحشى درع دفوع
اجلي تأخر لم يكن ... بهواي ذلي والخشوع
ما سرت قط الى القتا ... ل وكان من املي الرجوع
شيم الاولى انا منهم ... والاصل تتبعه الفروع

وفي يوم الاحد لعشر بقين من رجب ، فتحت المدينة فوقع النهب ، وفرّ اهلها الى المحلة . وخرج ابن عباد وابنه مالك ، فقتل مالك بين يديه . وتكاثر القوم على المعتمد فأغمد سيفه وانصرف الى القصر ملقياً بيده .

ثم أخرج ، فغرّب مكبولاً ، مدال العز ، مسلوب الملك . واستقرّ

باغمات من أعمال المغرب ، وكان يقتات من غزل بناته ، وماتت حظيته قبله باغمات .

وكانت وفاته باغمات في ذي الحجة من عام ٤٨٨ . ولما احس بالمنية ترهقه ، أمر ان يكتب على قبره :

« قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقاً ظفرت باشلاء ابن عباد
بالطاعن الضارب الرامي اذا اقتتلوا بالخصب ان اجدبوا بالري للصادي
نعم هو الحق وافاني بـه قدر من السماء ووافاني لميعادي
ولم اكن قبل ذاك النعش اعلمه ان الجبال تهادى فوق اطواد
فلا تزل صلوات الله دائمة على دفينك لا تحصى بتعداد

واقبل شاعره ، ابن عبد الصمد ، فوقف على قبره وانشد :

ملك الملوك اسامع فانادي ام قد عدتك عن السماع عواد
لما خلت منك القصور فلم تكن فيها كما قد كنت في الاعياد
اقبلت في هذا الثرى لك خاضعاً وتخذت قبرك موضع الانشاد
قد كنت ارجو ان تبرد ادمعي نيران حزن اضرمت بفؤادي
فاذا بدمعي كلما اجريته زادت علي حرارة الاكباد
يا ايها القمر المنير أهكذا يمحى ضياء النيّر الوقاد
افقدت عيني مذ فقدت انارة فمجالها في ظلمة وسواد
ما كان ظني قبل موتك أن ارى قبراً يضمّ شوامخ الاطواد
الهضبة الشماء تحت ضريحه والبحر ذو التيار والازباد
عهدي بملكك وهو طلق ضاحك متهلل الصفحات للقصاد
والمال ذو شمل مذاد والندى يهمي وشمل المجد غير مذاد
أيام تخفق حولك الرايات فو ق كتائب الرؤساء والاجناد
والامر امرك والزمان مبشر بمالك قد أذعنت وبلاد
والخيل تمرح والفوارس تنحني بين الصوارم والقنا الميّاد
اذ تحسب الهيجاء روضاً يانعاً وترى الازاهر من ضياء صعاد

وتخال عنبرها دخان الند قد ... فغم الانوف وعام فوق النادي
وكأن بيض المرهفات على الطلى ... ورق الحمام على الغصون شواد
ولكم هززت الغصن من طرب لها ... وجررت اذيالاً من الارزاد
وسقيت رمحك ثم من ماء الطلى ... وروى حسامك من بنات الهادي
وكأنما في الدرع منك ربيعة ... بن مكدم والحارث بن عباد
حتى اذا ما الدهر اظهر حقده ... والدهر للاحرار ذو احقاد
القت بأيديها معاقلك التي ... ملئت من العقبان والآساد
وتهدّمت أركان كل سياسة ... وانهدّ حول الملك كل عماد
قالوا اضاع الحزم وهو بواطل ... نور الحقائق للنواظر باد
واذا انقضت ايام ملك فالعنا ... في غاية الاكثار والاعداد
حازت بنو العباس ملك أمية ... وهم ذوو الاعداد والامداد
ورأى معاوية عليا هالكاً ... وعليّ الليث الهزبر العاد
والدهر اذهب تبعاً وجنوده ... وازال ملك الارض عن شداد
اني لأعجب بعد فقدك كيف لا ... تستنكر الاسياف في الاغماد
او يخضب الخطي بعدك ثغره ... او يركع الهندي فوق الهاد
او تلتقي الشجعان تحت عجاجة ... او يقتضي الميدان سبق جواد
قد كانت الامداح يجعل درها ... في كف اي مميز نقاد
من يفتح الامصار بعد محمد ؟ ... من يعقد الرايات للقواد ؟
من يطعن النجلاء في المراق او ... من يضرب الاخدود في المراد
من يترك الاسطار في الاوراق مث ... ل الحلي في اللبات والاجياد
من يفهم المعنى الخفي ومن له ... صدق الحديث وصحة الايراد
من يلبس الحصداء وهي حصينة ... وكأنما هي من عيون جواد
ويقلد الصمصام وهو منمق ... بفريد افرند وحلي نجاد
من ذا يمد على العفاة ظلاله ... ويبلغ الآمال كل مراد
من يبذل آلاف للزوار والـ ... مداح والقصاد والرواد
هيهات مات الجود بعد محمد ... واصاب بز الفهم كل كساد
ودجا الزمان واقحطت ايامه ... فالجدب موجود بكل مراد

مسخ الزمان بأهله فتعوّضوا من ذلك الاصلاح بالافساد
يا ساكن القبر الذي فقدانه قتل الرجاء وفت في الاعضاد
كنا نؤمل ان نرى لك عودة تعطي بها الايام كل قياد
وتبيت خيلك في مرابطها على وعد من الاتهام والانجاد
وتمهد السلطان في الاقطار للاصهار والحفداء والاولاد
فاذا المنايا قاطمات بالمنى والدهر لا يردى سوى الاجواد
قد كان هزّ الرمح عطفي قده وابى الحسام العضب من اغماد
وتصاهلت بهم الجياد الى الوغى وتضاحك الانجاد للانجاد
اذ حان حين العزّ ادركك الردى فكأنّ موتك كان بالمرصاد
لو كنت اذ ساروا بنعشك حاضراً لرأيت تهليلا على الاعواد
اني لأعجب من ضجيعتك التي قد كان قربك انسها في الناد
جاورتها في قبرها فكأنما قد كنتما في ذا على ميعاد
راحت وانقلك النوى من بعدها فمشيت اليها فوق نعشك غاد
جمعتكما اغمات في الترب الذي وسدتما منه بأي وساد
ام الملوك اما علمت بزائر لك ذي وفاء مخلص ووداد
ابكي العلى والمجد فقدكما الذي لبست له الدنيا ثياب حداد
لهفي على تلك السجايا انها زهر الربا موشية الابراد
لهفي على تلك العطايا واللهى كم اخجلت من واكفات غواد
كم نعمة خضراء قد البستني ومواهب واليتها وايادٍ
ناديت كفك طامياً مستمطراً فقضى علي نداك باستبعاد
اخجلت في الجود الذي دفقت حا تم طيء وفضحت كعب اياد
قد كنت لا ارضى البحار مناهلي زهواً ولا ارضى السماك مهادي
في دولة غراء عبادية فلت على الاملاك كل عناد
ورياسة تحمي البلاد رئيسها يوماه يوم ندى ويوم جلاد
والبدر ترسي والثريا معقلي والصبح سيفي والرياح جيادي
أغرقتني في بحرك الطامي الذي منع الظمأ ورود كل ثماد
وسللت في نصري سيوف مكارم تركت سيوف الهند غير حداد

عادت بحاراً اذ سقيت ضحاضحي وغدت هضاباً إذ رفعت وهادي
ومددت كفي للكواكب قاعداً فبلغتها لما غدوت مصادي
نفقتني والدهر يبخس قيمتي وانفت من رخصي به وكسادي
واقمتني لما رأيت حوا دث الايام قد اسرفن في اقعادي
فالجفن بعدك ليس يدري ما الكرى في دمعة منهلة وسهاد
وكأن قلبي في مخالب طائر وكأن جنبي فوق شوك قتاد
ان لم تطب فيك المراثي والثنا مني فلست بطيب الميلاد
او فزت من ذاك الجمال بنظرة لجعلتها حق القيامة زادي
ان السيادات التي قد حزتها تركتك منفرداً بلا انداد
ولئن مضيت فان ذكرك خالد يبقى مع الايام والآباد
يا صاحب الفقر التي قد اصبحت زهر الرياض بضفتي بغداد
راقت وجوه الكتب بالنكت التي منعت زنادك ثم من اصلاد
لما فقدت المثل آثرك الردى ومن الصحيح تنافر الاضداد
شقوا الثياب وجددوا احزانكم وصلوا التلهّف يا بني عباد
كم رد ريح الخطب عنكم طله وحماكم من مثل عاصف عاد
لولا امير المسلمين وفضله لم تكتحل اجفانكم برقاد
والله يبقيه لكم ليصونكم من كل حادثة تخاف فؤادي
ابقى عليكم ستره واقالكم قد يشفق الامجاد للامجاد
كان ابن عباد صباحاً مسفرا لغياهب ان اظلمت ودآد
كم بات منه البحر تحت سكينة والطود ذو الهضبات فوق وساد
ما كان الا الروض موشي الحلى سقيت ازاهره بصوب عهاد
يهتزّ عند الحمد معطفه كما يهتزّ عطف الامرد الميّاد
يا موت لم تترك حنيفاً مسلماً صعب اللقاء على ذوي الالحاد
قد كان من اعلى الملوك رئاسة وفؤاده من اروع الزهاد
يا موت لم تشفق لغربته ولم ترَ ما تخلفه من الاولاد
ما ورّث الابناء الا مجده ان العلى ميراث كل جواد
كنا نفدّي موته بنفوسنا لو كان يقبل فيه منا الفادي

يا موت كيف رأيت صبر محمد ... قبل احتلالك كان في استعداد
كم رام في رجب لقاءك جاهداً ... والحظ ليس ينال دون جهاد
اهوى الشهور سواه فهو اذلني ... واحب ايامي سوى الآحاد
صبراً جميلاً يا بنيه فربما ... نال المنى قوم بلا ميعاد
اني نظمت لكم لآليء قوله ... عرضت على الايام صفو وداد
ولقد تمازج حبكم بجوانحي ... كتمازج الارواح بالأجساد
فسقى انسكاب الغيث قبر ابيكم ... من رائح متدفق او غاد
ولقد رثيت وما قضيت حقوقكم ... والله يعلم ما يكنّ فؤادي

* * * * * * *

- ٣ -

خلع ملكي المرية وبطليوس

ابن صمادح ملك المرية ارتقى ذروة الخلافة وتلقّب من ألقاب الخلفاء : المعتصم بالله .

لم يكن من ملوك الفتنة في شيء ، فانه أخلد الى الدعة واقتصر على قصر يبنيه وميدان من اللذة استوى فيه . غير انه كان رحب الفناء جزل العطاء حليماً عن الدماء ، لزمه فحول من الشعراء كأبي عبدالله بن الحداد وابن عبادة وابن الشهيد ، وكانت بينه وبين ملوك الطوائف الاخرى فتون غلبوه عليها .

ولما ملك يوسف بن تاشفين ارض الاندلس وعزم على خلع رؤسائها ، امر الامير يحيى بن واسنو منهم بمحاصرة المرية والتضييق على المعتصم ، فطال به الحصار واستولى المرابطون على الحصون والجهات فلم يبق بيد المعتصم سوى المدينة ، وضاقت به الاحوال وشرع اهلها في الفرار واعتل

المعتصم ونزل به الموت اثناء محاصرتها ، فذكروا انه نظر الى جارية عند رأسه تبكي عليه فقال لها :

ترفق بدمعك لا تفنه فبين يديك بكاء طويل

وأوصى ولده ولي عهده معزّ الدولة ان يتمسك بقصبة المرية ما اقام ابن عباد متمسكاً باشبيلية ، فاذا افضى امره الى خلعه فليعبر البحر بأهله وولده الى الجزائر ، جزائر بني مزغنّا . وقد كان راسل صاحب الجزائر ووجّه اليه احمد بن عبد العزيز بن عيشون من اهل بلده ، فوصل الى المنصور بن الناصر بن علناس يخطب اليه جواره ، فتلقاه بالرحب والسعة وخيّره في اقطار بلاده . ثم توفي المعتصم بن صمادح في ربيع الآخر من سنة ٤٨٤ هـ . ولما اتصل موته بالمعتمد بن عباد قال : « رجل استصحب حال سعده من قصره الى قبره ! كان الموت كأساً بيده ، فحين استطابها تجرّعها !

ولما توفي المعتصم اقام ابنه معزّ الدولة يصوّب ويصعد ويعمل النظر في امتثال وصية ابيه فجعل يبدي غرضه في نقل زوجته بنت مجاهد الى دانية ليكون اقرب الى الايساق في البحر . فلما كمل ما اراده من ذلك ، وافاه اليقين بتغلب المرابطين على ابن عباد وخروجه من ملكه ، فأمر رجاله بنقب السور خارج باب موسى الى دار الصنعة وركب مع خاصته في سفينة وحمل المال والمتاع في اثنتين واحرق باقي السفن خشية ان يتبعوه ، ونزل بالجزائر الى ان هلك بها . انقضت ايام بني صمادح .

دولة بني الافطس

وهؤلاء من جملة ملوك الطوائف كان جدّهم ابن الافطس من قبائل مكناسة ونزل بفحص البلوط في قرطبة .

كان من قوم لا نباهة لهم الا انه كان من اهل المعرفة التامة والعقل والسياسة والدهاء ، ولما تفرّق شمل الجماعة بقرطبة وانتزى كل على ما

بيـده ، استبدّ بالصقع الغربي ببطليوس وشنترين وجميع الثغر الجوفي فتى من عبيد الحكم اسمه سابور وكان معروفاً بالشجاعة . فكان عبدالله بن محمد بن مسلمة من صنائعه يدبر له امره ويخدم دولته الى ان هلك سابور وترك ولدين لم يبلغا الحلم ، فضبط له عبدالله الامر واستأثر به وحصل على ملك غرب الاندلس ومات سنة ٤٣٧ هـ وولي بعده ولده مظفر بن الافطس .

وكان مظفر عالماً وشجاعاً وفارساً وله التأليف الكبير المسمى بـ« المظفرى » في نحو خمسين مجلداً .

وتوفي سنة ٤٥٨ هـ وولي الامر بعده ولداه عمر ويحيى وشب الخلاف بين الاخوين وحصل ملك قشتالة ما اراده من بلادهما ، الى ان مات يحيى واستوثق الامر لأخيه عمر فسمّي المتوكل على الله .

وكان المتوكل ملكاً عالي القدر مشهور الفضل وكانت مدينة بطليوس في مدّته دار ادب وشعر ونحو وعلم .

وقد اشرنا في حينه الى دخوله طليطلة قبل ان تسقط في يد الادفونش السادس سنة ١٠٨٥ واستمرت ايامه الى ان تغلّب المرابطون على الاندلس ، فضيّق الامـير سير بن ابي بكر ببطليوس بالسرايا والغارات ، والمتوكل يطمع بالتمسك بها لقربه من حدود الادفونش . فلما عيل صبره وعجز عن مقاومتهم راسل ملك قشتالة الادفونش واطمعه في المدينة ، وتخلى له عن مدينة شنترين ، فحصّنها وضبطها . وانحرفت عنه الرعية لما سلّم هذه المدينة الى الادفونش فراسل اهل بطليوس المرابطين فوصلتها الجيوش وفتح الناس الابواب فدخـل القوم عنوة وقبض على المتوكل وعلى بنيه وعبيده واستخرج مـا كان له من مال وذخيرة وقيد الى اشبيلية مع ابنين له . وفي اثناء الطريق ، لمـا بعد من بطليوس ، انزل وامر بالتأهب للموت فسأل ان يقدم ابناه قبله ليحتسبهما فكان كذلك . وقتل الجميع صبراً وذلك في اخريات سنة ٤٨٨ هـ ، وكان قد اشخص ولده الملقب بالمنصور الى حصن شانجس ليتحصن به وجعل عنده ذخيرته .

ولما اتصل بالمنصور بن المتوكل ما جرى به القدر في والده وأخويه الفضل وسعد ابي عمر وجنّه الى الادفونش بأهله وماله ودخل في دينه وصدر معه الى بلاده بعد ان ثقّف الحصن برجاله وانتهى امر بني الافطس .

رثاهم الوزير ابو محمد بن عبدون بقصيدة نذكرها نظراً لأهميتها التاريخية :

الدهر يفجع بعد العين بالاثر ... فما البكاء على الاشباح والصور
انهاك انهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر
فالدهر حرب وان ابدى مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر
ولا هوادة بين الرأس تأخذه ... يد الغراب وبين الصارم الذكر
فلا تغرّك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالي اقال الله عثرتنا ... من الليالي وخانتها يد الغير
في كل حين لها في كل جارحة ... منا جراح وان زاغت عن النظر
تسر بالشيء لكن كي تغربه ... كالايم تأر الى الجاني من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
هوت بدارا وفلت غرب قاتله ... وكان غضباً على الاملاك ذا اثر
واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ... ولم تدع لبني يونان من اثر
واتبعت اختها طسما وعاد على ... عاد وجرّهم منها ناقص المرر
وما اقالت ذوي الهيثات من يمن ... ولا اجارت ذوي الغايات من مضر
ومزقت سبئا في كل قاصية ... فما التقى رائح منها بمبتكر
وانفذت في كليب حكمها ورمت ... مهلهلاً بين سمع الارض والبصر
ولم ترد على الضليل صحته ... ولا ثلمت أسداً عن ربها حجر
ودوّخت آل ذبيان وجيرتهم ... لمماً وغضّت بني بدر على النهر
وألحقت بعدى بالعراق على ... يد ابنه احمر العينين والشعر
وبلّغت يزدجرد الصين واختزلت ... عنه سوى الفرس جمع الترك والخزر
ومزقت جعفراً بالبيض واختلست ... من غيله حمزة الظلاّم للجزر
واشرفت بحبيب فوق فارعة ... والصقت طلحة الفياض للعفر
وخاضبت شيب عثمان دماً وخطت ... الى الزبير ولم تستحي من عمر

واجزرت سيف اشقاها ابا حسن وامكنت من حسين راحتي شمر
وليتها اذ فدت عمراً بخارجة فدت علياً بمن شاءت من البشر
وما رعت لأبي اليقظان صحبته ولم تزوده الا الضيح في الغمر
وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن أتت بمعضلة الالباب والفكر
فبعضنا قائل مـا اغتاله احد وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر
وعممت بالظبى فودى ابي انس ولم تردّ الردى عنه قنا زفر
وأنزلت مصعباً من رأس شاهقة كانت له مهجـة المختار في وزر
ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا راعت عياذته بالبيت والحجر
ولم تدع لأبي الذبان قاضبه ليس اللطيم لهـا عمر بمنتصر
واظفرت بالوليد بن اليزيد ولم تبق الخلافة بين الكاس والوتر
ولم تعـد قضب السفاح نائبة عن رأس مروان او اشياعه الغجر
واسبلت دمعة الروح الامين على دم بفخ لآل المصطفى هـدر
واشرقت جعفراً والفضل ينظره والشيخ يحي بريق الصارم الذكر
ولا وفت بعهود المستعين ولا بمـا تأكد للمعتز من مرر
واوثقت بعراها كل معتمد واشرقت بقذاها كل مقتدر
وروّعت كل مأمون ومؤتمن وصممت كل منصور ومنتصر
بني المظفر والايام مـا برحت مراحلاً والورى منها على سفر
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت بمثله ليـلة في سالـف العمر
من للأسرة او من للاعنة او من للسماحة او للنفع والضرر
او دفع كارثة او ردع آنفة او قمع حادثة تعيي على القدر
ويح السماح وويح البأس لو سلما وحسرة الدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضل والعباس هامية تعزى اليهم سماحاً لا الى المطر
ثلاثة ما رأى السعدان مثلهم فأخبر ولو عززا في الحوت بالقمر
ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رقوا وكل ما طار من نسر ولم يطر
ومر من كل شيء فيه اطيبه حق التمتع في الآصال والبكر
من للجلال الذي عمت مهابته قلوبنا وعيون الانجم الزهر
اين الاباء الذي ارسوا قواعده على دعائم من عز ومن ظفر

اين الوفاء الذي اصفوا مشارعه فلم يرد احد منها على كدر
كانوا رواسي ارض الله منذ نأوا عنها استطارت بمن فيها ولم تقر
من لي ولا من لهم ان عطلت سنن واخفتت السن الآثار والسير
من لي ولا من لهم ان اعضلت محن ولم يكن وردها يدعو الى صدر
على الفضائل الا الصبر بعدهم سلام مرتقب للأجـــر منتظر
يرجو عسى وله في اختها أمل والدهر ذو عقب شتى وذو غير

وكان ابو محمد بن عبدون هذا يكتب للمتوكل على الله ونمت حاله معه ، وهو احد كتاب المغرب جمع بين فضيلتي الكتابة والشعر على انـه مقل من النظم لم يثبت له منه الا اليسير بالنسبة الى غزارة أدبه ونباهة قدره .

حكى عن نفسه انه كان بين يدي مؤدبه وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة فعنّ للمؤدب ان قال : « الشعر خطة خسف » .

وجعل يردّد هذا القول . قال الوزير ابو محمد بن عبدون : فكتبت في لوحي مجيزاً له : « لكل طالب عرف » .

ثم خطر لي بيت ثان وهو :

للشيخ عيبـة عيب وللفتى ظرف ظرف

قال : فنظر اليّ المؤدب وقال : يا عبد المجيد ما الذي تكتب ؟ فأريته اللوح . فلما رآه لطمني وعرك اذني وقال : « لا تشتغل بهذا » . وكتب البيتين عنده .

ومن غزارة حفظ ابن عبدون مـا حدّث الوزير ابو بكر بن زهر قال : « بين انا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل ناسخ أمرته ان يكتب لي كتاب الأغاني ، فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها . فقلت له : أين الأصل الذي كتبت منه لأقابل معك به ؟ قال : ما أتيت به معي . فبين أنا معه في ذلك اذ دخل الدهليز علينا رجل بذ الهيئة عليه ثياب

غليظة اكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير اتقان ، فحسبته لما رأيته من بعض اهل البادية . فسلّم وقعد وقال لي : يا بني استأذن لي على الوزير ابي مروان . فقلت له هو نائم ، بعد ان تكلفت جوابه غاية التكلف ، حملني على ذلك نزوة الصبي وما رأيت من خشونة هيئة الرجل . ثم سكت عني ساعة وقال : ما هذا الكتاب الذي بأيديكما ؟ فقلت له : مـــا سؤالك عنه ؟ فقال : احب ان اعرف اسمه فاني كنت اعرف أسماء الكتب . فقلت : هو كتاب الأغاني . فقال لي : أين بلغ الكاتب منه ؟ قلت : بلغ موضع كذا . وجعلت أتحدّث معه على طريق السخرية والضحك على قالبه . فقال : ومـا لكاتبك لا يكتب ؟ قلت : طلبت منه الأصل الذي يكتب منه لأعارض بـه هذه الاوراق فقال لم أجيء به معي . فقال : يا بني خـذ كراريسك وعارض . قلت : بماذا وأين الأصل ؟ قال : كنت احفظ هذا الكتاب في مدة صباي ، فتبسمت من قوله . فلما رأى تبسمي قال : يا بني امسك عليّ ، فامسكت عليه وجعل يقرأ فوالله ان أخطأ واواً ولا فاء ، قرأ هكذا نحواً من كراسين ، ثم اخذت له في وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلـــك كله سواء ، فاشتدّ عجبي وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل . فقام هو من فوره وكان ملتفاً برداء ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه وهو يوسعني لوماً حتى ترامى على الرجل وعانقه وجعـل يقبّل رأسه ويديه ويقول : يا مولاي اعذرني فوالله ما أعلمني هذا الخلف الا الساعة ، وجعل يسبني والرجل يخفض عليه ويقول ما عرفني ، وأبي يقول : هبه ما عرفك فما عذره في حسن الادب ؟

ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلاً . ثم خرج الرجل وأبي بـين يديه حافياً حتى بلغ الباب وأمر بدابته التي يركبها فاسرجت وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع اليه أبداً .

فلما انفصل قلت لأبي من هـذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم ؟

قال لي : اسكت ويحك هذا اديب الاندلس وإمامها وسيّدها في علم الآداب هذا ابو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته كتاب الاغاني .

ومن قوله :

لاح المشيب على رأسي فقلت له الشيب والعيب لا والله ما اجتمعا
يا ساقي الكأس لا تعدل اليّ بها فقد هجرت الحميا والحميم معا

ومن قوله ايضاً :

اني نظرت الى المرآة اذ جلبت فأنكرت مقلتاي كلما رأتا
رأيت فيها شييخاً لست أعرفه وكنت اعرف فيها قبل ذاك فتا

وله موشحات كثيرة .

أحببنا ان نذكر هذا للتدليل على أهمية الادب والشعر في عهد ملوك الطوائف الذين خلعهم يوسف بن تاشفين الا صاحب سرقسطة المستعين بن هود الذي جئنا على ذكره مراراً في هذا الكتاب .

وكان طمع العدو قد سما الى سرقسطة حاضرة المستعين ، فنازلها في جموع لا تحصى وأجاز الامير يوسف بن تاشفين البحر ووجّه جيشاً بقيادة علي بن الحاج قائده ليفحص عن احوال المستعين بسرقسطة . فشاع لما أطلّ على محلة العدو انه يوسف بن تاشفين ، فأوقع الله الرعب في قلب العدو وانهزم جمعه ، فأعمل العرب فيهم السيوف .

والمستعين هذا لم يخلعه ابن تاشفين ولا نازعه ما في يده فكان يلاطفه . ووجّه اليه ابن هود ولده عبد الملك ، فقام بحقه ، وصرفه يوسف مكرماً وأصحبه كتابه بما نصه :

« من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، الى المستعين بالله احمد بن هود ، أدام الله تأييده :

كتبناه اليك ، والله عز وجل يوالي ايام سعدك ، ويعالي اعلام مجدك ،

ويطيل في طاعته وعلى احسن مـــا تمناه عمرك ، ويشد بتقواه ازرك ، ويجري على كل لسان صدق ذكرك ، من حضرة مراكش حيث تتلى آيات شرفك ، ومآثر السادة القادة سلفك . ونحن نحمد الله بجميع المحامـــد ونستهديه أيمن المسالك وأبين المقاصد ، ونسأله أتم الفوائد ، وأهم العوائد ، ونصلي على سيدنا محمد صفوة اوليائه ، وخاتم رسله وانبيائه وعـــلى آله وصحبه وسلّم تسليماً .

وأمـــا الذي عندنا – أيّدك الله – لجانبك الكريم ، ومجدك العميم ، ومحلك المعلوم المفهوم ، فؤاد صريح ، وعقد في ذات الله تعالى صحيح . ووردنا – أدام اقبالك ، وأجرى الى غاية الافضال آمالك نشاة السيادة والفضل ، والنباهـة والنبل ، ابو مروان عبد الملك ابنك ولادة وتنسباً ، وابننا ودادة وتقرباً ، زاد الله بـــه عينك قرة ونفسك مسرة ، ومعه وزيراك ابو الاصبغ وابو عامر – اكرمهما الله بتقواه وكلأ وفيناه حـــق نصابه ، وآتيناه برّه من بابه ، وتلقيناه تكرمة بمقتضى دواعيه واسبابه . وأدّيا الينا كتابك الخطير ، المقبول المبرور ، فوقفنا به على وجه شخوصهما ، وأصغينا في تفصيل جمله الى تلخيصهما ، فالقينا اليهما مراجعة عن ذلـك ما لقناه ، وسفرنا لهما عن وجـــه مقصدنا فيه حتى يستبيناه ، من جملة الوفاق ، وجماع الانتظام في سلك ما يرضي الله تعالى والاتساق ، ان شاء الله » .

ولما احتلّ يوسف بن تاشفين بقرطبة سنة ٤٩٦ هـ ، أعاد اليه توجيه ولده عبد الملك الملقب بعماد الدولة ، الكائن بحصن روطة ، بهدية جليلة : كان من جملتها اربعة عشر ربعاً من آنية الفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود جدّهم ، فامر يوسف بضربها قراريط مرابطية وفرّقها في طباق المرابطين ليلة النحر من تلك السنة . وفي ذلك الوقت عقد البيعة لولده علي بن يوسف وحضر العهد عبد الملك ابن المستعين .

واستتب الأمر للمرابطين في جنوبي وغربي الاندلس ولم يبـق أمامهم سوى المشرق الاندلسي الخاضع لسيطرة السيد القنبطور .

- ٤ -

الادفونش وزيدة

- الادفونش ، مالي اراك مضطرباً في هذه الايام سام الطرف كأنك في عالم غير هذا العالم ؟ من يراك يخالك تضمر سراً لا تودّ الكشف عنه ، عهدي بك لا تخفي عني شيئاً فأنا لك الأم والشقيقة والحبيبة .

- الانباء التي تردنا من الجنوب يا اوراكه ، لا يرتاح اليهـــا بالي . حدودنا الغربية والجنوبية مهددة . فالافريقيون كالسيل الجارف يجرون كل من يقف في طريقهم ، دكوا عروش ملوك الطوائف ووحدوا الاندلس من جديد ، وانت تدركين الخطر الجاثم على تخومنا . حاولوا استرداد طليطلة ، ولولا رأفة الله بنا لاستردوها . انقطع عنا مورد كبير من الاتاوة التي كان يدفعها لنا مـلوك الطوائف مثل عبدالله ملك غرناطة والمعتمد ملك اشبيلية والمتوكل ملك بطليوس وغيرهم ، هؤلاء جميعاً جرفهم تيار المرابطين وأبعدوا عن ممالكهم الى المغرب ، وانا السبب في كل مـــا جرى لهم ، أسأنا معاملتهم واحتقرناهم امام رعاياهم فاحتقروهم وطلبوا نصرة المرابطين .

- لا تندم على مـــا فات فالندم على أمر لا يمكن اصلاحه يعذّب النفس ويزيد في الحرقة ويقرّب الاجل ، لا بد من وسيلة لدرء هذا الخطر الافريقي المداهم مهما كلّف الأمر .

- هذا ما حاولت واحاول ولا اجد السبيل ، فالانهزامات تتوالى على جيوشنا . فهذا البرهانيس احسن قوّادنا قـد دحره المرابطون على ابواب اشبيلية لمـا هرع لنجدة المعتمد بن عباد الذي استنصرنا على اخوانـه في الدين ولم نجده مساعدتنا نفعاً ويا للأسف ! صفحاً يا معتمد ، إساءتي اليك كبيرة ، إساءتي الى نفسي اكبر . احرجتك فأحرجت موقفي ، ضربتك

بحجر فرددت الحجر من حيث جاء ، كلانا ضارب ومضروب . مـا كان اغنانا عن كل هذه الويلات والحروب التي ذهبت بمئات الالوف من الضحايا وخطرها يتفاقم منذرة بويلات اشد هولاً مما قاسيناه .

– هل بلغك ان الفتى المأمون بن المعتمد اوصى امرأته زيدة قبل موته بالتوجه اليك مع حاشيتها والالتجاء الى كنفك اذا اظلمت الامور في وجهه ؟

– عندي من ذلك بعض الخبر .

– ولا يخفى عليك ان الفتى المأمون قد قتل مع من قتل في قرطبة دفاعاً عن المدينة وارملته في طريقها اليك .

ففتح الادفونش عينين كبيرتين ارتسمت فيهما الدهشة والانبساط كأنه وجد الخلاص من الضيقة الواقع فيها ، وما خفي على اوراكه هذا التبدل الفجائي من اليأس الى الرجاء ومن الكآبة الى السرور فقالت له :

– هل ترى في هذا النبأ ما يكشح الغم ويدفع عنك الخطر الداهم ؟

– عفواً يا اوراكه ، كتمت عنك سراً ظل يعذّبني طيلة عشر سنوات . لم اذكر لك اني اعرف هـذه المرأة والحب جمع بين قلبينا وحكم علينا بالفراق . اتذكرين منفاي الى بـلاط المأمون في طليطلة لما استبد اخي شانجه بالملك دوني ؟ اجل في تلك المدة التي لم تطل اكثر من عشرة اشهر في المنفى تعرّفت ذات يوم على هـذه الاميرة العربية وشففت قلبي حباً وشففتها حباً وعملت على انقاذي من موت محتوم . لم انسها طوال هذه السنوات العشر يا اوراكه ، واظن انهـا ما زالت تذكرني وتحنّ إليّ . انفتحت عيناي على ألغـاز كانت مغلقة على إدراكي . لماذا عارض الفتى المأمون دائماً في دعوة المرابطين ضد إرادة الجميع من مستشاري ابيـه المعتمد ووزرائه والفقهاء ولم تسبقني بـه معرفة ولم يصل اليه شيء من فضلي ومعروفي ؟ ألا ترين في هذا تدبير زيدة ونصيحتها لزوجها في اتخاذ هـذا الموقف الودّي نحوي ؟ مسكينة زيدة اتخيّلها تتحبب الى زوجها

بجميع وسائـل الاغواء والارضاء والاستهواء والتوسل وحتى التذلـل اذا اقتضى الامر عند زوجها ليعارض مشيئة وجميع زعماء الاندلس في طلب نصرة المرابطين .

آه ما اشد شوقي اليك يا زيدة حبيبة الروح !

وتمثّـل بشعر ابن السيد البطليوسي القائل :

« تاوبـــه من همّه مـــا تاوبا فبات على جمر الاسى متقلبا
مرّت مزن عينيه غداة تحملوا عواصف ريح الشوق حتى تصببا
دموع هتكن الستر عن مضمر الجوى وأبدين من سر الهوى ما تغيبا
خليلي ما لي كلما لاح بارق تذكرت برقاً بالعقيق وزينبا
أؤنس بالنائـــين نوماً مشرّداً واطمع بالثارين قلباً معذّبا
ومن لي برد الخل إذ جدت النوى به وبوصل الحبل ان يتقضبا
اذا عنّ لي ظبي بوجـرة شادن تذكرت من عنّى الفؤاد وعذّبا
وارتاح للأرواح من نحو ارضها وتثني عناني للصبا نفحة الصبا
ولولا التهاب الشوق بين جوانحي لأمرغ خدّي بالدموع واعشبا
الا قاتل الله الهوى كيف قادني الى مصرعي طوعاً وقد كنت مصعبا
وخـد الاقي دون شم رياضه من اللحظ هندياً وللصدغ عقربا
اجـــدك لم تبصر تألق بارق يجد نشاطاً في ذرى الافق اهدبا

وسطا عليه الدمـــع حتى بلّل لحيته ، فاقتربت الاميرة اوراكه من اخيها تخفف عنه اللوعة والحرقة :

– ادفونش اخفيت عنك سرّي كما اخفيت عني سرّك ، الاميرة زيدة اقرب اليك مما تتصور .

– بحقك يا اوراكه اخبريني كيف حالها ، علمت بتوجهها إليّ ولم أعلم موعد وصولها ، اتلهف يا اوراكه الى رؤيتها بعـد طول الغياب . بحقك ارفقي بي وعجّلي بمثولها امامي .

– على رسلك يا ادفونش ، متى عهدتني خؤونة ؟ قدّمت لـك ألف

برهان وبرهان عن محبتي الكاملة وإتمام رغائبك جميعها وان كان بعضها لا يرضيني او بالأحرى يكوي فؤادي .

– وأنا يا اوراكه ، ألم أحقق لك جميع رغائبك ؟ ألم أقمك السيدة المطلقة عليّ وعلى مملكتي تتصرّفي بهما كيف شئت ؟ ألست انت بالحقيقة الملكة في هذه الدولة ؟ هل من مشيئة ترتفع على مشيئتك ؟

فابتسمت اوراكه عن رضى ، ليس لها ان تتذمر وقد نالت اربها من جميع ما تصبو اليه . صدق ادفونش ليس من سلطة فوق سلطتها فدنت من اخيها وضمّته الى صدرها تحنو عليه وتعطف .

ونادت احد الحجاب فأسرع يحثو امامها فأمرته باحضار الاميرة زيدة العربية مكرّمة .

فامتثل اوامرها واقبلت الاميرة زيدة تخطر بلباسها الطويل الفضفاض وأسرع نحوها الادفونش :

أفي حلم انا ام في يقظة ؟ لا تصدّق عيناي ان زيـدة امامي بلحمها وعظمها .

– اجل يا ادفونش انا هي نفسها التي تعرّفت عليها في طليطلة منذ عشر سنوات .

– سأجعلك ملكة اسبانيا .

– حسبي ان اكون لك .

– احسبتني نسيتك يا زيدة وقد عرّضت نفسك للموت بخنجر مرهف وانت تدافعين عني في بلاط المأمون ؟

فهتفت اوراكه : يا لها من شجاعة نادرة .

فقالت زيدة : « اعطيتك يا سيدي ومليكي ما يخصك » .

– لا يصفو لي بال يا حبيبتي زيدة اذا لم اقاسمك نصف ملكي .

وقالت اوراكه : وانا اضمك الآن الى صدري وعن قريب اقبّل يدك .

فهتفت زيدة : بل انا اضع تحت قدميك رأسي ويدي .

فقال ادفونش : اوراكه لتكن زيدة شقيقة لك .

فأجابت اوراكه : اجل يا زيدة اصبحت شقيقتي .

واقتربت منهـا وضمتها الى صدرهـــا ، وتعانقت المرأتان ، وشعرت اوراكه في قرارة نفسها بالغيرة من هذه المرأة المالكة قلب اخيها ادفونش ، وحسدتها ولكنها تعزّت لان الادفونش سيعود اليها ، ارتباطه بهـــا لا تتفكك عراه بسهولة ، انه مثل الحصان المربوط بحبل طويل الى وتد وتركت له الحرية ليرعى في مرج فسيح ، انه حر ولكن ضمن هذه المساحة التي يصل اليها طول الحبل . وهكذا الادفونش انـه حر ولكن حريته مقيّدة باوراكه فيتلهى مع هذه المرأة او تلك المرأة واخيراً يرجع اليها. هي اخته قاسمته افراحه واحزانه طوال العمر ، فقالت : اتركما وشأنكما ، لا شك انكما تشتاقان الى خلوة مثل هذه فانعما بها .

وتوجهت الى الباب وألقى عليهـا الادفونش نظرة عرفان جميل ، واقترب من زيدة قائلاً : يا طرباً يا فرحاً ! بشراك يا قلب هذه فلذتك ردّت اليك ، تعالي يا زيدة واملئي ذراعي .

— ادفونش حبيبي طـار اسمـك في اقاصي الارض ووصل الى سمعي الف مرة . فجعت بزوجي فجئت اليك يا من كنت زوجي الروحي لان خيالك كان ماثلاً امام عيني في يقظتي وفي منامي . هاءنذا بـين يديك فتصرّف بي كيفما شئت ، وهبتك قلبي منذ زمن بعيد ولم ارجع عن هبتي ! فها اني اطرحه بـين يديك ، ولك مني ايضاً ما ملكت يداي من قلاع وضياع فهذه قونكه واقليش وكونسوغره وما حولها كله اصبح ملكك .

فاستحكم التأثر من الادفونش لهذا الكرم الباذخ ، تجود بالقلب وتجود بالاملاك ، عرضت عليه حلاها لبيعها والتصرّف بها لما كان في طليطلة واليوم تعرض عليه ممتلكاتها وقلبها وجسدها . قد لا يستفيد من ممتلكاتها لان الزحف الافريقي في اوجه ولن تلبث هذه القلاع والحصون ان تسقط

في قبضة المرابطين ، فليستفد من جمالها بعد ان اصبحت ولا نصير لها ولا مغيث . واقترب منها وشدّها اليه ، انه بشوق ولهفة الى هذا الجسد المكتنز بالانوثة الناضجة والفوّار بالحيوية ، ووضع رأسه على صدرها كالوسادة الرجراجة تزيل متاعب قلبه . وفاحت من جسمها رائحة الطيوب هيّجت حواس الادفونش ، انهـا رائحة امرأة تضطرم بالحب المكبوت ، فشدّت برأسه اليها وقبّلته على شفتيه قبـلة عنيفة طويـلة كافية لإشعال النار في جسده ، واستيقظت فيه رجولته وتعالت التنهدات صاخبة من الصدرين ، وتجرّعا اللذة بجميع افاويقها فهما من اسعـد البشر ومن الايام في غفلة ، نسيت زيدة ارمالها الحديث العهد ونسي الادفونش الاخطار المحدقة بـه فهما يعيشان للحب وللذة القصوى يرتشفانها طفاحاً .

وغرقا في نشوتهما حتى رأسيهما وأذابا مخمور الصبابات .

وفي ذات يوم جاءت زيدة تهمس في اذن الادفونش انها حامل فتهللت اساريره عسى يكون ذكراً ، انه يتحسر الى مولود ذكر يرث العرش بعده .

– لا شك سيكون ذكراً يا ادفونش لان محبتي لك اقوى بكثير من محبتك لي .

– ليس من السهل يا زيدة ان نقيس المحبة بمقياس القلة او الكثرة . فاذا جاء ذكراً سيكون عربون التعايش والتفاهم والتآخي بين شعبين . فلا حروب بعـد اليوم ونعمل على طرد الدخلاء المرابطين ، ونصلح الاخطاء الماضية .

وتخيّل المستقبل باسماً واعداً مثقلاً بالآمال الرحاب ، امـا انتصارات المرابطين فهي عابرة . انه تفاؤل قد يكون في محله وعسى تتحقق الاحلام .

ووافت الحامل ايامها ووضعت مولوداً ذكراً اطلق عليه اسم شانجه ، فأولمت الولائم وعمّ الحبور جميع انحاء قشتالة ، ولد ولي العهد .

فلنتركه ينمو ولننتقـل الى المشرق الاسباني حيث يعمل السيد على نشر جناحه .

- ٥ -

السيد والمرابطون

رأى السيد ان الخطر الافريقي محدق بـــه ، فبعد ان ترك القوات الاسبانية في اوبذه قرّر الدفاع عن بلنسية ومنطقتها .

الاخطار تتناهش القنبطور من كل جانب ؛ ملك سرقسطة المستعين طامع ببلنسية والعرب البلنسيون اشتدّ تذمرهم لما دروا باقتراب قوات المرابطين من مدينتهم ، واظهروا العصيان وقوي حزب المرابطين في المدينة والفقهاء فيهـــا قرّروا تسليمها الى يوسف بن تاشفين مثلما سلموه جنوب الاندلس .

الحالة خطيرة للغاية والنزاع على اشدّه بـــين حضارتين على الاراضي الاسبانية . والسيد تصدّى لهـذا الزحف الافريقي الذي لم يصمد امامه الامبراطور الادفونش ولا قائده البرهانيس ، فأفهم المسلمين الاسبان ان لا مكان للاتفاق مع الافريقيين .

تمكّن القنبطور من التغلب على جميع مزاحميه المسيحيين مثل غرسيه اردونيس وملك ارغون وقند برشلونة وفرض جزية فاحشة على عدد من ملوك الطوائف في المشرق الاسباني .

انبثقت في خاطره فكرة ايقاف المرابطين ليس في بلنسية فحسب بل في عموم اسبانيا وطردهم منها كما وصفهم احدهم قائلاً : ان رذريقاً اضاع اسبانيا ورذريقاً آخر يستردّها ، يقصدون بذلـــك رذريق ملك القوط الذي قهره طارق بن زياد .

وبقية الملوك الاسبان يرون في السيد الرجـل الوحيد القادر على صد

الغزو الافريقي ، فبعث اليه ملك ارغون ، شانجه رميرس اربعين فارساً استقبلهم السيد استقبالاً حافلاً وانزلهم في بلنسية وتصادقت هذه الحامية الارغونية مع القشتاليين .

توجّـه السيد من موريليا الى سرقسطة حيث زاره المستعين بن هود لعقد معاهدة صداقة فالاثنان يرغبان في نبش هذه الصداقة التقليدية تجاه الخوف من المرابطين الذين بعـــد ان احتلوا مرسية وليبط اندفعوا من الغرب الى الشرق .

وبعد هذه المصالحة بين رذريق والمستعين ، أحبّ شانجه ملك ارغون معرفة نوايا السيد على حقيقتها فجمع جيشاً من ارغون ونباره مـع ابنه بطره وتوغـلا في اراضي المستعين ، وبعثا الى السيد رسالة يعبّرون فيها عن رغبتهم الصادقة في مواصلة الصداقـة بينهم وفي المحافظة على معاهدة الدفاع المشترك ضد اي اعتداء يقع على احد الطرفين . ولكن السيد عمل على إيجاد الاتفاق والمصالحة بين شانجه والمستعين .

ثبّتت هـذه المعاهدات التعاضد الاسباني بين مسلمين ومسيحيين تجاه الغزاة الافريقيين ، ويرمي هـــذا التكاتف الى تنحيـة النفوذ والسيطرة الافريقيين عن المشرق الاسباني ، الذي اصبح بكامله صفاً واحداً واقفاً في وجه يوسف بن تاشفين .

وتوجّه الملك شانجـــه الى ارغون بلاده وظلّ رذريق في سرقسطة موضوع احترام واكرام المستعين بن هود .

وفي هـــذه الاثناء حاول الملك الادفونش احتلال بلنسية وطرطوسة قبل ان يستولي عليهما المرابطون ووجد ذاته غير قادر وحده على الاستيلاء عليهما فتحالف مع جمهوريتي بيزا وجنوا القويتين باسطولهما ليهاجما المدينتين بحراً بينما هو يهاجمهما براً في الوقت نفسه .

شرع الملك الادفونش في تنفيذ خطته فتوجّه ضد بلنسية بجيش جبار

ونصب خيامه على مقربة منها وطلب الى اصحاب الحصون ان يؤدّوا له الجزية التي يؤدونهـا للقنبطور ، الامر الذي لم يرض السيد ، انـــه عمل عدائي ضده .

وكما اشرنا سابقاً كان رذريق متغيباً في سرقسطة ، فاستاء كل الاستياء لما علـم ان الامبراطور لم يكتف بنفيه وسجن زوجته شيمانه واهانته في اوبذه بل تعدّى هذا الى انتزاعه ممتلكاته وحرمانه من الخراج .

لم يبق امامه سوى احد امرين : اما التوسل الى الملك ليعفو عنه وهذا لن يكون لانه توسل مرّتين في الروضة وفي غرناطة وفشل . والامر الثاني اللجوء الى القوة والقوانين تسوغ له استخدامها ولكنه لا يريد مقاتلة ملكه فما الحيلة ؟

وجّه رسالة الى الادفونش يعرب فيها عن دهشته البالغة في هـــذه التصرفات العدائية نحوه وانه غير مستعد للقيام بأي عمل ضد الامبراطور الذي سيدرك عن قريب فساد نصائح مستشاريه .

استلم الامبراطور الرسالة وادرك ما تنطوي عليه من التهديد لغرسيه اردونيس وبني غومس فنبههم الى الخطر .

لم تسر العمليات العسكرية لصالح الملك . تأخر اسطول جنوا وبيزا عن موعدهما في الوصول ، وقلّت المؤن في جيشه الكبير ووجد انه لا يقوى على الانتظار اكثر فرفع الحصار عن المدينة امام دهشة البلنسيين . ومـــا كاد الجيش الاسباني يتوارى حتى ظهر اسطول جنوا المؤلف من اربعمائة مركب فهاجمت طرطوسة من البحر بينما الملك شانجه والقند برنجير يهاجمانها من البر ولم يتمكنا منها فاضطرا الى التراجع بخسائر فادحة .

وفي هذه الاثناء جمع السيد قواته المشكلة من العرب والاسبان جاءته من ملك سرقسطة ولرده وانقضّ بها على غرسيه اردونيس عدوّه اللدود فاجتاح قلهرة وناجرة تاركاً وراءه النار والدمار ، ورجـع الى سرقسطة

بعد ان اشفى غليله من الانتقام من عدوّه غرسيه الذي كتب له رسالة يدعوه فيها الى القتال .

وجمع غرسيه هذا جيشاً جراراً مشكلاً من اقربائه وهم كثيرون منهم بطره انشورش زعيم عائلة بني غومس ، وزحف بهذا الجيش العرمرم على « البريت » التي خرّبها السيد ، وعند رؤيته ذلك الخراب المريع دبّ الهلع في قلبه هو الذي يسمونه « العظيم عند الله والناس » وحامي حمى المملكة ، فرجع الى بلاده ولم يتجاسر على مقاتلة رذريق المتشوق الى القتال .

وولّد الفشل الجديد امام بلنسية في نفس الامبراطور الادفونش رغبة في العفو عن السيد فكتب اليه صافحاً عنه معترفاً بخطأه الماضي مؤكداً له انه عند عودته الى قشتالة يجد جميع املاكه وارزاقه سليمة .

واخيراً تمت المصالحة بين الملك الادفونش ورذريق عسى يجد فيه سنداً لم يجده في البرهانيس الذي اندحر في جيان ١٠٩٢ اندحاراً يوازي فشل الزلاقة .

ليس من قوة تستطيع الصمود امام زحف المرابطين . انكسفت شمس الامبراطور امام شمس امير المسلمين يوسف بن تاشفين . جاء الغزو الافريقي تزوّده قوة لم يثبت امامها احد ؛ السيد فقط استطاع ان يقيس نفسه بها .

وفي سنة ١٠٩٣ ماتت الملكة قنستنصة ولم يبق له من مشير يعتمد عليه .

وامتدت سيطرة المرابطين التامة على الجنوب الغربي من الاندلس بعد معركة الزلاقة ، والناحية الشرقية ظلت خاضعة للسيد بعد ان ابعد عنها مطامع ملك ارغون وقند برشلونة والادفونش نفسه .

فعليه ان يدافع عن هذه المحمية الجديدة ويحتفظ بها من كل تأثير افريقي ، لأن حزب المرابطين اخذ يتحرك في سرقسطة ويدعو الى

العصيان ، ونشبت الثورات هنا وهناك منتظرة وصول احد قواد يوسف بن تاشفين .

وفيما كان السيد بسرقسطة يحاول قمع الثورة الناشبة في المدينة من قبل الحزب الافريقي ، وصلت اليه أنباء سيئة من القادر في بلنسية حملته على التعجيل في العودة اليها .

* * * * * * *

- ٦ -

القاضي ابن جحاف

تقع احياء المعاهدين في مدينة بلنسية ، حول كنيسة القديس منصور الشهيد ، وفي ربض الرصافة . وفي شمالي المدينة ، يسكن السيد ورجاله والفرسان الارغونيون وعددهم اربعون كما ذكرنا ، وكرسي الاسقف او المطران ايرونيموس .

وفي داخل المدينة كان الحزب الاسباني العربي يسيطر والجابي ابن الفرج الذي عيّنه السيد ، يجمع الجزية . وفي الوقت نفسه كان وزير القادر ذي النون بيده الحل والربط .

وفي الارياف كان رجال السيد يحكمون ويقضون في القرى . وكل شيء يسير على ما يرام ، بفضل حسن تدبير رذريق وحنكته . فتغيّبه عن بلنسية ، شكّل خطراً ازداد شدة بقدر ما يزداد المرابطون اقتراباً من المدينة .

وبالواقع عندما اطلّ ابن عائشة ، بعد احتلاله مرسية ، اخذ الحزب

الافريقي والفقهاء يتحركون ويكشفون عن ميولهم لابن عائشة ، بدل يحيى القادر المريض العاجز . ولكن خوفهم من السيد يحول دون تنفيذ رغبتهم.

وكان بيت القاضي أحمد بن جحاف ، مكان اجتماع القوم ، يتحدثون بصراحة وينتقدون القنبطور والوزير ابن الفرج . ولم تفت هذا الاخير معرفة الاجتماعات واسماء المجتمعين وما يدور فيها ، غير أنه يخشى القاء القبض على رجل ذي هيبة مثل ابن جحاف .

وانقلبت هذه الاجتماعات الى مؤامرة . فكتب القاضي الى محمد بن عائشة قائد المرابطين في مرسية يدعوه إلى استلام المدينة ، كما ان قاضي جزيرة شقر يحذو حذوه في تسليم مدينته اليه .

فتوجّه ابن عائشة إلى بلنسية . وفي طريقه اليها استسلمت له كل الحصون وجزيرة شقر أيضاً . ولما علم اصحاب السيد وجنود ارغون والمطران ايرونيموس بدنوّ القائد الافريقي ، حملوا ما يقدرون على حمله وغادروا المدينة .

ولما رأى الوزير ابن الفرج ان الاسبان المسيحيين تخلوا عنه ، خاف سوء العاقبة ، واطلع الملك القادر على حقيقة الحال ، فقرّر الاثنان انقاذ ما يمكن انقاذه من الكنوز الملكية ، وكتبا الى السيد ليأتي من سرقسطة على جناح السرعة . والكنوز حُملت على دواب ونُقلت الى قلعة الغرب الموالية .

مرّت عشرون يوماً على هذه الاحداث ، إلا وفي صبيحة اليوم العشرين سمعت طبول المرابطين . فدبّ الرعب في قلوب السكان البلنسيين ، الذين لم يتعوّدوا سماع مثل هذه الاصوات ، البعض امتلأوا خوفاً والبعض الآخر رجاء .

وطار النبأ ، ان خمسمائة فارس من المرابطين ، قرب اسوار المدينة . وبالحقيقة لم يكونوا سوى عشرين ، لأن ابن عائشة لم يشأ ان يخاطر بجنوده

وظلّ في دانية وطلب الى قاضي جزيرة شقر ان يساعد ابن جحاف في بلنسية ، فأرسل اليه بعض الجنود .

أمر ابن الفرج بتحصين الاسوار وبعث في الوقت نفسه حرساً الى منزل ابن جحاف للتفاوض معه . وكان القاضي قد جمع رجاله وسار الى القصر فالتقى بالوزير فألقى القبض عليه وزجّه في السجن .

وفي الوقت نفسه ، كان الثائرون قد تجمّعوا حول الابواب وابعدوا جنود يحيى القادر عن الابراج واستولوا عليها .

وعلت الغوغاء ووصلت الى اسماع القادر ؛ ففرّ من قصره بزي النساء ولم يمكنه الخروج من المدينة ، فاختبأ في بعض الدور الخالية . فاكتشف امره ليلة الجمعة ، لسبع بقين من رمضان سنة ٤٨٥ هـ. وسيق الى القاضي ابن جحاف ، فأمر بقتله . تولى ذلك فتى من بني الحديدي القتيل بطليطلة ، وطيف برأسه . واحتوى ابن جحاف على ما كان له ، وطرحت جثته في سبخة . فواراه رجل احتساباً وصدقة ، ودفن دون كفن .

أصبحت بلنسية تحت حكم جمهوري وعلى رأسها القاضي بن جحاف . فقال فيه الرئيس أبو عبدالرحمن محمد بن طاهر :

« ايها الاحنف مهلاً فلقت جئت عويصا
اذ قتلت الملك يحيى وتقمّصت القميصا
ربّ يوم فيه تجزى لا تجد فيه محيصا »

وتوجّه السيد إلى بلنسية ؛ ولما اصبح على مقربة منها ، سمع بمقتل القادر وبدخول المرابطين اليها .

ماذا يستطيع ان يفعل ؟ فيوسف بن تاشفين يسيطر على مناطق تمتد من نهر النيجر الى الصحراء الى المغرب إلى الاندلس واسمه يلفظ على الف وخمسمائة منبر . واستولى على ممالك غرناطة واشبيلية ومالقة والمرية ومرسية ودانية وبلنسية ايضاً . أليس من الجنون محاولة انتزاع هذه الفريسة من

انياب المرابطين ، بينما لم يتمكن الامبراطور والبرهانيس من ايقاف هـذا الزحف الظافر ، رغم المساعدة التي قدّمها الادفونش لغرناطة واشبيلية ومرسية ؟

وصل السيد إلى مدينة الجبل ونصب خيامه قربها ، فأقبل اليه جميع الهاربين من بلنسية ومن جملتهم خدّام الملك القادر ، طالبين الانتقام وواعدين القنبطور بالطاعة الكاملة وانهم وراءه الى الحياة والموت .

ابتدأ بمحاصرة الجبل . وكتب رسالة إلى ابن جحاف ينهيه على مـا تهيأ له وفي قلبه من استظهار يوسف بن تاشفين النار المضرمة . واخـذ يتعرّض له بالحسنة التي اكتسبها في شهر صومه ، من قتل سلطانه ويطالبه بالاطعمة التي كانت له بحصون بلنسية وانتهبها رجاله في حال الحادثة .

فجاوبه ان البلد لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين والاطعمة قد انتهبت.

فكتب اليه القنبطور ، يقسم بمحرجات ايمان دينه أن لا يبرح عن بلنسية حتى يظفر به ويأخذ ثأر ابن دنون .

وخاطب الحصون يستمد الاقوات للمحلة . فلم يخالف أحد اوامره . فصار يقوم بالغارات على بساتين بلنسية الغنية وتقع الاصطدامات بينه وبين قوات المرابطين المبعوثين من بلنسية لحماية تلك المناطق .

وبالحقيقة فان السيد ضم اليه جميع المتذمرين من المرابطين في المشرق الاسباني ، منهم صاحب السهلة ابن رزين واسياد موربتر وشاطبة ودانية ، بما عندهم من فرسان وانضموا الى قوات السيد وشرعوا في حصار بلنسية .

وابتدأت العمليات العسكرية ، غارتان كل يوم تشنان على المدينة ، فتنهب المواشي والانعام ويؤسر جميع الرجال الحاملين سلاحاً . ولكن جنود رذريق لم يتعرّضوا بسوء للمزارعين في الحقول ، حتى اذا ما جاء ايام الحصاد يجنون ما غرسوا .

اما في بلنسية ، فـكان الحزب الاسباني يرغب في المصالحة . ولكن

السيد لا يصالح ما دام المرابطون موجودين في المدينة . واخذ موقف ابن جحاف يتأزم ، فشكّل جيشاً من فرسان القادر ومن المرابطين المقيمين في بلنسية ويصل عددهم الى ثلاثمائة رجل ، كان يقيتهم من المؤن التي خلفها رجال السيد عند مغادرتهم المدينة . بالرغم من أن حضور المرابطين لا يرضي القاضي ، فانه لم يكن يستشيرهم في شيء ولا يدعوهم إلى مجلس ، يريد التخلّص منهم . فادركوا مقصده ولم يرضهم تصرّفه نحوهم . فاتصلوا بأعدائه داخل المدينة مثيرينها حرباً أهلية . اتفقوا مع بني واجب واتباعهم الذين لم يكونوا راضين عن المعاملة التي يعاملهم بها ابن جحاف.

وقد كتب والي مرسية السابق عبد الرحمن بن طاهر الى احد اعمام القاضي يقول له : « اما فيما يتعلّق بابن عمك ، زاد الله في مقامه ، فمنذ ان قام بالثورة التي يظن بها انه تخطى النجوم ، لا ينظر إلي بعين الرضى ويعتبرني حسوداً ومزاحماً له ، ولكن لعن الله من يحسده . ثم انه أثقل كاهلي بالوظائف ومع هذا فقد تحملته بصبر . ان الذين يتصرّفون هذا التصرّف لا يدوم ملكهم » .

وكان بنو واجب حزباً ضد بني جحاف القيسيين . ولا يرجع عهدهم الى ما قبل القرن الرابع الهجري . وعمر بن واجب ولد في اوائل القرن الخامس للهجرة وكان من القضاة المعروفين في بلنسية . مات سنة ٤٧٠ هـ. ١٠٧٧ م.

وكان ابنه ابو الحسن محمد ينعم بشعبية كبيرة في المدينة لشهامته وترفعه . واصبح عميد البلدية وله صلاحيات في تعيين عمداء على جزيرة شقر ومربتر .

حاول ابن جحاف صد هذه الغارات المتواصلة ، فلم يفلح نظراً لقلة القوات التي جنّدها من المرتزقة .

والسيد السيامي الداهية ، درى بالخلاف الناشب بين بني جحاف وبني واجب . فكتب إلى ابن جحاف يقول له : اذا كنت ترغب في ان

تصبح سيد بلنسية الحقيقي ، فأنا مستعد لمساعدتك كما ساعدت يحيى القادر قبلك ، بشرط واحد وهو طرد المرابطين من المدينة .

لم يرَ القاضي بأساً في هـذا الاقتراح ، فطلب المشورة من اخصائه ، فأشاروا عليه بالعمل على إرضاء القنبطور .

ابتدأ ابنه جحاف بطريق غير مباشر ، يستعمل الوسائل لابعاد المرابطين عن المدينة . فقتّر عليهم في تقديم الاطعمة بحجة انها آخذة في النفاذ ، وبالحقيقة لديه الكثير منه . انه في موقف دقيق ، لا يريد اغضاب المرابطين من جهة ويريد ارضاء رذريق من جهة ثانية .

وبعث ابن عائشة ، قائد المرابطين المعسكر بجيشه في دانيـة ، بعث يطلب من ابن جحاف قسماً من كنوز يحيى القادر لارسالها كمساعدة الى يوسف بن تاشفين لينظم جيشاً يأتي لإنقاذ بلنسية . فجمع القاضي اخصاءه واستشارهم في امر الرسالة . فانقسم الناس قسمين ، ورجحت كفة ارسال الكنوز إلى دانية .

جمعت الاموال مع ابن عبـد العزيز ورجل من بني واجب وآخر من بني جحاف وغيرهم . وخرجوا من بلنسية بكل حذر ، خوفاً من السيد الذي درى بهم ، فأرسل بعض الفرسان يقتفون خطوهم واستولوا على ما كان معهم من الاموال وشكر السيد الرجل الذي أطلعه عـلى امرهم ووعده بمكافأة .

استسلمت قلعة الجبل . ولما جاء شهر تموز ، شهر الحصاد من سنـة ١٠٩٣ ، تقدّم السيد نحو بلنسيـة وامر باحراق جميع القرى الواقعة في المنية وخاصة تلك التي لبني جحاف وخرّب الطواحين وحصد القمح وهدم الابراج والبيوت التي صادفها في طريقـه . وارسلت الاحجار والاخشاب الى محلة الجبل لبناء المدينة الجديدة وترميم القلعة .

وفي هـذا الشهر نفسه ، استولى السيد على الحيين الشماليين من المدينة

وجمع الناس فيهما وعزاهم على آلامهم ومصائبهم وامنّهم على اموالهم وحياتهم ووعدهم بالحسنى ولا يرهقهم بالضرائب ولا يستوفي منهم سوى العشر من مواسمهم ، كما يقول الكتاب .

واقام عليهم جابي الضرائب اسمه عبدوس ، بينما واصل التضييق على المدينة ، فمنع الدخول اليها والخروج منها وشمل الخوف نفوس السكان .

ظلّت الاتصالات مستمرّة بين ابن جحاف ورذريق . واجتمع المرابطون واصحاب الرأي في المدينة ليروا مخرجاً من هذا الموقف اليائس ولم يجدوا سبيلاً الا في عقد صلح مع القنبطور مهما كانت الشروط بانتظار جواب يوسف بن تاشفين .

قبل رذريق الهدنة على شرط ان يخرج المرابطون من بلنسية . فاطلع هؤلاء على الامر واجابوا بالقبول ، نظراً لسوء المعاملة التي لاقوها من ابن جحاف . فتمّ الاتفاق على الشروط التالية :

اولاً : يُسمح للمرابطين بالخروج من بلنسية دون ان يتعرّض لهم احد.

ثانياً : يتعهّد ابن جحاف بدفع قيمة الحنطة التي كانت موجودة في بلنسية ، عند مقتل يحيى القادر وعشرة آلاف دينار في الشهر للسيد ، منذ ابتداء الحرب .

ثالثاً : الارباض التي احتلها رذريق بالقوة تبقى ملكاً له .

رابعاً : تنزل قوات السيد في مدينة الجبل .

وفي الحال خرج المرابطون من بلنسية وعاش العرب فيها بأمان ، وانسحب رذريق بقواته إلى مدينة الجبل .

ارسل يوسف بن تاشفين الى الاندلس جيشاً جراراً . وصل الخبر الى السيد ، فأخذ يستعد للمقاومة واعطى مهلة شهر آب ، سكان مدينة بلنسية

قائلاً لهم : « أيها البلنسيون ، اعطيكم مهلة شهر آب ، فاذا وصل يوسف في هذه المدة لمساعدتكم وقهرني نجوتم مني ، فتخدموه . واذا لم يصل في هذه المدة تصبحون تحت سلطتي » .

رضي الحزب المعارض بهذا الشرط ووجّه الرسائل الى الامراء المرابطين في الاندلس يحثونهم على الاسراع في نجدتهم قبل اكتمال شهر آب ، وان هذه المدينة لا ترغب في ان يسود عليها القنبطور .

ورذريق برّ بقسمه فترك المدينة لحالها طيلة شهر آب محاولاً في الوقت نفسه تقوية الحزب الاسباني فيها .

ثم توجّه قاصداً السهلة لأن صاحبها أبا مروان بن رزين نقض العهود المبرمة منذ عشرة أشهر ولم يدفع الجزية . فقام بغارات تأديبية على بلاده وفي احداها تعرّض لخطر الموت . ففي ذات يوم كان بصحبة خمسة من فرسانه لما تصدى له اثنا عشر فارساً من مدينة سانتا مرية ، فقتل منهم اثنين ولجأ الآخرون إلى الفرار ، غير انه اصابته طعنة شديدة في عنقه ، وقتل العرب اثنين من جنوده . وكان الجميع يرى ان لا نجاة للسيد من هذه الطعنة . ولكن الجرح اخذ يميل الى الشفاء .

ومرّ شهر آب ولم يصل المرابطون الى بلنسية . وواصل السيد الغارات على تلك المناطق طيلة شهرَي ايلول وتشرين الاول ، على امل ان يبرّ البلنسيون بيمينهم فيسلموه المدينة .

ولما رأى ابن رزين أن لا قبل له على مواصلة الكفاح ضد السيد ، عاد الى دفع الجزية وقدّم للسيد الرجال والاسلحة الضرورية لاحتلال بلنسية .

وفي هذه الاثناء استلم رسالة من ابن جحاف يطلب اليه فيها العودة على جناح السرعة .

وشاء رذريق ان يختبر الى اي حد تصل طاعة البلنسيين له ، فطلب

الى ابن جحاف ان يسمح له بمرور بعض قوّاته الى المنية التي كانت تخص ابن عبد العزيز والقسم الباقي من جيشه ظل في الرصافة .

لبّى القاضي طلبه . وفي ذات يوم وصل الخبر إلى بلنسية بقدوم المرابطين ، فهم في لرقة وقادمون نحو مرسية . فايقظ السرور في نفوس اعداء ابن جحاف وهم بنو واجب .

وحار القاضي في امره ، فلا يدري كيف يعمل على إسكات النمائم التي قامت ضده ، فقال : انا لم اسلم المنية للسيد ، بل سمحت له بالاستراحة فيها بعض الوقت . واني عازم على قطع علاقاتي بـه واني استعفي من جباية الاموال له ، فليبعث من ينوب عني بهذه الوظيفة .

ومع هذا فالشعب مال الى بني واجب وقرروا اغلاق الابواب . ولم يتجاسر ابن جحاف معارضة هذا القرار الجريء . ولكنه ذهب للاجتماع برذريق في مدينة الجبل ليثبت من جديد تحالفه معه . والعرب البلنسيون من جهتهم لم يقرّروا موقفهم ، فاكتفى بعضهم بالكتابة الى قائد المرابطين الكبير سير بن أبي بكر معاولين تخويفه بقولهم : اذا شاء احتلال بلنسية فسيتعرّض لمحاربة ثمانية آلاف فارس من الاسبان الاشداء ؛ فاذا وجد في نفسه الكفاءة على محاربة هذه القوات كان به والا فليفكر فيما يصنع .

وكما نرى فان موقف البلنسيين مضطرب ومترجرج . فالموالون للسيد انفسهم لم يتجرأوا على معارضة وصول جيش المرابطين . توجّه السيد إلى الربض الشرقي من المدينة وجيشه ظل مرابطاً في جنوبها .

واسخط تقرّب ابن جحاف من السيـد الحزب الافريقي الواثق من قدوم المرابطين .

واخيراً وصل المرابطون بقيادة سير بن ابي بكر . وعند هذا النبأ استقال ابن جحاف ، فعين الحزب الافريقي مكانه ابا الحسن بن واجب فقرّر اغلاق الابواب والدفاع عن المدينة ونقض العهود مع السيد .

وسكت الحزب الاسباني وقبع ابن جحاف في بيته .

جدّد رذريق القتال ضد المدينة . ووصلت اليـــه الانباء ان جيش المرابطين اصبح في شاطبة .

وتجاه هذا الخطر المحدق ، ترك السيد المدينة الجديدة وذهب للانضمام الى حاميته في جنوبي مدينة بلنسية . وقرّر انتظار المعركة . فأمر باغراق البساتين بالمياه لكي لا يتمكن الاعداء من الوصول اليه الا عن طريق ضيق .

ودرى ان المرابطين اصبحوا في جزيرة شقر ، وزاد ابتهـــاج الحزب الافريقي ، فصعد الناس الى الابراج لمشاهدة القوّات الافريقية تتقدّم في السهل . وفي الليل شاهدوا الخيام المنصوبة على اقل من ثلاثة اميال من المدينـــة .

وفكّر البلنسيون في نهب معسكر السيد عندما يكون منشغلاً في قتال المرابطين . وقضى رجال رذريق الليل في الصلاة بانتظار المعركة المقبلة .

وكانت ليلة شديدة الاهوال والامطار لدرجة انه ظن الطوفان جاء . ولما اصبح الصباح ، أطلّ البلنسيون على الابراج لمشاهدة القوات الافريقية قادمة فلم يروا احداً ، فدبّ اليأس والهلع في قلوبهم . وفي منتصف النهار جاءهم رسول يقول : لن يأتي المرابطون ، فقد نكصوا على أعقابهم .

واخذ الغلاء يشتد داخل بلنسية في شهر تشرين الثاني ١٠٩٣ . ووصلت الى بني واجب رسالة من ابن عائشة في دانيـــة تقول : ان الجيش لم ينسحب عن خوف ورهبة بـــل لنقص في الاطعمة ولكثرة الامطار التي اعاقت سيره وانه يستعد من جديد لينقضّ على القنبطور .

غير انه جاء نبأ آخر يقول : ان الجيش الافريقي قد ابحر الى المغرب ولم يبق من امل في النجاة .

فتنفّس الحزب الاسباني الصعداء في مدينة بلنسية فسلّم . الامور من جديد الى ابن جحاف ليبدأ بالمفاوضة مع السيد حالاً (كانون الثاني ١٠٩٤).

فطلب رذريق سجن زعماء بني واجب فنفذ ابن جحاف الطلب بكل طيبة خاطر . وطلب ايضاً ان يقدم ابن جحاف ابنه رهينة . وان الجزية يحبيها جابي يعينه السيد نفسه ، كما كان على ايام القادر . فرضي ابن جحاف بهذه الشروط على امل انه في اليوم التالي يوقّع عليها .

وساء القاضي ان يسلم ابنه رهينة الى رذريق ، فكتب له متمنعاً . فأجابه برسالة مليئة بالتهديد والوعيد ، يقول فيهـــا انه لا يؤمن بعـد بأي كلام يقوله له .

لم يعبأ القاضي بتهديداته ، فقد ساعده رذريق على التخلّص من بني واجب ، فأصبح سيد بلنسية الحقيقي ليس له من ينازعه ، فقرّر مواصلة القتال غير عابىء بآلام الشعب المتضوّر جوعاً ، لأن السيد قطع عن بلنسية المرافق ونصب المجانيق ونقب الاسوار ، وعُدم الناس الطعام واكلوا الفيران والكلاب والجياف الى أن أكل الناس النـاس . ومن مات منهم اكلوه . فبلغ الناس من الجهد ما لا يطيقون .

فلما طال عليهم البلاء وعدموا الصبر ؛ وكان المرابطون قد خرجوا من الاندلس إلى العدوة ، ولم يجدوا ناصراً في ملك سرقسطة ولا ابن عائشة ، عزموا على تسليمها القنبطور فاستأمنوه على انفسهم وأموالهم . واشترط على ابن جحاف أن يعطيـه جميع ذخائر القادر . فأجاب كل منهما الى سؤاله وانعقد الصلح بينهما وفتح الباب ودخل القنبطور المدينة ونزل في القصر وتملكها سنة ٤٨٨ – ١٠٩٤ .

وطلب الى القاضي تسليم جميع ذخائر القادر ، فسلمها لـه الا ذخيرة نفيسة أمسكها ، فوقع عليها عند القنبطور ، فسأله عنها فأنكرها ابن جحاف ، فأمر بحلفـه بحضرة الشهود وأعيان المسلمين وأعيان النصارى . فحلف أنه ما رآها ولا هي عنده .

وهرع زعماء العرب لتقبيل يد السيد واستقباله . فرحّب بهم بلطف وقال لهم : ان جميع المنافذ الداخلية في الأبراج قد سدّت لكي لا يرى

الجنود ما يجري داخل المنازل العربية ، كما أنه وضع على الابراج فرساناً من المعاهدين الذين يعرفون اللغة العربية والتقاليد .

ومرّت أربعة أيام على دخول السيد الى بلنسية ، فجمع الرجال في ربض المدينة الجديدة والقى فيهم خطاباً جاء فيه : « لم اخلق من سلالة الملوك ولكن مذ جئت الى هذه المدينة طلبت من الله ان يسلمني اياها . وترون الآن ما هي سلطة الله وقدرته . وعندما جئت لمحاصرة مدينة الجبل ، لم يكن معي سوى اربعة ارغفة واليوم استوليت على بلنسية . فاذا حكمت فيها بالعدل فان الله يبقيها لي . واذا حكمت بالظلم ، فان الله ينزعها مني .

فليذهب كل واحد منكم الى أرضه ، فقد اصدرت الاوامر الى الجباة الا يقبضوا اكثر من العشر ، كما تقول شرائعكم .

واني عازم على نشر السلام والعدل بينكم . فلا انصرف مع النساء الى معاقرة الخمرة والى سماع الموسيقى ، كما يفعل اسيادكم الذين لا تستطيعون مشاهدتهم اذا اردتم . فأنا بذاتي اريد ان احل جميع مشاكلكم واكون لكم كرفيق واحافظ عليكم كما يحافظ الصديق على صديقه والقريب على قريبه .

اريد ان اشفي أمراضكم وانقذكم من البؤس . وآسف جداً على الجوع الكبير الذي لاقيتموه ، فاذهبوا الآن الى بيوتكم واملاككم . واقد حرّمت على رجالي تحريماً باتاً الا يحبسوا عندهم عربياً او عربية . واذا خالفني احد فخذوا الاسير واطلقوا سراحه وضعوا مكانه الذي اسره ، دون ان يلحقكم أدنى ضرر من هذا العمل » .

وعاد الجميع الى منازلهم يعملون في حقولهم بسكينة .

وصل نبأ سقوط بلنسية الى يوسف بن تاشفين فملأ قلبه حزناً . وانتقل الى سبتة وجمع جيشاً ، وضع على رأسه محمداً بن تاشفين . وكتب في الوقت

نفسه الى صاحب السهلة وحاكم غرناطة وغيرهما ، طالباً اليهم انضمام قواتهم الى القوات الافريقية القادمة .

نزلت القوات الافريقية العظيمة في اسبانيا في ٣١ أيلول ١٠٩٤ وانضمت اليها قوّات أندلسية وذهبت وعسكرت على مرحلة من المدينة . والعرب في تلك الانحاء يقدمون المأكولات لهـا او يبيعونها . وخاف الاسبان البلنسيون من كثرة المرابطين وعزموا على الفرار من المدينة . أما السيد فظلّ عامر الثقة هادىء الاعصاب . والمعاهدون بذلوا جهدهم في استرضاء المسلمين . وازداد تيه الحزب الافريقي .

وبعث القنبطور يطلب النجدة من الملـك الادفونش السادس وبطرس الاول ملك ارغون ، رغم معرفته الصعوبات الجمة في وصول هذه الامدادات لأن بطرس الاول منهمك في حصار وشقة .

انتهى شهر رمضان المبارك في تلك السنة يوم ١٤ تشرين الاول . واحتفلت قوات المرابطين بعيد الفطر على مقربة من المدينة .

وقرّروا مهاجمتها ، فشرعوا يشنون الغارات بعنف زائد . والسيد لم ينتظر وصول النجدة ، فقرر الهجوم على هذا الجيش الضخم في ساعة لا ينتظرها . فخرج ذات ليلة من المدينة مع عدد من فرسانه وأرسل عدداً آخر لمهاجمة المعسكر ، فخلق البلبلة في الصفوف حتى ان محمداً بن عائشة نفسه ، اضطر الى الهرب . وتضعضع ذلك العسكر الجرار ، تاركاً غنائم لا تعد ولا تحصى من أسلحة عـــلى اختلاف انواعها وخيول ومأكولات ولباس وذهب وفضة .

وصل نبأ هذا الانتصار إلى الملك الادفونش وكان قـــد قطع نصف الطريق ، لمساعدة القنبطور فنال خمس الغنيمة .

شاء الادفونش ان ينتهز هذا الاندحار الاول للمرابطين منذ ثمانية اعوام في انتصارات متتالية ، فغزا منطقة غرناطة في وادي اش واستصحب معه عائلات مسيحية عربية لاستيطانهم في منطقة طليطلة .

اما يوسف بن تاشفين فقد استاء كل الاستياء من ابن شقيقته محمد قائد الحملة وبقية القوات المنهزمين الى شاطبة ودانية . فكتبوا له معتذرين ولم يقبل عذرهم ولم يحاورهم وتأخر طويلاً في ارسال المـــال الى ابن عائشة في شاطبة .

تلك هي معركة قوارت التي اندحر فيها المرابطون للمرة الاولى .

ولما استراح السيد من المرابطين رأى ان ينتقم للقادر . ففاجأ العرب البلنسيين المجتمعين في جلستهم حسب العادة وقـال لهم : سلموا اليّ ابن جحاف لأنه قتل ملككم ولا يجب أن يعيش خائن بيننا . فانظروا بأي طريقة تنفذون هذه الاوامر .

فوجّه اكبر الملتين عدداً من الرجال المسلحين الى بيت ابن جحاف ، فصادفوا بعض المقاومة وحطموا الابواب ودخلوا والقوا القبض على القاضي وابنه والكثيرين من انصاره وحملوهم جميعاً الى السيد في ١٠ شباط ١٠٩٥ .

القاه في السجن ؛ ثم امر بأن ينقل الى الجبل وعذّبوه العذاب الاليم حتى اعترف بجريمته بأنه احتفظ بعض كنوز القادر ومنها اعلاق زبيـدة زوجة هارون الرشيد الخليفة العباسي .

ولما استصفى جميع مال ابن جحاف من ظاهر وباطن ، امر باضرام النار . وسيق القاضي يوسف في قيوده بين ولده واهله وقد حشر الناس من اهل الملتين . وقال القنبطور للملأ : « ما جزاء من قتل اميره عندكم في شرعكم ؟ » فصمتوا . فقال : « أما نحن فجزاؤه عندنا الاحراق ! ». وامر به ويحملته الى تلك النار ، وقد لفحت الوجوه على المسافة البعيدة . فضجّ المسلمون والنصارى وتضرّعوا اليه في ترك الاطفال والعيال ، اذ لا ذنب لهم . فأسعف الرغبة بعد جهد ومدة . واحتفر للقاضي ابي المطرف ابن جحاف حفرته وادخل فيها إلى حجرته وسوّي التراب حوله وضمت اليه النار . فلما لفحت وجهه قال : « باسم الله الرحمن الرحيم » . ثم ضمها

الى جسده فاحترق . ولم يكن غضبه عليه الا لاجتهاده في طلب النصر . ودفعه اياه بالمطاولة رجاء في استمساك بلنسية للعرب .

وابن جحاف ميتاً اضرّ في السيد اكثر منه حياً ، لأن الجميع اعجبوا بصبره على العذاب وتجلّده . فشرع العرب يعملون على اضرام الثورة والعصيان ضد القنبطور . فهم يعتبرون ابن جحاف بمثابة شهيد .

وفي سنة ١٠٩٥ ، نشبت ثورة في بلنسية ، قمعها السيد بقسوة وأجلى العرب المسلمين عن بيوتهم داخل المدينة ليقيموا في الارباض ، التي يسكنها المسيحيون وجاء بهؤلاء لاسكانهم في منازل العرب المسلمين المتمردين وحوّل الجامع الاكبر الى كنيسة . وفشل التعايش السلمي بين العرب والاسبان ، كما يهدف اليه السيد .

* * * * * *

- ٧ -

شيانه في بلنسية

استقينا هذا الفصل وما يليه من ملحمة السيد .

وعدّ القنبطور رجاله فاذا هم ثلاثة آلاف وستمائة رجل فقال : لقد خرجنا من فيفار بعدد ضئيل ، فالشكر لله وللقديسة مريم على انعامهما علينا . ودعا اليه البرهانيس وقال له : خذ مائة جواد من افضل الجياد عندي وتوجّه الى قشتالة لمقابلة الملك الادفونش وقدمها هدية مني اليه وقبّل يده عني وتضرّع اليه بحرارة كي يسمح لعائلتي بالقدوم الى بلنسية .

فاستعدّ البرهانيس للسفر واعطاه ألف دينار من الفضة . النصف يقدّم

لدير القديس بطرس والنصف الآخر لرئيس الدير . وأرسل معه مائة رجل في خدمته اثناء السفر .

سار البرهانيس يقطع الجبال والفدافد حتى بلغ قريون فوجد الملك الادفونش خارجاً من الكنيسة فسجد امامه وقبّل يده وقال : الرحمة يا سيدي الملك بحق الله ! ان القنبطور يقبّل يدك ورجلك كما يليق بك ويلتمس منك الشفقة ؛ لقد استولى على المنارة ومربطر والجبل وهو الآن صاحب بلنسية وانتصر في خمس معارك واعطاه الله خيرات لا تفنيها النيران ، ويرسل لك مائة جواد من الخيول الأصيلة بسروجها ويرغب اليك ان تتقبّلها » .

فرفع الملك يمينه ورسم اشارة الصليب على وجهه وقال : تبارك الله ! ما أشدّ سروري لهذه المكاسب التي صارت الى السيد . اقبل الهدية .

– إذا سمح لي سيدي الملك آخذ معي شيمانه زوجة السيد وابنتيه من الدير الى بلنسية .

– بكل طيبة خاطر . ازودهن بكل ما يلزمهن ما دمن في مملكتي واحفظهن من كل أذى ، وعند وصولهن الى الحدود اوكلهن الى عنايتك ، لا اريد ان يخسر القنبطور شيئاً . من اراد مرافقة السيد فليكن له ما يريد .

ولما اراد البرهانيس مغادرة برغش تقدّم اليه راحيل وبيدس وقالا له : الرحمة يا البرهانيس ، فاذا أبى القنبطور مساعدتنا ضاع مالنا . نحن لا نريد منه فائدة فليردّ لنا رأس المال .

فوعدهم خيراً . وودّع الملك مقبّلاً يده .

وكان اميرا قريون حاضرين فقالا في سرهما : ما علينا لو تزوجنا ابنتي السيد .

وخرجا مع البرهانيس وقالا له : سلّم على القنبطور من طرفنا وقل له اننا من اخصائه . تابع البرهانيس سيره حتى وصل الى دير القديس بطرس حيث السيدات فسررن بلقائه ، فقال لهن : القنبطور يسلّم عليكن وقد اصبح غنياً جداً والملك سمح لكن بمرافقتي الى بلنسية التي اصبحت ملكاً لنا .

وبعث ثلاثة فرسان الى بلنسية ليخبروا السيد ان الملك سمح باخراج شيمانه وابنتيها وكل السيدات اللواتي يرغبن في مرافقتها .

وانضمّ الى البرهانيس عدد كبير من المرتزقة الراغبين بالخدمة في صفوف السيد وتحت اعلامه .

وصل الرسل الى بلنسية وأطلعوا السيد على الواقع قال : انت يا مونيوس وانت يا بطرس برمودس وانت يا مرتين انطولينس ، خذوا معكم مائة فارس لعلكم اضطررتم الى خوض معركة ، واجتازوا السهلة ومولينه وهناك ابن غلبون صديقي يقدّم لكم ما تحتاجون .

فساروا جميعاً واجتازوا السهلة ، ولما درى الامير العربي بوصولهم خرج لاستقبالهم .

– انتم من رجال صديقي الحميم فكونوا على ثقة من ان وصولكم يسبّب لي فرحاً كبيراً .

فأجابه مونيوس : ان السيد يسلّم عليك ويطلب منك ان تساعده بدون تأخير بمائة فارس . فان امرأته وابنتيه في مدينة سالم ، يرغب ان تأتي بهن وترافقهن برجالك الى بلنسية .

– بكل طيبة خاطر .

ثم أولم لهم وليمة ، وفي الصباح رافقهم بمائتي فارس . وعندما تبينهم البرهانيس من بعيد ظن بهم شراً فبعث يستعلم عن شأنهم وسُرّ غاية السرور لما علم من هم وخرج لاستقبالهم بمائة فارس مزينين اجمل زينة .

ولما التقى الطرفان هرع ابن غلبون وقبّل البرهانيس في كتفه وقال : ما اسعد هذا اليوم الذي اراك فيه ! علينا احترام هذه السيدة وابنتيها لأن تلك إرادة السيد .

فابتسم البرهانيس وقال : « انـك ، يا ابن غلبون صديق امين ، فاذا اوصلني الله الى بلنسية أضمن لك انك لم تتعب باطلاً . والآن ادخل فاستريح ، العشاء جاهز » .

- يعجبني منك هذا الإطراء . قبل اليوم الثالث ارده لك مضاعفاً .

ودخلوا مدينة سالم واستقبلوا بحفاوة بالغة . وعند الصباح خرجوا من المدينة حتى بلغوا مولينه البلد المزدهر حيث يملك ابن غلبون . فأكرم مثواهم ولم يدخر وسعاً في الترفيه عنهم .

ومر يوم آخر ، وفي الصباح استأنفوا سيرهم ورافقهم ابن غلبـون حتى بلنسية دون ان يتناول اي اجر منهم . ولما اصبحوا على ثلاثة اميال من البلدة ذهب الرسل لإعلام السيد بوصولهم .

سُرّ السيد سروراً لم يعرفه قبل اليوم . فان من احبهم فوق كل شيء في العالم على مقربة منه وأمر في الحال ان يتوجه مائتا فارس الى لقائهم وبقي ساهراً على المدينة .

وعند وصولهم خرج السيد للقائهم وترجّل عن متن جواده بيبيكا الذي غنمه من الافارقة واقترب من امرأته وابنتيه فخرّت شيمانه ساجدة عند قدميه قائلة :

الرحمة الرحمة يا قنبطور لقـد انقذتني من اعمال تخجلني وها أنا الآن تحت قدميك برفقة ابنتيك الجميلتين لنخدمك ونخدم الله .

فقبّل السيد الأم والابنتين وانفجرت دموع الابتهاج من عينيه .

وتأمله الجميع والغبطة تملأ فؤادهم فقال السيد : انت يا شيمانه امرأتي

الطاهرة الشريفـة وأنتما يا ابنتيّ المزيزتين على قلبي وروحي ادخلن معي الى بلنسية فهي لكن .

فقبّلت الأم والابنتان يـــدي السيد ودخلوا جميعاً بأبهة عظيمة الى المدينة . فأصعدهن السيد الى أعلى برج وأراهن جمال بلنسية ، من ناحية البحر ومن ناحية اخرى بساتين البرتقال ، ورفعوا يمينهم وشكروا الله .

وجـــاء جيش من المرابطين لحصار المدينة فهال امرأة السيد وابنتيه كثرة العساكر واصوات الطبول غـير المألوفة لها آذانهن فهدّأ السيد من روعهن بعد ان داعب شعر لحيته .

ـ لا تخشين شراً فان هـذه الخيرات جميعاً ستصبح عن قريب لكنّ ان شاء الله . فسآتيكن بالطبول التي تسمعن الآن اصواتها حتى تشاهدن صنعها ، ثم نضعها في كنيسة القديسة مريم ام الله . انه نذر . فهدأ قليلاً روع النساء .

وخرج جنود السيد لمقاتلة العدو واصطدموا بـه . وعند هبوط الليل كان عدد الضحايا من المرابطين خمسمائة قتيل .

وخطب السيد في رجاله : اسمعوا لي ايها الابطال ، كان يومنا سعيداً وغداً اسعد . غداً نسمع القداس ونمتطي صهوات خيولنا ونهاجمهم بعنف اشد من هذا اليوم .

فقال البرهانيس : إذا شئت ايها السيد فاترك لي مائة وثلاثين فارساً للقتال وعندما تنقض عليهم ببقية الجيش اظهر من ناحية اخرى ونأخذهم من ورائهم والله يساعدنا .

وخرجوا جميعاً الى القتال بعد ان تركوا على الابواب رجالاً ثقة واعتلى السيد صهوة جواده ببيبكا وخرج معه اربعة آلاف رجل الا ثلاثين للقاء خمسين الفاً والبرهانيس ورجاله ذهبوا من ناحية اخرى .

فاستخدم السيد الرمح . ولمـا انكسر جذب السيف من غمده وقتل

الكثيرين من الأعداء وتلطخت ثيابه بالدماء ووجّه ثلاث ضربات الى قائد جيش المرابطين فنجا منها والتجأ الى قلعة قوليره . وغنم السيد كل ما كان لذلك الجيش ودخل ظافراً الى بلنسية على ظهر جواده وترك البرهانيس يجمع الغنائم .

استقبلته السيدات فأوقف الجواد وخاطبهن قائلاً : غنيمتنا عظيمة . هكذا شاءت ارادة الله وقديسوه . انظرن سيفي المصبوغ بالدماء وحصاني المبلل بالعرق . انتصرنا في حومة الوغى على الاعداء المرابطين ، تضرّعن الى الله من اجلي كي يهبني الحياة والعافية والجميع سيقبل ايديكن .

وبعد ان ترجّل السيد عن الجواد اقتربت امرأته شيمانه وابنتاها وجثون امامه فأنهضهن ورافقهن الى القصر وجلسن قربه وحولهم وصيفات شيمانه فقال السيد : اريد تزويج هؤلاء الوصيفات برجالنا وأدفع لكل واحدة منهن مائتي دينار .

فتقدّمن كل واحدة بمفردها وقبّلت يد رذريق شاكرة ، وعمّ السرور جوانب القصر .

وكان البرهانيس ما زال في ساحة القتال يجمع الاسلاب . اصاب رذريق منها الف جواد وخيمة ملك الافارقة اعمدتها من الذهب الخالص . فأحب السيد اهداءها الى الملك الادفونش . ونالت المطرانية عشر الغنيمة وعلى رأسها الاسقف ايرونيموس الذي اشترك في القتال .

والاسقف ايرونيموس هذا جاء من الشرق وهو راهب عليم بجميع القضايا ومعارفه واسعة ، فسرّ السيد به كل السرور وقال لجماعته : عظيم هو الرب ، هذا الراهب يكون اسقفاً على بلنسية .

فسرّ سكان بلنسية المسيحيون بهذا التعيين لأنه اصبح لهم مطران .

تمّ هذا التعيين بموافقة الملك الادفونش السادس .

- ٨ -

زواج ابنتي السيد

وقال اميرا قريون في نفسهما : « قضايا السيد تزدهر فلماذا لا نتزوج ابنتيه فقد تأتينا من هذا الزواج منفعة كبرى » .

وتقدما الى الملك بهذه النية والقصد :

– نعمة نرجو منك ايها الملك ان تخطب لنا ابنتي السيد لأننا نرغب في الزواج منهما .

فتأمل الملك بعض الوقت وقال : نخاطب رذريق بالأمر ونرى مـا يكون جوابـه . وجاء برجلين وأرسل معهما رسالة الى القنبطور يطلعه فيها على النبأ .

ولما قرأ السيد الرسالة قال : الشكر لك يا ربي والهي لأني من جديد حظيت بمحبة الملك ورضاه . فما رأيك يا البرهانيس بهذا الزواج ؟

– الرأي لك .

– ان اميري قاريون من اعرق الناس نسباً ، وما كان الزواج ليعجبني لو لم يأت من الامبراطور الذي ينصحني بـه وله بعد نظر اكثر مني . فلتلهمنا السماء ما فيه خيرنا وفلاحنا .

ويدعوني الملك في الرسالة للذهاب الى طليطلة حيث نقرّر مـا يجب ان يكون ، فلا أرى مانعاً من الذهاب فلتهيأ الرحلة . قـد اوكلنا الى البرسالفدورس المحافظة على المدينة وحراستها طيلة غيابنا والا يفتح الابواب لا في الليل ولا في النهار ولتمكث امرأتي وابنتاي في القصر ولا يخرجن منه حتى نعود من رحلتنا الى طليطلة .

وبعد مسير بضعة ايام وصلوا الى عاصمة القوط السابقة وكان الملك الادفونش السادس في انتظاره . فقبّل السيد يده ، واقترب اميرا قاريون منه وقالا : حييت ايها السيد وبوركت الساعة التي ولدت فيهـــا ، نحن اصدقاءك المخلصين مرنا بما تشاء .

فأجاب السيد : ليكن كذلك .

ومرّ يومان وتلا الاسقف ايرونيموس ذبيحة القداس ثم اجتمع جميعهم ، حاشية السيد وحاشية الملك فقال هذا :

ايها الناس اصغوا لي ، اتلو عليكم رغبة السيد وهي ان تزوج ابنتيك البيره وشمس بأميري قاريون ، انه زواج مشرّف ، هما يطلبانه وانا انصحك به وأرغب من جميع الحاضرين ان يساعدوني في طلبي . اعطنا اياهما ايها السيد ، رعاك الله .

– لا يحق لي تزويج ابنتيّ لأنهما مـا زالتا صغيرتين ، واميرا قاريون لهما شهرة واسعة ويصلحان لابنتيّ ولمن همـا أعلى قدراً من ابنتيّ ، فأنا وهما بين يديك ايهـا الملك فتصرّف بهما كيف شئت وأعطهما من شئت واكون راضياً .

– شكراً ايها السيد .

ثم اقترب اميرا قاريون وقبّلا يد القنبطور وقال الملك :

– زوجت ابنتيك من اميري قاريون عسى يكون هذا الزواج لخير الجميع . اسلمك هذين الاميرين اللذين اصبحا صهريك فيرافقانك وقـــد أمرت بأن يدفع لهما ثلاثمائة دينار من الفضة نفقات اكليلهما .

فشكر السيد الملك وقبّل يده وقال : نعمة ارجوها منك يا مولاي وكّل رجلا ينوب عنك لأسلمه ابنتيّ .

– البرهانيس يأخذهما بذاته ويسلمهما الى اميري قاريون .

فرضي البرهانيس بالنيابة عن الملك ، وودّع السيد الملك بعد ان أهداه

ستين جواداً بكامل عدتها ، فشكره الملك قائلا : سخاؤك يدهشني ، قبلت الهدية ، وان شاء الله أكافئك عليها . اغادرك برعاية الله .

فاعتلى السيد صهوة جواده بابيبيكا وقال : اعلن امام الملك ، من أراد حضور العرس فليأت معنا .

فتقدم كثير من الفرسان مقبّلين يـــد الملك وطالبين منه السماح لهم بالذهاب الى بلنسية لحضور العرس المزدوج فسمح لهم وانضموا الى حاشية رذريق فازداد عددها ونقصت حاشية الملك .

وعند وصولهم الى بلنسية قـال السيد لبطره ومونيوس غوسطوس : تدبرا شأن الاميرين في مبيتهما هذه الليلة ، وفي الصباح تماليا معهما للسلام على زوجتيهما البيره وشمس .

وذهب كل الى منزله وجاء السيد الى القصر فهبت شيمانه وابنتاها لاستقباله .

— سعيدة العيون التي تراك يا قنبطور .

— اجل انا هنا ايتها الزوجة الفاضلة الوفية ، جئتك بصهرين يشرفاننا ، اشكراني يا ابنتيّ لأنني زوّجتكما زواجاً كريماً .

فقبّلت شيمانه وابنتاها يدي السيد وكذلك فعلت السيدات وصيفاتها .

— هـذا الزواج يشرّفنا ، لم افتش عنه ، الملك الادفونش سعى بـه وطلبه مني ولا أقوى على ان ارد للملك طلباً ، فقد سلمتكما اليه يا ابنتي الحبيبتين ، زواجكما جاء منه لا مني .

واخذوا في تزيين القصر ومدّوا السجاد على الجدران وعلى الحضيض .

ثم امر بدعوة الاميرين فحضرا وهمـا بأجمل لباس ودخلا على السيد بأبهة ظاهرة . فاستقبلهما مع حاشيته فسلما عليه وعلى امرأته شيمانه وجلسا في المكان المعد لهما . فنهض السيد من مجلسه وقال : تقدّم يا البرهانيس انت الذي احبه ، اليك بابنتيّ ، هكذا تمّ الاتفاق مع مولانا الملك ولا اريد نقض الميثاق فسلمهما بيدك الى اميري قاريون وليتزوجوا .

فقال البرهانيس : هكذا اصنع .

فنهضتا وسلمها السيد الى البرهانيس وهـذا بدوره تقدّم من اميري قاريون وقال : بأمر الملك وباسمه اسلم اليكما هاتين الفتاتين فخذاهما لكما زوجتين وتقدّما وقبّلا يد السيد وامرأته شيانه .

فصنع ما امرهما وخرجوا من القصر وتوجهوا بدون تأخير الى كنيسة القديسة مريم . وكان المطران ايرونيموس في انتظارهم عند مدخل الهيكل فباركهم وقدّم الذبيحة الالهية على نيتهم .

وبعد الحفلة توجهوا الى الميدان في بلنسية وابتدأت العاب ضرب الجريد .

دامت الاعياد خمسة عشر يوماً ، وعند انتهائها كان السيد قد تكرّم بمائة جواد وبغل ودابة وثياب كثيرة ودنانير لا عـد لها . وعاد الذين حضروا العرس من قشتالة غانمين مثقلين بالهدايا شاكرين السيد على كرمه .

والاميران ظلا في بلنسية حوالي السنتين يرتعان في حمى السيد .

وفي ذات يوم غفا السيد على كرسيه ، فانطلق اسد من قفصه والقى الرعب في قلوب الجميع فاختبأ احد الامراء تحت الكرسي وهرب الآخر صارخاً : قاريون سوف لن اراك بعد اليوم .

واستيقظ السيد في هذه الفرصة ورأى المشهد فسأل خاصته : ما اصابكم ؟

– انطلق الاسد من قفصه فجئنا نحتمي فيك من ويلاته .

فلفّ السيد ملاءة على عنقه واقترب من الاسد الهائـج فخفض رأسه فاخذه السيد بيافوخه ووضعه في القفص فدهش جميع الذين شاهدوا هذا الحادث .

وسأل رذريق عن صهريه فلم يجبه احد ، وعند العثور عليهما وجدوهما مائتين من الخوف فخجلا وأسفا على ما حدث .

وجاءت قوات من افريقية لمحاصرة بلنسية فنصبت خيامها التي لا تقل عن خمسين الف خيمة في قوارت .

فسرّ السيد لأنــه يأمل في نيل غنائم عظيمة ، ولكن الاميرين نظرا بقلق شديد الى الخيام الكثيرة وتحدثا فيما بينهما :

ـ لما تزوجنا ابنتي السيد فكرنا فقط في الربح ولم نفكر في الخسارة ، ولم يبق امامنا سوى الدخول في المعركة القريبة ومن الثابت اننا لن نرجع الى قريون وتترمل زوجتانا .

فسمعهما مونيو غوسطوس فـــذهب وقص القصة على السيـد فتوجّه اليهما باسماً :

ـ حفظتكما السماء يا أميري قاريون ويا صهريّ العزيزين . ابنتاي تنعمان بين ذراعيكما فامكثا في المدينة بأمان ، اما فيما يتعلق بهؤلاء المغاربة فانا وحدي كفيل بقهرهم اذا ساعدني الله .

وارسل اليه قائد الحملة المغربي يقول له : غادر المدينة بامان والا فلا تلم سوى نفسك . وبعث الرسالة مع رسول فقرأها القنبطور وقال للرسول : اذهب وقل لمولاك انني قبل ثلاثة ايام اعطيه ما يطلب .

وفي اليوم التالي جمـع السيد رجاله وطلب منه الاميران الاشتراك في المعركة . وفي اثنائها هجم احدهما واسمه الامير فرننده على مغربي فقابله بهجمة اشد فانسحب امامه وولى الادبار .

فشاهد بطره برمودس ما يجري فانقض على المغربي وارداه قتيلاً واخذ جواده واسرع في اثر الامير وهتف به : مولاي فرننده خذ هذا الجواد وقل للجميع انك انت قتلت فارسه وانا شاهد لك .

ـ اشكرك من صميم فؤادي على هذا الجميل معي ، ليتني اقوى على رد هذه الخدمة مضاعفة .

وعادا سوية وشهـد بطره برمودس ببطولة الامير فرننده فسرّ السيد ورجاله .

سمعوا اصوات طبول المغاربة فهلعت قلوبهم ولاسيما الاميران اللذان لم يسمعا قط هذه الاصوات المزعجة فقال السيد لبطره برمودس : اسهر على صهريّ العزيزين فرننده ودياغه ، فان شاء الله لن يبقى احد من هؤلاء الافارقة يحدّث بما جرى في هذه الوقيعة .

فأجابه بطره : بحقك يا مولاي اعفني من هذه المهمة لأنني ارغب في القتال مع رجالي في مقدمة الصفوف وانتم تظلون في المؤخرة فاذا ادركني الخطر تهرعون لنجدتنا .

وهنا انبرى البرهانيس قائلاً : ايها القنبطور ، ان الله يدبر هذه المعركة ، وانتم من اوليائه قولوا لنا من اي الجهات نهاجم وكل منا يقوم بواجبه .

فقال القنبطور : الصبر الصبر ايها الابطال .

واقترب المطران ايرونيموس شاكي السلاح يقول : اليوم تلوت الذبيحة الالهية ، اريد ان اكون الاول في الهجوم واذا لم تشرفني بالرضوخ لطلبي هذا أتخلّ عنك .

– اصنع ما بدا لك .

فتقدّم الاسقف الى ساحـــة القتال ولحسن حظه ، قتل مغربيين في الطعنات الاولى وانكسر الرمح في يده ، فجرّد السيف بمـا هو معروف عنه بفنون الطعن والضرب ، فقتل خمسة آخرين بسيفه الماضي الحد ، غير ان الافارقـة تكاثروا عليه موجهين اليه ضربات شديدة دون ان يخرقوا درعـــه .

ولما ابصره السيد في هـذه الحالة همز جواده ببيبكا فانطلق كالريح وانقض عـــلى الصف الامامي فأردى سبعة وقتل أربعة فهرب الباقون ودبّت البلبلة في صفوف العدو فتركوا معسكرهم ولاذوا بالفرار ، فطاردوهم وقتلوا منهم خلائق كثيرة وظلوا في أثرهم سبعة أميال .

وأدرك القنبطور قائد الحملة محمد بن تاشفين فقال له : عد إليّ يا ابن تاشفين فأنت الآن وجهاً لوجه أمام السيد صاحب اللحية الشقراء ، فيجب ان نتعانق ونتصالح فأجاب : لا يريد الله هذه الصداقة ، أراك شاهراً السيف في يمينك اريد تخضيبه بدمائي ؟ إذا لم يكب بي الجواد فلن تدركني قبل البحر .

ـ لن يكون ما تشتهي .

وكان جواد الافريقي سريعاً غير ان ببييكا أدركه قبل ان يصل الى البحر وضربه بسيفه الكولادا على رأسه فقدّه شطرين ، وربح السيد المعركة وغنم خيرات لا تعد ولا تحصى .

وتجمّع حوله أبطاله ومنهم البرهانيس والدم يقطر من سيفه ، قتل اكثر من عشرين مغربياً .

وتقاسموا الغنيمة فأصاب كل واحد ستمائة دينار من الفضة ناهيك عن الثياب والجلود وغير ذلك . وشكر السيد الله على هذا النصر الكبير وسُرّ بصهريه ويجلدهما في القتال فسيصل ذكرهم الى قاريون ويفرح الجميع بهم .

ووزّعت الغنيمة ونال السيد خمسها ، كان فقيراً وأصبح غنياً وصهراه اميرا قاريون ، وقهر في الحروب ويحترمه العرب والاسبان على السواء ، وفي المغرب بلاد المساجد يخشون ان ينطلق اليهم ، لا لن ينطلق اليهم فليأتوا هم اليه حاملين له الجزية او يدفعونها لمن يكلفه باستلامها .

السرور في بلنسية بلغ حدّه والاميران سُرّا ايضاً لأن نصيبهما من الغنيمة وصل الى خمسة آلاف دينار ، فهنأهما القنبطور على بطولتهما . فأجاب الأمير فرننده : الشكر للباري تعالى ولكم ايضاً ، غلبنا المغاربة في ساحة القتال وقتلنا قائدهم المشؤوم .

فتبسم اصحاب السيد في سرّهم لأنهم حاربوا بشدة وطاردوا العدو

ولم يبصروا بينهم الاميرين فرننده ودياغه ، فشعرا ان رجال السيد يضحكون منهما فسوّلت لهما نفسهما الشر والنفس امارة بالسوء :

لنرجـــع الى قريون . طال مكوثنا في بلنسية فالمكاسب التي صارت الينا لا ننفقها طول حياتنا . فلنطلب الى القنبطور تسليمنا امرأتينا ولنقل له : اننا نرغب في العودة الى بلادنا ، وبهـــذا نصبح بعيدين عن السيد وسطوته وفي الطريق نصنع بهما مـا يلذ لنا ويطيب ، يجري في عروقنا دم شريف وصرنا بغنى عن ابنتي السيد . أموالنا هـــذه تكفينا مدى الحياة ونتزوج ببنات الملوك او الاباطرة . أجـل لا بد من التخلص من ابنتي السيد قبل ان تتحدثا عنا بقصة الاسد .

وعادا الى مجلس السيد فقال له الامير فرننده : بارك الله فيك ايهـا القنبطور وبزوجتك شيمانـه وبالبرهانيس وجميع الذين يسمعوننا : رجاؤنا اليـــك تسليم زوجتينا الشرعيتين لنأخذهما الى قريون لمشاهـدة ممتلكاتنا والميراث الذي سيتقاسمه أبناؤنا بعدنا .

— اسلمكما ابنتيّ وبعض ما أملك بمثابة جهاز لهما يساوي ثلاثة آلاف دينار وغيرها من البغال والدواب والجياد الكريمة والثياب الفاخرة المصنوعة من الخز والحرير وأقدّم لكما سيفيّ كولادا وتيزونا ، وتعلمان انني ربحتهما في ساحة القتال ، فأنتما ابناي ، اسلم اليكما ابنتيّ وبهذا التسليم أمزق نياط قلبي . اخدما زوجتيكما وأنا سأكافئكما بسخاء .

وعد الاميران بتنفيذ وصاياه وسلمهما ابنتيه وجميع الهدايا . فأمرا برفع الاحمال على ظهور البغال والدواب .

وجدّوا في السير ودنت ساعة الوداع فخرّت البيره وشمس على أقدام ابيهما قائلتين : أبانا ، انت اعطيتنا الوجود والآن تأمرنا بالذهاب الى قريون فما علينا إلا الطاعة .

فقبّلهما السيـد في فمهما وعانقهما . ومثلما صنع السيد صنعت زوجته

شيمانه واكثر : اذهبا حفظكما الله اتكلا على محبتي ومحبة والدكما ، اذهبا الى قاريون فهناك ثروتكما ، زواجكما موفق .

فقبّلتا يد أبيهما وأمهما واقتبلتا بركتهما .

وخرج الركب من بلنسية وخرج السيد في توديع ابنتيه وصهريه دون ان يدري ما يخبئه له القدر .

ودعا ابن اخيه فليس مونيوس وقال له : رافـــق البيره وشمس الى قاريون وادرس الأمور هناك ووافني بالخبر .

– بكل طيبة خاطر .

وتقدّم البرهانيس من رذريق قائلاً : لنرجع الى المدينة سيصلون بأمان وسلام الى قاريون فلا تخش شراً .

– استودعكما الله يا البيره وشمس ، فليكن سلوككما مشرّفاً لنـــا فنفتخر بكما .

وكان الوداع مريراً ذرفت فيه الدموع وعلت التنهدات ، وأوصى ابن اخيه فليس قائلاً : تتوجهون عن طريق مولينا وتسلمون على صديقي ابن غلبون فليستقبل الاميرين بمـــا يليق بهما وليرافقهما حتى مدينة سالم وأنا أكافئه على عمله هذا .

وافترقوا كما يفترق اللحم عن العظم ، وعاد السيد الى بلنسية وتابـع اميرا قاريون طريقهما ، فأدركا سانتا ماريا ثم مولينا . فسرّ ابن غلبون بوصولهم واستقبلهم بحفاوة كما يليق بهم وفي اليوم التالي سار معهم برفقة مائتي فارس من رجاله ووصلوا الى نهر جالون ، فقدّم ابن غلبون هـدايا نفيسة لابنتي السيد وجياداً كريمة لأميري قاريون . ولكن الاميرين لمـا شاهدا غنى ابن غلبون حاولا خيانته فقالا في نفسهما : بما اننا عازمان على التخلي عن ابنتي السيد فاذا قتلنا ابن غلبون استولينا على جميع أمواله ولا نظن ان السيد يطالبنا بالتكفير عن هذه الإهانة .

وكان احد العرب يصغي اليهما في هذا الحديث لأنه يفهم لغتهما وفي الحال ذهب واطلع سيده ابن غلبون على المؤامرة التي يدبرانها لاغتياله .

ـ كن على حذر يا مولاي من هذين الرجلين لأني سمعتهما يتآمران على هلاكك .

فتقدّم ابن غلبون ومعه رجاله الى الاميرين وقال لهما : لولا حرمة السيد لنزعت روحيكما من بدنيكما ورددت اليه ابنتيه . قولا لي يا اميري فاريون اي شر صنعته معكما ، اخدمكما بكل صـــدق وإخلاص وانتما تتآمران عليّ ، اغادركما كخائنين بسماح من السيدتين البيره وشمس لان اسم قاريون لا يهمني وأتمنى للسيد ان يكون زواج ابنتيه موفقاً .

وبعد إلقائه هـذه الكلمات انطلق عابراً بجواده نهر الجالون وفرسانه معـه ، وسار الاميران يقطعان الجبال والوهاد في الليل وفي النهار حتى وصلوا الى غابات « قربس » الكثيفة واشجارها تناطح السحاب ووحوشها ضارية ، ونصبوا الخيام عنـد ينبوع للاستراحة فأظهر الاميران لزوجتيهما من الحب على غير عادتهما .

ولمـــا اصبح الصباح رفعوا الاحمال على ظهور الدواب ، وأمرا الخدم والحشم ان يسيروا في الطليعة وان لا يبقى احـد معهما ، يريدان الخلوة الى زوجيهما بعيدين عن أعين الرقباء .

وبقي الاربعة وحدهم : إسمعا يا البيره وشمس ، قررنا أمراً ، نغادركما في هذه الغابات الوعرة فلا نصيب لكما في قاريون . وبهذا نكون انتقمنا للاهانة التي لحقتنا في حادثة الاسد .

ثم اقتربا منهما وجرداهما من ثيابهما حتى اصبحتا شبـه عاريتين فقالتا لهما : لماذا لا تذبحاننا بصارميكما الكولادا والتيزونا فنموت شهيدتين ، ولا ترتكبا هذه الفضيحة الكبرى فينا ، لن تربحا شيئاً من إهانتنا على هذه الطريقة وستعاقبان على هـذا العار الذي تلصقانه بنا . وتوسلتا وذرفتا

الدمع ولم تجد الدموع والتوسلات فتيلاً ، فعمد الاميران الى ضربهما الضرب المبرّح بالسياط على ثدييهما وفي الامكنة الحساسة من جسديهما فتمزقت الهلالتان الباقيان على جسديهما وخدّشا جلديهما بالسياط وجرى دمهما النقي ، فالألم يعضّ قلبيهما ، يا للمصيبة التي أنست كل مصيبة تقدمتها ! اين السيد ليشاهد الفضيحة التي حلت بابنتيه .

وأغميا عليهما من شدة الضرب والإهانة وتمزقت قميصهما وانهالا عليهما إمعاناً بالضرب حتى كلت يداهما وكل واحد يتباهى بأنه انزل في امرأته ضربات اشد من اخيه ، وتركاهما بين الموت والحياة في غاب قوربس ولا يستر عورتهما سوى غلالة تمزقت من كثرة الضربات التي انهالت على جسديهما الطاهرين ، معرّضتين في تلك البرية لحيوانات الغاب ولعقبان الجـو . اين انت يا قنبطور لتشهد الفاجعة الكبرى التي لحقت بابنتيك .

والتحق الاميران بالركب يفاخران بعملهما الوحشي متشفيين : الآن انتقمنا ونجونا من هـــذا الزواج المشؤوم . انهن لا يصلحن لنا خادمتين فكيف بزوجتين شرعيتين ؟

انتقامنا كامل لفضيحة الاسد .

ولنعد الى فليس مونيس فانه لم يطمئن باله الى تدبير الاميرين وتسرب الشك الى قلبه فانفصل عن الركب وتوغل في الادغال ليشاهد عن كثب ابنتي عمه ، فشاهد الاميرين قادمين وحدهما ولم يرياه والا لما بقي حياً .

عاد أدراجه فعثر على البيره وشمس في حالة يرثى لها ، فترجّل عن جواده وربطه في احـد الاغصان المتدلية واقترب منهما : ماذا دهاكما يا ابنتي عمي ؟

فعادت روحهما اليهما غير أنهما لا تقويان على الاداء .

استيقظا يا ابنتي عمي مـــا دمنا في النهار فاذا داهمنا الليل تفترسنا

الوحوش في هذه الغابات . شدّا حيلكما ، بحق الله العظيم ، فاذا درى الاميران بغيابي لا شك انهما طالباني ، فاذا لم يساعدنا الله فاننا صائرون الى الهلاك لا محالة في هذا القفر .

وفتحت شمس عينيهـا وخاطبت ابن عمهـــا : بحقك يا فليس جئني بشربة ماء .

فنزع قبعته الجديدة التي اشتراها في بلنسية وحمل فيها الماء الى ابنة عمه وأخـــذ يقويهما حتى عاد اليهما بعض النشاط فطرح عليهما عباءتـه وخرجوا من تلك الغابات حتى وصلوا الى نهر الدويره فتركهما في بيت لا لا سكن فيه وتوجّه الى البلدة القريبة ودخل بيت صديق له اسمه دياغه وأخبره القصة فحزن لما جرى لابنتي السيد ، وحمل بعض الالبسة النسائية والاطعمة وتوجّه بها الى البيت المنفرد حيث ترك البيره وشمس فتناولتا بعض الطعام وتعافيتا قليلاً .

وانتشر النبأ المخزي في جميع انحاء اسبانية حتى وصل الى اسماع الملك الادفونش والسيد ، فحلف القنبطور انه سيزوّج ابنتيه من جديـــد من افضل الازواج .

وأمر البرهانيس وبطره بالتوجه الى موضع نزول ابنتيه ليأتيا بهما الى بلنسية .

وعندما ابصرهما هرع الى لقائهما وضمهما الى صدره :

حفظكما الله من كل شر ، رضيت بزواجكما عن اكراه ، ان الله سينتقم لي من اعدائي .

فقبلتا يد ابيهما ودخلوا جميعاً المدينة وسرّت شيمانه بلقائهما ، اما السيد فـــلم يشأ ان يضيّع الوقت فجمع خاصته للتشاور في إرسال رسالة الى الملك الادفونش .

ودعا مونيو غوستوس وقال له : ربيتك كولد لي ، فاحمل هذه الرسالة الى الملك الادفونش وقبّل يده عني وسلمه الرسالة ، وليعتبر ان تصرّف الاميرين إهانة موجهة اليه مثلما هي موجهة إليّ فقد لطخا شرف ابنتيّ بالعار بعد ان اخذا اموالي . فليكن هو القاضي بيننا لأن غضبي عليهما شديـــد .

فصار مونيو يقطع الجبال والوهاد دون استراحـــة حتى أدرك الملك الادفونش في « سغون » . فتوجّه الى القصر بعد ان صلى الى الله كي يرشده الى ما فيه الخير وطلب الاذن بالمثول في حضرة الملك ، فاستقبله باكرام فقدّم له الرسالة قائلاً : القنبطور يقبّل رجليك ويديك وهـــو خادمك الأمين وانت سيده . زوّجت ابنتيه مـع اميري قاريون ، كان الزواج شريفاً لانـــك انت دبّرته ، ولكن ماذا بقي من هذا الزواج الشريف ؟ لا شيء ؛ لطخه اميرا قاريون بالعار بعد ان تركا ابنتي السيد زوجتيهما عاريتين مهانتين في غاب قوربس معرّضتين لوحوش البرية وطيور السماء الجارحـــة . اصبحتا في بلنسية . يرغب اليك القنبطور ان تدعو الاميرين لجلسة علنية لان الاهانة الموجهة اليه عظيمة والموجهة اليك اعظم .

فاستغرق الملك برهة طويلة في التفكير :

ـ الحق اقول لك انه يحزّ في قلبي هذا الكلام . اجل انا زوّجت ابنتي السيد بأميري قاريون ظناً مني انه لخير الجميع . اقاسم السيد أسفه وحزنه وغضبه ، وها أنا مرسل المنادين في جميع انحاء اسبانية بأن القورت سيعقد في طليطلة وسيدعى الاميران للاجابة على تصرفهما السيء نحو السيد وابنتيه ، وقل له اني لا آلو جهداً في إصلاح ما فسد ، فليستعد للقدوم الى طليطلة مع خاصته ضمن مهلة لا تزيد على سبعة اسابيع ، فمحبةً بالسيد عقدت هـــذا القورت . سلّم على الجميع وان شاء الله يخرجون مرفوعي الرأس من هذه الجلسة .

وودّع مونيو الملك وعاد الى بلنسية وأطلع السيد على الامر ، وبالفعل

فقد وجّه ملك قشتالة الدعوات الى جميع أمراء وأشراف دولته لحضور هذا المجلس ومن تخلّف عن الحضور لا يعتبره من رعاياه .

واستولى الخوف عـــلى أميري قاريون ، فطلبا المشورة من اصحابهما ومن يلوذ بهما وتمنيا على الملك ان يعفيهما من حضور هذه الجلسة فأجابهما ، لا سبيل الى ذلـك ، ولا بـد من حضوركما لتؤدّيا حساباً عن تصرفكما تجاه السيد الذي سيشترك في الجلسة ، فمن لا يشاء الحضور فليغادر مملكتي ولا نصيب له معي بعد الآن .

وكتبا الى القند غرسيه ، عدوّ السيد الألد ، فأشار عليهما بالحضور .

ووافى الموعد المضروب واليوم المشهود . وصل أول الناس الى طليطلة الملك الادفونش والقند هنريـكي والقند رامون وغيرهم مثل القند غرسيه وأخيراً الأميران فرننده وديا غه المدعى عليهما ، بحاشية عظيمة وقصدهما إهانة السيد من جديد .

تأخر القنبطور عن الحضور خمسة ايام وهـذا التأخر لم يرض الملك . وفي اليوم الخامس وصل بحاشية كثيرة العدد وترجّل أمـام الملك فأقسم عليه ان يعتلي صهوة جواده وقال له : ما أحزنك أحزنني . فقبّل يـد الملك وقبّله الملك في فمه .

وعاد الى طليطلة ، وأبى السيد ان يجتاز نهر تاجه في ذلك الليـــل فخاطب الملك :

نعمة التمسها منك يا مولاي ان تسمح لي بالبقاء في هذا الموضع مـع رجالي وفي الصباح ادخل الى طليطلة لحضور القورت .

– حسناً تصنع .

ودخل الملك طليطلة وبقي السيد خارجها فأمر باضرام النـار ، يريد السهر في الصلاة الى الله .

وعند بزوغ الفجر سمعوا القداس قبـل طلوع الشمس وقال لرجاله : انت يا البرهانيس تذهب معي برفقة المطران ايرونيموس وبطره برمودس ومونيو غوستوس ومرتين انطولينس والبرالبرس وابن اخي فليس ، وتكمّل العدد الى مائـــة من أشد الفرسان بطشاً والبسوا دروعكم تحت الوشاح وتقلدوا سيوفكم المرهفة تحت ألبستكم . فسأتقدم الى القورت على هـــذه الطريقة طالباً العدالة وإذا حاول اميرا قاريون القتال نقاتلهما .

فتمّ ما أراد وارتدى اجمل الثياب وتعمم بكوفية فيها خيوط مذهبة واتشح بوشاح غالي الثمن أعجب به كل من رآه ، وخرج مع مائة رجل من ابطاله لحضور القورت .

ولما رآه الملك داخلاً وقف له وكذلك القند هنريكي والقند رامون وجميع الحاضرين إلا القند غرسيه اردونيس وأنصار الاميرين .

وأخذ الملك السيد بيده قائلاً : تعال يا قنبطور اجلس قربي على هذه الكرسي التي اهديتنيها .

فشكره السيد على تلطفه وقال : انتم احق مني بالجلوس عليها ، أبقى مع اصحابي .

فقبل الملك عذره وجلس السيد بين رجاله المدججين بالسلاح والحضور جميعهم دهشوا من لحية السيد الطويلة الشقراء ، وأمـيرا قاريون لم يرفعا أنظارهما خجلاً اليه .

فنهض الملك من مجلسه وقال : أصغوا الي جيداً . منذ اعتلائي العرش لم اعقد القورت سوى مرتين ، الواحدة في برغش والاخرى في قاربون وهذه الثالثة في طليطلة ، محبة بالسيد الذي ولد في ساعة سعيدة ، لدعوى يقيمها على اميري قاريون . كلنا يعلم الاهانة الكبرى التي ارتكبوها تجاهه. القند هنريكي والقند رامون يحكمان بينهم . تأملوا جميعكم بما حدث واحكموا بالعدل ، فلا اريد حكماً ظالماً ولنكن على حياد بين الطرفين المتخاصمين .

وأقسم بالقديس ازيدورس من تخوله نفسه في اثارة الشغب يخسر ممتلكاته. سأكون الى جانب صاحب الحق . قدّم شكواك ايها السيد لنرى ما يكون جواب الاميرين .

فقبّل القنبطور يد الملك وقال : سيدي ومولاي ، اشكركم جزيل الشكر على الدعوة التي وجهتموها لاشراف البلاد لعقد مجلس القورت . هذه شكواي اعرضها : ان تخلي اميرَي قاريون عن ابنتيّ ، لا يلطخ اسمي بالعار لأنكم انتم دبّرتم هذا الزواج . وقد خرج الاميران من بلنسية مع ابنتيّ بمطلق ارادتي واعطيتهما سيفين ، الواحد اسمه كولادا والآخر تيزونا ، كنت قد ربحتهما في القتال ، لكي يدافعا عن عرشك بهما . وبما انهما تخليا عن ابنتيّ في غاب كوريس ، وبما أنهما لم يعودا صهريّ فليردا لي السيفين .

فأجاب القاضيان : هذا هو العدل والصواب .

فقال القند غرسيه : أتركونا نتكلم على حدة .

وخرج مع الاميرين وبقية الاهل ، فتشاوروا فيما بينهم : بما أن السيد لا يطالبنا بشيء مقابل الاهانة التي حلّت بابنتيه ، فاذا توسط الملك تسوّت القضية . فلنعطه السيفين ويعود الى بلنسية ونكون قد وفينا حقه علينا ولا يعود له حق بالمطالبة بشيء .

ووضعاهما بين يدي الملك . ولما جُذِبا من غمديهما دهش الحاضرون ، لأن قبضتهما من الذهب الخالص . فنادى الملك على السيد وسلمه اياهما ، فأخذهما وقبّل يد الملك وعاد الى مجلسه وتأمل بهما خشية ان يكونا أحدثا فيهما تغييراً . فرح بهما وصار يداعب شعر لحيته ثم نادى ابن اخيه بطره وسلمه تيزونا قائلاً : خذه يا ابن اخي فأنت احق به من سواك .

ثم دفع كولادا الى مرتين انطولينس قائلاً : هذا السيف ربحته من رامون برنجير قند برشلونة ، اسلمه اليك فاعتنِ به الاعتناء الكلي ، واذا اقتضت الحاجة تستخدمه كما يليق . فقبّل يده واقتبل منه السيف .

ونهض السيد من جديد : اشكرك يا سيدي الملك ، لأني نلت حقي من حيث السيفين . ولكن لي دعوى أخرى ضد اميرَي قاريون ، فعند خروجهما من بلنسية دفعت لهما ثلاثة آلاف دينـار من الذهب والفضة ، فليردا لي هذا المال لانهما لم يعودا صهرَي .

فامتعض الاميران . وسألهما القند رامون : اجيبا بالنفي او بالايجاب .

ـ اعطينا السيد سيفيه ليكفّ عن للطلب .

ـ الملك يأمر بتنفيذ جميع ما يطلبه السيد .

فأجاب الملك : نعم هكذا امرت .

ونهض السيد من مكانه : هل تردان لي هذا المال او تقران لي به كدين عليكما ؟

وانفرد الاميران مرّة اخرى للمباحثة بالقضية ولم يجدا مخرجاً لهـا . فالقيمة كبيرة وقد انفقاها بكاملها .

وعادا الى المجلس ووعدا بدفع القيمة بكاملها من املاكهما في قاريون.

ولما اعترفا بدينهما المتوجّب للسيد ، قال القاضيان : اذا قبل السيد لا مانع من جهتنا واذا رفض فعلى القيمة ان تدفع في هذا المجلس نفسه .

فقال الملك : استلمت من الاميرين مائتي دينار فأردّ لهما هذا المـال لأنهما افلسا ، ويسلمانه الى السيد .

ورأى الاميران ان لا مناص لهما من الدفع ، فجاءا بما عندهما من خيول وامتعة واستدانا الكميات الباقية حتى سددا جميع ما عليهما .

ولما استردّ السيد امواله ووضعها تحت حراسة رجاله قال :

عفواً ايها الملك راسمعوا لي ايها الحاضرون : اجيبا يا اميرَي قاريون ، أي ضرر الحقته بكما ، سواء كان بالقول او بالفعل ، لماذا مزقتما نياط قلبي ؟ سلمت اليكما ابنتيّ مع هدايا ، فلماذا ايها الكلبان الخائنان ، اخذتماهما

من بلنسية ، اذا كنتما لا ترغبان بالزواج بهما ؟ لمـــاذا اهتمامها بالضرب والتعذيب وتركتانهما في غاب قوريس عرضة لوحوش البر ولنسور السماء ؟ سوّدتما اسمكما ولطختما شرفكما بسوء فعلكما معهما .

فاعترضه القند غرسيه قائلاً : عفواً ايا افضل ملوك اسبانيا واشرفها . ترك السيد شعر لحيته ينبت ليخيف البعض . ان اميرَي قاريون عريقان في الحسب والنسب . وابنتي السيـــد لا تصلحان لهما خادمتين فكيف بزوجتين شرعيتين ، فمن زوجهما اذاً ؟ واذا تخليا عنهما فقد استعملا حقوقهما.

فأجاب السيد : مبـارك انت يا سيد السماء والارض . ربّيت لحيتي حتى طالت ، فما لك على لحيتي أيها القند ؟ فانه لم يمسدها لي ابن امرأة ، عربي سواء كان او اسباني ، كما مسّدت لك لحيتك في قلعة قبره والشعرات التي نزعتها منها ما زالت محفوظة عندي .

فنهض الامير فرننده وقال بصوت تتخلله الرهبة : دع عنك ذلك ايها السيد دفعنا لك ما علينا فلا تزد الخرق اتساعاً . دمنـــا من دم الملوك ونتزوّج ببنات الملوك وليس ببنات من الطبقة الثانية او الثالثة في النسب . استخدمنا حقوقنا عندما تخلينا عن ابنتيك .

فقال السيد لابن اخيه بطره برمودس : لما اصبت بالخرس فلا تنطق ؟ اذا كانتا ابنتيّ فهما أيضاً ابنتا عمك .

– تعلم ايها السيد أني لا اجيد الكلام ولاسيما في مجلس مهيب مثـل هذا المجلس . ولكن عليّ ان اجاوب : يا فرننده انك كاذب في ادعائك فالسيد اشجع منك وأشد ساعداً . اتذكر لما كنا نقاتل الاعداء وطلبت الاشتراك بالمعركة وصادفت مغربياً وبدل ان تقاتله فضّلت الهرب وطاردك المغربي ولو لم ابادره بطعنة واردیه قتيلاً ماذا كان حلّ بك ؟ ومع ذلك تبجّحت بانك انت قتلت المغربي وسلبت منـــه سلاحه . انهـا قصة لم اكشفها قبل اليوم . انك شاب جميل ولكنك جبان انـك لسان بدون يد فكيف تقوى على النطق ؟

قل لي يا فرننده اتذكر يوم كان السيد نائماً قيلولته في بلنسية وانطلق ذلك الاسد من قفصه فماذا كان موقفك ؟ اتذكر انك اختبأت تحت الكرسي الراقد عليها السيد ؟ وبهذا العمل مسخت نفسك . فنهض عندئذ وتوجه نحو الاسد فخفض رأسه فأخذه السيد في عفرته ووضعه في القفص وصار يفتش عنك وعن اخيك فلم يعثر لكما على أثر . وابنتا السيد اشرف منكما . واذا جمعنا الميدان تعترف بخيانتك واحافظ على صحة ما اقول :

فقال دياغه : دمنا نقي ولم نندم على تركنا ابنتيه ، فيا للفضيحة التي الحقناها بهما ستبقى لاصقة بأذيالهما مدى الحياة لقد تشرّفنا أكثر بالتخلي عنهما .

ونهض مرتين انطولينس وقال : أصمت يا ناطقاً بالكذب ، لا يجب أن تنسى حادثة الاسد ، خرجت هارباً من الباب حتى بلغت حظيرة الحيوانات واختبأت وراء جذع شجرة ضخمة . اذا جمعنا النزال يسمعك الجميع تعترف بخيانتك وكذبك .

وفي هذه الاثناء دخل رسولان على الملك الادفونش من صاحبي نبارة وارغون فقبّلا يده وطلب من السيد ابنتيه كزوجتين شرعيتين لملكَي نباره وارغون . فدهش جميع الحضور ونهض القنبطور واقفاً : عفواً سيدي الملك ، اشكر الله على مجيء رسول من ملك نبارة وارغون يطلبان يدَي ابنتي انت زوجتهما في السابق واضعهما الآن بين يديك فلا اتصرف بدون امرك .

ووقف الملك وفرض الصمت على المجلس : أيها القنبطور العاقل ، اطلب منك قبول هذا الزواج .

ـ اذا كان يرضيك يا مولاي فانه يرضيني .

ـ زوّجنا ابنتي السيد البيره وشمس بملكي نبارة وأرغون .

فتقدم الرسولان وقبلا يد الملك وسرّ الجميع الا اميرا قاريون .

ووقف البرهانيس طالباً الكلام والاصغاء اليه لأن له دعوى على اميرَي قاريون ، فقال : أنا بذاتي قدمت باسم الملك ابنقي القنبطور للاميرين كي يتزوجا بهما زواجاً شرعياً . وتخليا عن امرأتيهما بدون ارادتنا ، انه عمل اجرامي . دمكما من بني غومس أعطى قمامصة ، واليوم نرى ماذا خلّف من اللوم والخسة . اشكر الله على الطلب للزواج الذي جـــاء من ملكي نبارة وارغون . كانتا امرأتيكما الشرعيتين مساويتين لكما . امـا اليوم فعليكما ان تقبلا ايديهما وتخدماهما ، وان يعزّ عليهما . مبارك الله رب السماوات والارض ، مبارك الملك الادفونش ، هكذا ينمو شرف السيد .

فنهض غومس وقال : ما قيمة ما تدعيه يا البرهانيس فان في هذا المجلس كثيرين يقيسون انفسهم معك .

فقال الملك : كفوا عن الجدال ، ففي صباح غد تجري المبارزة : ثلاثة ضد ثلاثة . فقال اميرا قاريون : ايها الملك اعطنا مهلة اطول فان غداً قريب ، اعطينا السيد سلاحنا وخيلنا فلا بد من سلاح وخيل من قاريون.

فقال السيد : لا اذهب إلى قاريون ، افضل الرجوع الى بلنسية .

فأجاب الملك : حسن ، سلمني فرسانك ليرافقوني واحميهم . والمبارزة تتم بعد ثلاثة اسابيع في سهول قاريون بحضوري . ومن لا يحضر في الموعد المضروب يعتبر مغلوباً وخائناً .

فوافق الاميران على هذا الامر . وقبّل السيد يد الملك وقال : تحت حمايتك اضع فرساني الثلاثة فارجعهم لي الى بلنسية مكرمين بحق الله .

وسرّح السيد شعره واطلق لحيتـه ، فحدّق فيها الجميع واقترب من القند هنريكي والقند رامون القاضيين وعانقهما وعرض عليهما ما شاءا من المال وعلى الباقين من اتباعه ، فقبل البعض ورفض البعض الآخر . وتخلى للملك عن المائتي دينار .

العفو ايها الملك . والآن وقد تمت جميع هذه الشؤون ، أقبّل يدك واستأذنك بالرجوع الى بلنسية التي ربحتها بعد جهود شاقة .

وركب الملك وحاشيته لتوديع السيد ، فنصح فرسانه قائلاً : لتصل الي اخباركم سارّة .

فقال مرتين انطولينس : قد يصلك خبر موتنا لا اندحارنا .

فسرّ السيد بهذه الكلمات وودعهم وتوجّه إلى بلنسية والملك الى قاربون.

مرّت ثلاثة اسابيع على المهلة المحددة ووصل رجال السيد إلى المكان المعيّن مشمولين بحماية الملك . وطلب اميرا قاربون من الادفونش ان لا يستعمل اخصامهم السيفين كولادا وتيزونا فلم يقبل الملك بهذا الطلب :

في المجلس لم يستثنَ سيف ، فاذا كانت سيوفكم قاطعة تخدمكم مثل سيوف السيد .

وندم الاميران على سوء تصرفهما ولات ساعة ندامة .

وبقي الفرسان الستة في الحلبة : بطره برموده ينازل الامير فرننده . فتصادم الاثنان وطال النزال بينهما وتبودلت الطعنات والضربات الى ان تمكن بطره من خصمه واولج رمحه في صدره من ناحية القلب فحمته الدروع الثلاث التي يلبسها فخرق الرمح اثنتين وثبتت الثالثة الا ان القميص دخلت في اللحم بقدر الكف وصار يقذف الدم من فمه وتقطعت اللجامات فسقط على الارض . وظن الناس ان الطعنة قاتلة . فترك بطره الرمح مشكوكاً في الدروع وجذب سيفه تيزونا فصرخ الامير : غلبت ، غلبت.

ففصل الحكم بينهما .

ونازل مرتين انطولينس الامير دياغه . وتطاعنا بالرماح فتكسّرت في ايديهما . فجرّدا سيفيهما وما كان من مرتين الا ان هوى بسيفه على خصمه فخرق خوذته حتى وصل الى رأسه وجرحه ، فهوى عن صهوة جواده

دون ان يلمس الارض . فحاول الاعتدال من جديد فبادره مرتين بضربة أخرى اردته ، فصرخ : نجني يا الله من هذا السيف . فقال الملك : انتصرت يا مرتين فتعالَ إلى قربي .

بقي علينـــا ان نذكر كيف تغلب مونيو غسطوس على خصمه اشور غنصالص . انزل الخصمان ضربات شديدة على بعضهما البعض . وكان اشور من الاشداء العنيدين ، خرق درع مونيو غسطوس ومزّقه ، غير ان الرمح لم يصل الى اللحم فبادره مونيو بطعنـة رمح فأرداه على الحضيض ينزو دماً وهجم عليـه ليطعنه مرة اخرى ، فصرخ غنصاله : لا تلمسه بحقّ السماء ، انه مغلوب .

واثبت الحكم الغلبة !.

فأمر الملك الادفونش باخلاء الحلبـة . انتصر رجال السيد في النزال واستولى الحزن على اهالي قاريون .

وعـــاد الفرسان الثلاثة الى بلنسية ، فابتهج السيد بلقائهم فأولم لهم الولائم ودعا اليها الجميع وصار يداعب شعر لحيته الشقراء :

« مبارك الله ملك السماوات والارض ، انتقم لابنتيّ . والآن استطيع زواجهما بدون عار رغم انف الجميع » .

وتزوجتا بملكي نبارة وارغون . اصبح ملوك اسبانيا اصهار السيد الذي ولد في ساعة ميمونة .

* * * * * *

انتصارات وهزائم

طابت العلاقات بين رذريق وبطرس الاول ملك ارغون الذي استولى على وشقة بعد حصار دام ما يزيد على ثلاثين شهراً وقهر ملك سرقسطة لما قدم لمساعدة المدينة .

جاء رسول من قبل السيد يطلب معونة ملك ارغون ضد غزوة افريقية وشيكة الوقوع على المنطقة الجنوبية من بلنسية ، فتذمر رجال الملك من هذا الطلب لأنهم سئموا الحصار الطويل . غير ان بطرس الاول لم يشأ نقض العهد الذي أخذه على نفسه بمساعدة القنبطور ، فوعد الرسول انـه قبل مرور اثني عشر يوماً يكون في بلنسية . وبالواقع فقد توجّه برفقة اخيه الادفونش ووصلا الى المدينة قبل اثني عشر يوماً كما وعد .

استقبلهما القنبطور بكل ترحـاب في بلنسية كما يليق بالملوك وتوجهوا الى شاطبة وعند اقترابهم وجدوا المرابطين بقيادة محمـــد يسيطرون على المرتفعات المطلة على الطريق العام وعددهم يربو على ثلاثين الفاً . كان تقدم الاسبان محفوفاً بالاخطار .

ومـــع ذلك واصل السيد تقدمه بصحبة الملك بطرس الاول فأدركا وادي البيضاء دون خسائر وزودوا قلعة القاضي بالمؤن .

وفي العودة سلكوا طريقاً أطول لتجنب الاشتباك مـع المرابطين في منعرجات شاطبة ، فانحدروا نحو البحر تجاه مرتفعات بيرين .

ولكن محمداً كان لهم بالمرصاد فصار يرميهم من الجبال بجميع انواع الاسلحة ، والسفن العربية في المرفأ ترميهم ايضاً بالمنجنيق ، الطريق مسدود

أمامهم ، فدبّ الرعب في صفوف الاسبان وصار السيد يتجول بين جنوده يشجعهم على القتال . وعنـــد منتصف النهار ابتدأ السيد والملك بطرس بالهجوم العنيف فأخذ المرابطون في بادىء الامر يتراجعون ثم تحوّل تراجعهم الى تقهقر . لقـــد كان اندحارهم حقيقة تصدّق كما جرى في قـوارت ، كثيرون منهم ماتوا بحـدّ السيف وآخرون غرقوا عندما حاولوا اجتياز النهر للوصول الى الاسطول ففقم الاسبان اسلابهم بما فيها من خيول وبغال وأسلحة متنوّعة .

ثم عادوا الى بلنسية فاستراحوا قليلاً ثم توجهوا الى قشطليون لمساعدة الملك بطرس ، لان احد الحصون تمرّد عليه فحاصروه واستولوا عليه ورجع السيد الى بلنسية والملك بطرس الاول الى قصره اول سنة ١٠٩٧ م .

وفي تلك الاثناء كان الادفونش السادس قد اتخذ موقف المدافع ، لان يوسف بن تاشفين اجتاز المضيق للمرة الرابعـة ووصل الى قرطبة وقصده استرداد طليطلة ، فتصدى له الملك الادفونش ، وأرسل القنبطور ابنـــه دياغـه ، البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً ، على رأس كتيبة واعتذر عن تخلفه عن الاشتراك بالحملة لان الموقف في بلنسية لا يسمح له بمغادرة المدينة .

ولكن يوسف لم يشأ الاصطدام مرة اخرى مع الادفونش فسلم قيادة الجيش الى محمد بن عائشة فتوجّه الى منطقة قرطبة فتصدّى له الادفونش في كنسوجره (CONSUEGRA) ووقع البـــلاء على الجيش الاسباني ، فقتل ابن السيد في ١٥ آب ١٠٩٧ عيد انتقال العذراء ، والتجأ الادفونش الى قلعة كونسوجره وحاصره المرابطون فيها ثمانية ايام ثم تحوّلوا عنه .

وقبل ان يرجع يوسف بن تاشفين الى افريقية بعث ابن عائشة ، حاكم مرسية ، الى اقليم قونكة الذي يسيطر عليـــه البرهانيس فدارت معركة شديدة بـين الافريقي والاسباني دارت فيهـا الدائرة على الاخير واستولى الافريقي على غنائم وفيرة .

وبعد هـذا الانتصار الكبير في قونكة توجه ابن عائشة الى بلنسية رغم الاندحار القريب الذي مني به المرابطون في بيرين فانهم لا يستطيعون نسيان بلنسية الجسر في عين يوسف .

وصل ابن عائشة الى جزيرة شقر فاصطدم بفرقة من جيش القنبطور وأبادها عن بكرة ابيها .

واستقبل السيد هذا النبأ بحزن لا مزيد عليه . فمن جهة اندحار جيشه ومن جهة اخرى مقتل ولده الى جانب هزيمة الملك الادفونش والبرهانيس ، فتجمعت كل هـذه الاندحارات وأنسته كل الانتصارات التي لاقاها طيلة حياته ، وخسارة ابنه زادت في الطين بلة ، لأن على الابن تقع المهمة في الانتقام لشرف العائلة . ضاع هذا الابن وأسفت لموته العائلة جمعاء ولأنه وحيد كما قال الشاعر الاسباني :

« ملعونة المرأة التي لا تضع سوى ذكر واحد فاذا قتله الأعداء ليس من احد ينتقم له » .

إلا ان السيد كان ما يزال قادراً على الانتقام لابنه ، فتوجّه الى قلعة المنارة محاصراً فيها أبا الفتح حاكم شاطبة . دام الحصار ثلاثـة اشهر ثم دخلها القنبطور عنوة وسمح لأهلها بالجلاء عنها وشيّد فيها كنيسة على اسم العذراء مريم .

وخرج من المنارة متظاهراً بالعودة الى بلنسية ولكن بالحقيقة كان يرغب احتلال مورباطر ، فرفع ذراعيه الى السماء قائلاً : « يا من تعالى اسمه في السماوات والارض ، انت العليم بجميع الامور التي حدثت وتحـدث ، الظاهرة والباطنة ، انت تعلم اني لا أودّ الرجوع الى بلنسية قبل محاصرة مورباطر واحتلالها بمعونتك لأذبح لك فيها الذبائح وأقدّم القرابين » .

وبعد فراغه من صلاته ضرب الحصار على المدينة ومنع الخروج منها والدخول اليها حتى ضجّ الناس وقالوا فيما بينهم : ما العمل ؟ هذا الطاغية

رذريق سدّ علينا المنافذ حتى يرغمنا على النزوح عن ديارنا كما فعل بأهل بلنسية والمنارة ، فمـــا حيلتنا ووراءنا اولادنا ونساؤنا يتضورون جوعاً وليس من منقذ .

وطلبوا المفاوضة في الاستسلام ، ولكن قبل هـذا عليهم ان يطلبوا المساعـــدة ، فاذا لم تدركهم في الوقت المعيّن استسلموا الى القنبطور . فقبـل السيد منحهم ثلاثين يوماً مهلة تبتدىء من اول نيسان الى الثلاثين منه لعلمه ان هذه الهدنة لا تجديهم نفعاً .

اسرعوا في بعث الرسائل الى يوسف بن تاشفين وابنه في مرسية والى الملك الادفونش والمستعين ملك سرقسطة وابن رزين قبـل الجميع لأن القلعة تخصه والى قند برشلونة .

وصلت الردود على الرسائل : الملك الادفونش يقول في جوابه : « صدّقوا قولي ، لست مستعداً لمساعدتكم لاني أفضّل ان تصبح القلعة ملكاً للقنبطور قبل ان تصير الى اي ملك عربي آخر » .

وأجاب المستعين ملك سرقسطة بمـــا يلي : « اذهبوا وقاوموا جهد المستطاع فالسيد قرم عنيد لا يصطلى له بنار ولا اريد اضرامها حرباً معه » .

خشي على نفسه من التهديدات التي وجهـا اليه السيد الذي كتب له يقول : « إعلم يا مستعين انـك إذا حاولت إرسال جنودك لمحاربتي فلن تنجو من قبضة يدي » .

وأجابهم صاحب السهلة ، ابن رزين بما نصه : « واصلوا المقاومة جهد الإمكان فأنا لا أقدر على معونتكم » .

وكانت أجوبـة الامراء المرابطين تبعث الى الامل : « إذا شاء اميرنا يوسف القدوم فنحن معه مسرعون لمعونتكم ، لاننا لا نجسر على مقاتـــلة السيد إذا لم يكن أميرنا معنا » .

وقند برشلونة رامون الثالث اجابهم : « انتم تعلمون اني لا اتجاسر على محاربة السيد ولكن سأتوجه حالاً الى محاصرة قلعة اروبسه وعندما يأتي لفك الحصار عنها ، يمكنكم عند ذلك إدخال المؤن التي تحتاجون اليها في حصاركم » .

وبرّ القند بوعده فتوجّه لمحاصرة القلعة المذكورة ، فأرسل له السيد جاسوساً يسرّ اليه عزم السيد على مقاتلته . فلم يشأ القند الانتظار حتى يتبين حقيقة الامر فرفع الحصار ورجع الى بلاده .

انقضت المهلة فطلب السيد تسليم القلعة ، فقال أهل مورباطر ان الرسل لم يرجعوا جميعهم ، نريد مهلة أخرى . فأجابهم السيد : « لكي يعلم القريب والبعيد اني لا أرهب سطوة احد من ملوككم ولكي لا يكون لأحد منهم عذر في مد يد المساعدة لكم أمنحكم مهلة أخرى ، اثني عشر يوماً ، وإذا انقضت أؤكد لكم انكم إذا لم تسلموا إليّ القلعة أسلمت الى العذاب جميع الذين يقعون في يدي وأحرقهم او أنزع رؤوسهم عن أبدانهم » .

ومرّ اثنا عشر يوماً فقال السيد لأهل مورباطر : إلامَ الانتظار ؟ فأجابوه : « عيد العنصرة قريب (١٤ مايو ١٠٩٨) ، نسلمكم القلعة في هذا النهار لأن ملوكنا لم يهرعوا لنجدتنا ، فأنت ورجالك يمكنكم الدخول متى تشاؤون » .

فقال السيد : لا أدخل القلعة يوم العنصرة بل اعطيكم هدنة حتى اليوم الرابع والعشرين من حزيران ، عيد القديس يوحنا المعمدان . فخذوا في هذه المدة ، نساءكم وعيالكم وأموالكم وامضوا حيث شئتم ، وأنا ان شاء الله استولي على القلعة في يوم عيد القديس يوحنا المعمدان .

وفي الرابع والعشرين من حزيران أمر السيد رجاله بالصعود الى القلعة ، ثم دخل بعدهم وأمر بأن تقام الذبيحة الالهية وتقدّم القرابين وأمر بأن يشيّد هيكل على شرف القديس يوحنا .

ووجدوا في القلعة خيرات كثيرة ، وكان بعض السكان فضّلوا البقاء في المدينة فقال لهم السيد بعد احتلاله اياها بثلاثة ايام : « الآن آمركم ان جميع ما اخذتموه من اخوانكم وسلمتموه للمرابطين يجب ان ترجعوه إليّ وإذا لم تنفذوا أوامري القيتكم في السجن وأثقلت ارجلكم بالحديد » .

ولما لم يجدوا سبيلاً الى تنفيذ اوامر السيد نزعت منهم املاكهم وسيقوا مكبلين الى بلنسية .

وبعد استيلاء السيد على جميع المناطق الواقعة في المشرق الاسباني ، عمد الى تنظيم الناحية الدينية فيها .

والمعاهدون منذ القديم كان لهم اسقف على رأس كنيستهم ، والسيد في سنة ١٠٩٠ كان يستلم الجزية ليسلمها لهذا الاسقف .

ليست حالة المعاهدين بالدرجة التي يحسدون عليها فيها . فحاول السيد ان يرفع مستواهم ، فطلب المشورة من احد الرهبان التابعين لقونية واسمه برنار سديراك ، جاء بعدد من الرهبان الفتيان من جنوبي فرنسة بلاده ليملأ بهم الامكنة الشاغرة في كنيسة طليطلة . وهؤلاء الرهبان شغلوا فيما بعد مناصب عالية في الكنيسة الاسبانية .

ومن جملتهم الاسقف ايرونيموس ارسله رئيس الكنيسة الطليطلية الى بلنسية سنة ١٠٩٧ فاستقبله البلنسيون المسيحيون استقبالاً حسناً ، وكان السيد قد حوّل المسجد الاكبر في بلنسية الى كنيسة للعبادة المسيحية على اسم القديسة مريم كما رأينا .

انتخب الشعب البلنسي والاكليروس الراهب ايرونيموس اسقفاً عليهم ، ثم سامه البابا اوربانوس الثاني مطراناً على المدينة واحتفل في الكنيسة — الجامع بالقداس الحبري .

قدّم السيد هبات كثيرة لهذه الكنيسة من أراضٍ وضياع في ضواحي بلنسية وجزيرة شقر والجبل ومورباطر والمنارة ، وسمح للآخرين بتقديم

هبات من هـــذا النوع رغم ان هذا التصرف من شأنه ان يضرّ بمصالح القنبطور المادية إذ يحرمه من موارد غزيرة لأن هـــذه الاراضي المقدمة للكنيسة معفاة من الضرائب .

وقبل إنهاء هذا الفصل نذكر كلمة عن بلاط السيد . فانه كان مؤلفاً من الاسقف ايرونيموس المذكور والبرهانيس وبطره برمدس ومرتين انطولينوس والبرسالفدروس ، وهي حاشية عائلية ولهـا روابط قرابة بالقنبطور منذ القديم ، وعندما شاء تزويـــج ابنتيه استشار البرهانيس وبطره برمودس قبل ان يستشير امرأته شيمانه . كما ان البلاط هذا كان يضم ايضاً برتغاليين واراغونيين .

* * * * * * *

وفاة السيد

كان العرب في بلنسية يعتقدون ان حياة السيد لن تطول . يومه بأيام لكثرة مـا مشت فيه الحياة ، انهكته الحروب الكثيرة والآلام النفسية والجسدية والجراح التي أصيب بها أثناء المعارك ولم تشف تماماً . كل هذه عجّلت في تقصير ايامه على الارض .

وأدرك السيد بحدسه ان حياته قريبة من التلاشي . فودّع أهله وأصحابه وأعلمهم بدنوّ أجله وتوجّه الى الكاتدرائية واعترف بجميع خطاياه للأسقف ايرونيموس امام جمع غفير . ثم عاد الى القصر ولازم الفراش ولم ينهض منه منذ ذلك الحين وصار يذوب ويتلاشى شيئاً فشيئاً ، وودّع زوجته شيمانه وكتب وصيّته ، ومن بعض ما أوصى ان يُنقل جثمانه الى قشتالة ليدفن في دير القديس بطرس القرديني .

وراح يتأمل في حياتـه التي عاشها على الارض واستعرض في مخيلته الاحـــداث والخطوب التي مرّت عليه والانتصارات والهزائم والنجـاح والفشل . كل هذا لم ينفعه شيئاً فردّد مع الشاعر :

« انظر الى ما ترى يا ايها الرجل وكن على حذر من قبل ترتحل
وقدّم الزاد من خير تفوز به فكل ساكن دار سوف يرتحل
وانظر الى معشر زانوا منازلهم فأصبحوا في الثرى رهناً بما عملوا
بنوا فما نفع البنيان وادخروا لم ينجهم مالهم لما انقضى الاجل
كم أملوا غير مقدور لهم فمضوا الى القبور ولم ينفعهم الامـل
واستنزلوا بعد عز عن معاقلهم لذل ضيق لحود ساء ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما دفنوا اين الاسرة والتيجان والحلـل
اين الوجوه التي كانت منعمة من دونها تضرب الاستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طالما أكلوا دهراً وما شربوا فأصبحوا بعد طول الاكل قد أكلوا
وطالما شيّدوا دوراً لتحصنهم ففارقوا الدور والاهلين وانتقلوا
أضحت مساكنهم وحشاً معطلة وساكنوها الى الاجداث قد رحلوا
أيا ابن آدم لا يهزأ بك الامل عن كل ما ادخرت كفاك ترتحل
اراك ترغب في الدنيا وزينتها وقد سعى قبلك الماضون والاول
قد حصلوا المال من حل ومن حرم فلم يرد القضا لما انتهى الاجل
كأنما الركب قد حطوا رحالهمو في جنح ليل بدار مـا بها نزل
فكلهم خائف أضحى بها وجلا ولا يطيب له حـــل ومرتحل
فقدّم الزاد من خير تسرّ غداً وليس الا بتقوى ربـك العمل »

والكلمات الاخيرة التي فاه بهـــا السيد قبل ان يفارق الحياة كانت هـذه : « الحمد لله خالق الإنسان وهو رب الارباب ومسبب الاسباب ، باسم الله الباقي السرمدي ، باسم الله مقدر القضاء والقدر ، يا ابن آدم ما اجهلك بطول الامل وما اسهاك عن حلول الاجل ! أما علمت ان الموت قد دعا لك والى قبض روحك قد سعى ؟ فكن على أهبة الرحيل وتزوّد

من الدنيا فستفارقها عن قليـل . سيدي وربي يسوع المسيح منك اطلب الرحمة والغفران ، وفي يديك استودع روحي » .

« من الاعمـاق صرخت اليك يا رب ، فاستمع صوتي ، لتكن أذناك مصغيتين الى صوت تضرعي ، ان كنت للآثام راصداً يا رب فمن يقف ، فان عندك المغفرة ، انتظرت الرب انتظرته نفسي ورجوت كلمته انتظار نفسي للرب أشدّ من انتظار الرقباء للصبح والساهرين للفجر .

راحتك الدائمة اعطهم يا رب ونورك الازلي فليضىء لهم ! »

وأسلم السيد روحه في العاشر من تموز سنة ١٠٩٩ ، سنة واحدة بعد احتلال مورباطر . فارتفع العويـل والنحيب فشقّ الرجال عليه الجيوب وحلقوا شعر رؤوسهم وذرّوا الرمـاد عليها والنساء خدّشن خدودهن بأظافرهن ، الحزن عليه شامل في منطقة بلنسية .

مات السيد لما انتصرت الحملة الصليبية الاولى في المشرق العربي . وفي الشهر نفسه توفي البابا اوربانوس الثاني الذي نظّم الحملة الصليبية الاولى . وفي هذه السنة نفسها أسّس غودفريد مملكة اورشليم بين بلدان اسلامية كما كانت مملكة بلنسية يحيط بها الاعداء من كل جانب .

وأوصى السيد امرأته شيمانه بالبقاء في بلنسية والدفاع عنها ، فعملت بوصية زوجها . وطلبت مساعدة رامون برنجير قند برشلونة فلم يبخل عليها بالمساعـدة ، وتعهّدت بتقديم العشور للأسقف ايرونيموس كما كان يفعـل زوجها ، ووعدت ايضاً بتقديم العشور عن جميع الاراضي التي تحتلها في المستقبل انهـا طموحة مثل زوجها ، وقد وعدت في ساعات من اليأس ملتمسة رضى السموات عنها ووقايتها من الاخطار المحدقة بها .

بعث امـير المسلمين يوسف بن تاشفين قائده الكبير مزدلي لاسترداد هذه المدينة ، فانقضّ عليها في اواخر آب اغسطس سنة ١١٠١ وضيّق عليها الحصار طيلة ستة اشهر يقاتلها من كل جانب .

فصبرت شيانه حتى نفـــدت جميع قواهـا فأرسلت تطلب مساعدة الامبراطور الادفونش السادس لقاء تسليمه المدينة .

ذهب المطران ايرونيموس وأطلع الملك القشتالي على حقيقة الامر . فما كاد يسمع الخبر حتى تهللت اساريره وذهب بنفسه لاستلام المدينة الشرقية التي طالما منّى النفس بنوالها .

وانسحب المرابطون الى قليرة لمـــا دروا بقدوم الملك الادفونش ، فاستقبلته شيانـه بالتهليل والترحيب وأكبّت على رجليه تقبلهما . انـــه محررها ومحرر المسيحيين في تلك المنطقة النائية .

ومكث الادفونش في بلنسية طيـــلة شهر نيسان من سنة ١١٠٢ ، وتقدّم نحو قليره وجرت بينه وبين مزدالي قائد المرابطين معارك دامية ، غير انه قرّر مغادرة المدينة لما لم يجد بين قوّاده من يجسر على البقاء في ذلـــك الموقع المنعزل عن المملكة ، أدرك بعد فوات الأوان ان السيد مظلوم وانه وحده كان قادراً على الاحتفاظ بتلك المدينة الجميلة .

وتجاه هذا الامر الواقع قرّر المسيحيون مغادرة المدينة بصحبة الجيش الاسباني الراجع الى طليطلة . فحملوا ما خفّ حمله وغلا ثمنه وجلوا عن المدينة من اول الى ٤ ايار مايو من سنة ١١٠٢ وتوجهوا الى قشتالة ومعهم جثة السيد .

ولما جلا الادفونش عن المدينة أمر باحراقها ، وهرع مزدالي لاحتلال الاكوام من الانقاض في الخامس من ايار ، وعاد اليها المسلمون الذين غادروها .

ولم تلبث بقية المناطق ان سقطت جميعها بأيدي المرابطين .

ولنسمع الشاعر الكبير ابن خفاجة من جزيرة شقر يمدح يوسف بن تاشفين بهذه المناسبة أي بعد استرداد بلنسية :

« الآن سح غمام النصر فانهملا وقام صنو عمود الدين فاعتدلا
ولاح للسعد نجم قد خوى فهوى وكر للنصر عصر قد مضى فخلا

وبات يطلع نقع الجيش معتكراً بحيث يطلع وجه الفتح مقتبلا
من عسكر رجفت ارض العدوّ به حق كان به من وطئه وهـــلا
ما بين ريح طراد سميت فرساً جوراً وليث شرى يدعونه بطلا
من أدهم اخضر الجلباب تحسبه قد استعار رداء الليل واستملا
واشهب ناصع القرطاس مؤتلف كأنما خاض ماء الصبح فاغتسلا
ترى به ماء نصل السيف منسكباً يجري وجاحم نار البأس مشتعلا
تغادر الطعن أجفان الجراح به رمدى وصيّر اطراف القنا فتلا
وأشرق الدم في خد الثرى خجلا وأظلم النقع في جفن الوغى كحلا
وأقشع الكفر قسراً عن بلنسية فانجاب عنها حجاب كان منسدلا
وطهّر السيف منها بلدة جنباً لم يجرّها غير ماء السيف مغتسلا
كأنني بعـــلوج الروم سادرة وقد تضعضع ركن الكفر فاستغلا
تظل تدرأ بالاسلام عن دمهـا وهبة السيف منها تسبق العذلا
في موقف يذهل الخل الصفي به عن الخليل وينسى العاشق الغزلا
ترى سني الاصفر البيض الوجوه به قد راعها السيف فاصفرت به وجلا
فكم هنالك من ضرغامة سفرت سمر العوالي الى احشائه رسلا
يرى على جمرة المريـخ ملتهباً تحت القتام ويعلو همة زحـــلا
قد كرّ في لامة حصداء تحسبها بحراً يلاطم من اعطافه جبلا
وللقنا اعين قد حدقت حنقاً وللظبى ألسن قد انضجت جدلا
فزاحم النقع حتى شق بردته وناطح الموت حتى خرّ منجدلا
موسداً فوق نصل السيف تحسبه مستلقياً فوق شاطي جدول ثملا
فكم ممزقـــة من جيبها طرباً قد مزّقت بعده من جيبها ثكلا
ورقرق الدمع في اجفانها رشق ترقرق السحر في اجفانه كحلا
قـــد بللت نحره بالدمع جارية بكر تمسح من اعطافه الكسلا
تفض عقـــد لآليـــه وأدمعه في نحـره فتراه حالياً عطلا »

خاتمـــة

كان احتلال بلنسية ، كما يقول العلامـــة الاسباني منندس بيدال ، من الاعمال البطلية الفردية . انـه اكبر مشروع طموح تم في اسبانيا على يد رجل لم يكن ملكاً ، والملك الادفونش السادس جازف بجميع قواه ولم يقوَ على الاحتفاظ بما خلفه له السيد .

ليس البطل ذلك الذي تبقى اعماله بعده من فتح وعمران . فالادفونش السادس والبرهانيس وبنو غومس ، باستيلائهم على طليطلة واحتفاظهم بها ، رغم الانكسارات المتوالية عليهم ، نالوا نجاحاً طال أمده اكثر من نجاح السيد في احتلال بلنسية ، مـع انهم جميعاً كانوا آلات تتحرك في جهاز الدولة المعقد ، ولم يكتب لاحدهم البقاء خارجاً عن الانوار التاريخية الشاحبة .

أما السيد فانه تقدّمهم جميعاً لان الهيئة الرسمية قد أبعدته عن هذا الجهاز الحكومي . المنفى نزع منه كل مساعدة مـن الملك ، ولكنه شدّ حيله بقوة فردية شخصية ليجابـه العدوّ الخارجي بثبات وإقدام . ولذا فان بلنسية التي ضاعت بعـــد موت السيد اطلق عليها التاريخ اسم « بلنسية السيد » .

وجد السيد في زمن استردّ فيه الاسلام حيويته . فالاتراك في الشرق هزموا الامبراطور البيزنطي واستولوا على ممتلكات اوسع من اسبانيا جمعاء ، والبرابرة في الغرب هزموا امبراطور اسبانيا الادفونش السادس ، وعاد من جديـــد طرفا البحر المتوسط للتعرّض للغزو العربي كما لو كان في ايامه الاولى ، ولكن اوروبـة انقذت الموقف في الغرب بواسطة السيد ، وفي الشرق بواسطة الصليبيين ، انهما عاملان مشتركان لهما غاية واحدة .

كان البابا اوربانوس الثاني يرى بقلق كبير تقدّم المرابطين في اسبانيا ، ولعلّ الحملات الصليبية التي أعدّها كان القصد منهـا صرف انظار هؤلاء عن اسبانيا الى الشرق فـلا يهاجمون اوروبا لانه يظن ان المرابطين كانوا قادرين على اجتياز جبال البرانس واجتياح القارة الاوروبية .

والسيد بتأسيسه مملكة بلنسية ، حذا حذو البطل الافرنسي غودفريد الذي أسّس مملكة اورشليم وغيرها من الممالك .

ومن المعلوم ان مملكة السيد لم يكتب لهـا البقاء طويلاً بعد موته . واذا كانت الممالـك الاخرى التي اقامها الصليبيون في المشرق قـد عمرت اكثر ، فما ذلك الا بفضل المساعدات التي كانت تنسكب عليها باستمرار من جميع انحـاء اوروبة ، بينما السيد لم ينعم بعطف احد ، والصليبيون أسسوا ممالكهم مثل انطاكية والرها وطرابلس ، على اساس حروبهم مع دويلات ضعيفـة وأصغر من دويلات ملوك الطوائف باسبانيا . ولكن عندمـا تجمعت هـذه الدويلات تحت إدارة صلاح الدين الايوبي سقطت الممالك المسيحية المؤسسة في المشرق دون ان يتوصل ريكردس قلب الاسد ملك الانكليز وشارل اغسطس ملك الفرنسيس على رأس القوات الانكليزية والفرنسية والالمانية على المحافظة عليهـا . والسيد وحده تجاه امبراطورية جبّارة في اوج عزّها وعلى رأسها اشهر الفاتحين العرب يوسف بن تاشفين ، استطاع إيقاف هذا الزحف . فلولا السيد لكان المرابطون تقدّموا بسهولة نحو لرده وسرقسطة في الثغر الأعلى ، ولكانت الضربـة على ملك ارغون وقند برشلونة أشدّ وقعاً من اندحار الزلاقة على الادفونش السادس ، ولا يخفى على احـد ان ملكي نبارة وارغون وقند برشلونة اضعف من ملك قشتالة الامبراطور الادفونش « سلطان الملتين » . ومن يعلم قـد يكون المرابطون فكّروا في غزو اوروبة لو توصلوا الى استرداد بلنسية بالسرعة المطلوبة وأمّنوا خط العودة .

بكلمة ان عمل السيد في بلنسية أنقذ اسبانيا وربما ايضاً جنوبي اوروبا من خطر ثابت ، مما اعطى المسيحيين المجال ليستعدوا لمجابهة الخطة الحربية

الجديدة التي جاء بهـــا يوسف بن تاشفين ، وترك الوقت متسعاً لسكان الصحراء الافريقية ليسمموا بالحياة الحضرية ليفقدوا قوّتهم البدوية وليدة البادية .

كان السيد يرغب في التعايش السلمي مع العرب الذين هم من اصل اسباني ، محترماً ديانتهم وشرائعهم وعاداتهم وممتلكاتهم ، كان عارفاً بالشرع الاسلامي والشرع المسيحي . فتربّع على كرسي بلنسية ليحكم بالعدل بـين المسلمين والمسيحيين ، فلم يرهقهم بالضرائب الثقيلة كما يفعل امراؤهم المستسلمون الى حياة الدعة والغارقون في المتعة بين الخصيان والقيان .

فتح العرب ابواب المضيق في وجه الافريقيين ، فخلقوا مشكلة جديدة. فالتعايش لا يمكن ان يتم ما لم يتوار الدخيل الافريقي . ورأينا كيف ان السيد يحاول دائماً خلق جبهة موحّدة ضد المرابطين ولكن لم تنجح هذه السياسة لان النفوس لم تكن متهيئة عند الطرفين لهذا التعايش .

ونبغ السيد في عبقريته العسكرية ، بينما فشل جميع ملوك اسبانيا في خططهم العسكرية وخسروا المعارك مـــع المرابطين في الزلاقة والمدور وجيان ولشبونة وكنسوجرا وغيرها . استطاع هو ان يهزم المرابطين في قوارت وبيرين واستطاع وحده احتلال بلنسية والمنارة وموروباطر .

يبين لأول وهـلة ان السيد رجل متهوّر مصاب بالجنون في محاولته كفرد دون ان تدعمه هيئة رسمية صنع ما لم يصنعه الامبراطور نفسه .

لو أمـدّ الله بحياة شانجه الثاني لكان تغيّر وجـه التاريخ الاسباني ؛ فشانجه والسيد ينسجمان كل الانسجام . ولو لم يقتل هذا الملك لما كان وقع غزو افريقي ولكانت انتهت معركة الاسترداد منذ ذلك الحـين ، ولكن مقتـــل الملك شانجه الثاني قلب الاوضاع رأساً على عقب ، ومع ذلك فالقشتاليون لم يعرفوا قيمة السيد ، فقلبوا له ظهر المجن ونفي عن بلده والتجأ الى الاقاليم النائية مفتشاً عن المساعدة عند الملوك الاسبان

فكسب ودّهم وأصبحوا اصدقاءه بعـــد عداوتهم له مثل قند برشلونـة وملك ارغون .

والملك الادفونش أساء التصرف نحـو السيد فـــلم يلق سوى الفشل الذريع امام المرابطين في معركة اكليش سنة ١١٠٨ التي قتل فيها غرسيه ارضونيس وابن الملك الادفونش الوحيد الذي أنجبـه من الاميرة العربية زيدة كنة الملك المعتمد بن عباد . وكان حزنه على ابنه هذا الذي لم يبلغ العاشرة من عمره شديداً لدرجة انه مات بعده بقليل إذ لم يقوَ عـــلى احتمال هذه المصيبة بمقتل وليّ عهده الامير شانجه الصغير الذي لم يعرف أمه فقد ماتت اثناء الوضع .

والسيد الذي احتقره قند برشلونة واميرا قاريون اثبت انه ارفع منهم قدراً بالأعمال التي قام بهـا ، وفتش عن المساعدة عند امثاله من طبقة الشعب ووجدها . وفي آخر ايامـه تصالح مع اخصامه بعد ان قهرهم ، وتصالح مع الامبراطور فانتصاره على اعدائه كان بطيئاً وصعباً وكاملاً .

ولكن جميع جهوده ذهبت كالهباء المنثور لأن من جاءوا بعـــده لم يحسنوا الاستفادة منها . انها جهود ضائعة .

المصادر العربية

الضبيّ ، بغية الملتمس في تاريخ رجال اهل الاندلس

ابن بسام ، الذخيرة

ابن حيّان ، المقتبس في تاريخ رجال اهل الاندلس

ابن خاقان ، قلائد العقيان

ابن عذارى ، كتاب بيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب

ابن الخطيب ، كتاب اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام

المقرّي ، نفح الطيب

* * * * * *

المصادر الأجنبية

PILES IBARS : Valencia Arabe

MENENDEZ PIDAL : El Cid Campeador

GUILLEN DE CASTRO : Mocedades Del Cid

ANONIMO : Cantar Del Mio Cid

BALLESTEROS : Historia de Espana

SIMONET : Historia de los Mozarabes en Espana

فهرست

	صفحة
التمهيد	٥
القسم الاول : غضبة الشرف	١٧
القسم الثاني : آمال تذوب	٣٦
بنو هود في سرقسطة	٤١
السيد القنبطور	٤٤
المنافسة بين قشتالة وليون	٥٠
بنو ذي النون في طليطلة	٦٥
المؤامرة	
القسم الثالث : حسد وافتراء	٧٢
ادفونش السادس ملك إسبانيا	٧٥
القسم في كنيسة القديسة غاته	٧٧
اوراكه	٨٧
اسبانيا والكرمي الرسولي	٩١
بنو عبّاد	٩٢
دولة بني زيري بن مناد الصنهاجي	٩٦
طليطلة	١٠٩
القسم الرابع : المنفى	١١٧
في المشرق الاسباني	١٢٠
في بلاد بني هود بسرقسطة	

صفحة

مصالحة عابرة ١٢٥
السيد في سرقسطة ١٢٨
معركة الزلاقة ١٣٣
المشرق الاندلسي منذ اوائل القرن الحادي عشر – بلنسية ١٥٣
ولاية لبيب الصقلبي ١٥٥
عبد العزيز بن ابي عامر ١٥٥
عبد الملك بن عبد العزيز ١٤٦
المأمون (ملك طليطلة) ١٥٧
الوزير أبو بكر بن عبد العزيز ١٥٧
عثمان بن ابي بكر ١٥٧
المنفى مرة اخرى ١٦٧
السيد في المشرق الاندلسي ١٧٢

القسم الخامس : جهود ضائعة – خلع ملوك الطوائف ١٧٨
خلع المعتمد بن عباد ١٨٣
خلع ملكي المرية وبطليوس ١٩٢
دولة بني الافطس ١٩٣
الادفونش وزيدة ٢٠١
السيد والمرابطون ٢٠٧
القاضي ابن جحاف ٢١٢
شيمانه في بلنسية ٢٢٦
زواج ابنتي السيد ٢٣٢
انتصارات وهزائم ٢٥٤
وفاة السيد ٢٦٠
خاتمـــة ٢٦٥
المصادر العربية والاجنبية ٢٦٩

مطابع الكريم الحديثة
☎ : ٩٣٠٢٧٧
جونيه - لبنان

في كل يوم غريب فيه معتبر
ناقاه أو يتلقانا به خبر
ارى الملوك اصابتهم بأندلس
دوائر السوء لا تبقي ولا تذر
قد كنت انظرها والشمس طالعة
او صحّ للقوم في أمثالها النظر
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر
هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا
وكيف يشعر من في كفّه قدح
يحدو به ملهياه الناي والوتر
صمت مسامعه من غير نغمته
مما تقرّبه الآيات والسور
تلقاه كالفحل معبوداً بمجلسه
له خوار ولكن حشوه خور
من حوله كل مغترّ وما علموا
ان الذي زخرفت دنياهم غرر
فقل لمن نام : اصبحت انتبه فلقد
مضى بك الليل نحباً وانقضى السحر
وانظر الى الصبح سيفاً في يدي ملك
في الله من جنده التأييد والظفر
يرعى الرعايا بطرف ساهر يقظ
كما رعاها بطرف ساهر عمر
ردوا موارد قد اوردتم حنقاً
بها الانام ولكن ما لكم صدر
كأنني بكم قد صرتم سمرا
وما لكم في الورى عين ولا اثر
اماتكم قبل موت سوء فعلكم
وكيف بالذكر إن لم تحسن السير

للشاعر الاندلسي ابي الحسن بن الجد